

المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

ستيفن سالايثا

الحروب الهمجية

العرب والمسلمون، وفق الفكر الليبرالي

ترجمة

يوسف عبد العزيز



1526

الحروب الهمجية إدانة قوية لخطاب اليسار الأمريكي المهيمن من خلال اثني عشر مقالاً بارعاً، يعود ستيفن سالايتمرة بعد المرة إلى موضوعاته الأساسية حول العنصرية المضادة للعرب والإسلاموفوبيا ونقص التفكير النقدي فيما بين "الطبقات الثرثرة"، موضحاً كيف تستمر العنصرية في الوجود في الأماكن التي قد نتوقعها فيها.

بالنظر إلى الموضوعات على تنوعها ، مثل "هل جاكاس يمكن تبريره؟"، "الانفتاح العقلي في يوم الاستقلال،" الطموح، والإرهاب، والتعاطف"، يستكشف "سالايتمرة" لماذا العرب مهمشون ، ومن الذي يبحث عن الاستفادة من ذلك . إنه يستمر في توضيح قضية أن العرب والمسلمين في حاجة ملحة لأن يُشملوا في الحوارات التي يقيمها الناس حول الجيوسياسات الأمريكية.

الحروب الهمجية
العرب والمسلمون، وفقر الفكر الليبرالي

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1526
- الحروب الهمجية
- ستيفن سالايثا
- يوسف عبد العزيز
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

The Uncultured Wars:
Arabs, Muslims, and the Poverty of Liberal Thought
By Steven Salaita

Copyright © Steven Salaita 2008

The Uncultured Wars was first published in English in 2008 by Zed
Books Ltd, 7 Cynthia Street, London N1 9JF, UK and Room 400, 175
Fifth Avenue, New York, NY 10010, USA

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

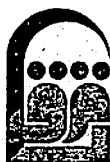
El Galalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

الحروب الهمجية

العرب والمسلمون، وفقر الفكر الليبرالي

تأليف: ستيفن سالايثا
ترجمة: يوسف عبد العزيز



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

سالاتيا، ستيفن.

الحروب الهمجية : العرب والمسلمون وفق الفكر الليبرالي/ تأليف:

ستيفن سالاتيا، ترجمة: يوسف عبد العزيز

ط ١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠

١٦٨ ص ، ٢٤ سم .

١ - الاستعمار الجديد.

(أ) عبد العزيز، يوسف (مترجم)

٣٢٥،٣

(ب) العنوان

رقم الإيداع : ٥٩٧٧/٢٠١٠

الترقيم الدولي: 7 - 997 - 479 - 977 - 978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

- 9..... مقدمة
- 13..... العنصرية ضد العرب، الليبراليون الأمريكيون والإرهابيون المدنيون الجدد.....
- 29..... القابل للضياع حتماً.....
- 39..... دعيتُ لارتكاب الإبادة الجماعية.....
- 55..... الانفتاح العقلى فى يوم الاستقلال.....
- 57..... "مايكل مور" يفعلها مرةً أخرى.....
- 71..... الطموح والإرهاب والتعاطف.....
- 87..... هل "جاكاس" لا يمكن تبريره ؟.....
- 99..... مخاطر ومكاسب أداء العمل المقارن.....
- 115..... عن أى شىء يتحدث "مايكل ليرنر" فى الواقع؟.....
- 123..... المهاجرون ليسوا متجانسي التكوين.....
- الخطر والتهديد فى كولومبيا، أو يوم دُعِيَ محمود أحمدى نجاد إلى العالم الأكاديمى
ومثلّ الإرهاب مباشرةً.....
- 127.....
- 141..... متعصّبو العقيدة السرية.....
- 155..... خاتمة.....

شكر

سعدتُ بمجموعة من الأصدقاء، والناصحين المخلصين، (وعادة ما يكونون معاً في آن واحد)، والذين مكّنتني دعمهم من أن أكتب بالطريقة التي أكتب بها الآن، وعن الأمور التي أقوم بدراستها. لقد كُتِبَ هذا الكتاب في وقتٍ شخصيٍّ صعب، وكان لن يتم الانتهاء منه لولا أصدقائي وناصحيّ المخلصين، الذين استمروا في حبي ومساندتي على الرغم من حقيقة أنني لم أكن أرد على الهاتف بالمرّة.

عناق مجازيٍّ قويٍّ وحرار، بعد ذلك، لهؤلاء الذين كانوا كرماء بحيث لم يخلوا أبداً بردود أفعالهم، وهم: "محمد عابد"، الحليف الفكري والمحلّ الأخلاقي البارِع، و"إيفيلين عزيزة السلطاني"، التي تتقذ بمهارة العرب والمسلمين من وضاعات الاستعمار الأكاديمي، و"ريما نجار كايبتان"، الصديقة العزيزة التي منع تقانيها في العدل تقانيّ أنا من أن يفتر، و"ديبورا ألكامانو"، رفيقة الطريق، والإلهام الغامر، والأخت الكبرى.

وأود أن أشكر أيضاً زملائي الرائعين بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة "فيرجينيا تيك"، خصوصاً "فرجينيا فاوولر"، التي كانت قراءتها لهذا الكتاب في صيغته المخطوطة مفيدة بشكل واضح، وطلابي الذين لم يتخرجوا بعد والذين تخرجوا، الذين زودوا حياتي بثراء فكريٍّ مستمر. فأنا أقدر نظراتهم الثاقبة ونقاشاتهم المغايرة المليئة بالحيوية، التي لعبت دوراً مهماً في الأسلوب الذي طوّرت به مادة هذا الكتاب. وكذلك أقدر المهنيّة العالية لـ "إلين ماكينليز".

ولا توجد طريقة يمكنني أن أعبّر بها بما يكفي عمّا أودّ أن أقوله لكلّ من "مايكل" و"دانيا"، لذلك سأتركها كالاتي: أنا مدين لكما بكل الكلمات في هذه الصفحات. والداي، "نصر" و"ميريام"، قد دعّما سعيي واختياريّ المهنيّة دونما كلل، ولهذا السبب ولأشياء أخرى كثيرة، أعبّر لهما عن حبيّ.

شء أخير ومهم جدًا: لا يمكن لأى عمل من أعمالى أن يكتمل دون أن يحظى بتشجيع وبنظرة فاحصة ذكية من "ديانا"، أذكى ناقدة اجتماعية قابلتها حتى الآن.

شكرًا على هذه الطاقة والحيوية، التى هى ثمرة ثانية لتشجيعك.

مقدمة

حروب هذه الأيام وحشية ومهلكة و تصل إلى كل مكان. إنها حروب كلامية وعسكرية، سياسية وثقافية، فردية ودولية، محلية وعالمية. إنها دائماً حروب متناقضة. لكن يوجد بينها شيء مشترك هو أنها جميعاً حروب همجية .

غياب الثقافة، بالطبع، يفسر في الخيال الغربي على أنه بربرية. وهذا التفسير ممكن من خلال مفهوم بسيط للثقافة على أنها شيء ما متعلق بأناس مهذبين يسافرون ليواجهوا بدلاً من ذلك شيئاً ما معاشاً كواقع مسكوت عنه في تفاصيل الحياة اليومية.

أن تكون همجياً هذه الأيام ليس فقط أن تكون غير مهذب. بل أن تكون متورطاً إلى حد ما في الموضوع الرئيسي في عصرنا، وهو الإرهاب. تحديد هوية الإرهاب هو نوع من الفعل الذي يغير فلسفة التشريع ويؤثر في السياسة، ولذلك فهو بالضرورة متحيز. كما أنه فعل عنصري. العرب والمسلمون قد أصبحوا بطرق معينة مرتبطين بالإرهاب. وبالتالي فنحن بشكل جوهري همجيون.

إنني أقبل بكوني همجياً. في المسرحيات الأخلاقية التي توضح أكثر فأكثر فن الخطابة الأمريكي، لا يمكنني أن أهرب من كوني منفيًا إلى المنطقة المهملة من فترة ما قبل الحداثة. في صراع الحضارات أنا موجود في مكان ما هناك. فأنا غريب، أمريكي المولد، أجنبي محليّ جديد. أنا أحب كوني همجياً، على الرغم من ذلك، لأنك كي تكون متفقاً هو أن تكون قد أفسدت عن طريق الترشيح والتتقية، أو التقطير.

لقد خسرتُ الآن الحروب الثقافية، ولذلك أنا بهذه المجموعة من المقالات أدخل الحروب الهمجية مستمتعاً. فقد رغبت لفترة من الزمن في أن أشرك في بعض القضايا التي تشغل اهتمام الطبقات المفكرة والثرثارة في أمريكا اليوم. وبدلاً

من المشاركة في هذه القضايا من خلال كتابة موضوعات رأى (١) op-eds عديدة في الصحف أو دراسات، قررت أن نوع المقال هو الوسيلة المثالية لكي أنجز رغبتى.

يتميز المقال بحرية الحركة دائماً، فهو يمكن أن يفعل أو يبدو كأي شيء تقريباً. والمقال يمكنه أن يغطي أي طول من أدنى حد إلى أقصاه. يمكنه أن يكون متعلقاً أو مشاكساً، وغالباً ما يكون الاثنان معاً في آن واحد. ويمكنه أن يكون ملهماً بشكل مذهل، وموضوعياً بشكل جدير بالاحترام. إنه متعة ونوع أدبي مستحق للقراءة، ولكنه ليس سهلاً بأية حال. إنه يستغرق وقتاً وتدريباً لتنمية المهارات المطلوبة لإنجاز مهمة المقال، حتى لو ظهر في البداية أن هذا النوع يمثل أقل القليل مما يتشارك فيه المتقنون من أفكار أو رأى واضح. لا ينبغي أن نربك أناساً مثل "توماس فريدمان" بكتّاب المقالات، وهم فئة تشمل مجموعة مثل "أرونداتي روى"، "فرجينيا ولف"، "جور فيدال"، "مات تايبى"، "أهداف سويف"، "ستانلى كروتش"، "ويونا لا ديوك"، "بيل هوكس"، و"تايابكى ألفرد"، كتّاب مقالات لا أتفق معهم دائماً، لكنهم يمثلون هذا النوع من الكتابة بحب ومهارة. إن إنتاج النثر غير القصصى الذي ينقل رأياً هو شيء متفرد. كتابة المقال، على الرغم من ذلك، تتطلب وجود البراعة الفنية، وإذا كان هناك مقال يُتوقع أن يكون جيداً، فإنه عندئذٍ سيحتاج إلى إعادة ترتيب نوع ما من استقامة الرأى. لهذا السبب يعدّ معظم كتّاب الأعمدة في الصحف استعراضيين متشابهين، وليسوا كتّاب مقالات. أو، كى نكون عادلين، معظمهم ببساطة كتّاب مقالات رديئون.

إن للمقال تاريخاً رائعاً في التراث الأدبى العربى الأمريكى. وهناك واحد من أشهر كتّاب العرب الأمريكيين، إدوارد سعيد، كان كاتب مقال غزير الإنتاج، حتى إن الكثير من نشاطه العلمى كان به لمسة وأسلوب المقال. فى الواقع قبل إدوارد سعيد نشر أعضاء "المهجر" مقالات متعلقة بالأحداث الجارية ومثيرة على

(١) مقالات تعبّر عن آراء شخصية. (المترجم)

أية حال، ومن هؤلاء الكتاب أمين الريحاني وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة. ومن كتاب المقالات العرب الأمريكيين اليوم : "جوزيف مسّاد"، "نعومي شهاب ناي"، "جوانا فاضى"، "ديانا أبو جابر"، "ليزا سهير ماجاج"، "جريجورى أورفاليا"، "راى حنانيا"، "يفيلين عزيزة السلطاني"، "المظ أبى نادر"، وآخرون كثيرون أنا متأكد من أنى نسيتهم - يمثلون هذا النوع من الكتابة بتنوع المضمون والأسلوب، ويرمزون للمجتمع المتعدد الذى يحدّون هويته.

سأكون مهتمًا فى العديد من هذه المقالات بالمبادئ الأخلاقية، وهى كلمة لا يمكن الاستهانة بإمكانية كونها غامضة وصارمة. علاوة على ذلك أود أن آخذ برهة من الوقت لأوضح استعمالها فى النماذج التى ستأتى بعد ذلك. إننى ملتزم بمفهوم معين للمبدأ الأخلاقى morality، على أنه شىء مختلف عن الحكمة الأخلاقية moralism، والتى تعد تعبيرًا ذا صلة بالنفاق. أنا أستعمل عبارة المبادئ الأخلاقية لكونها مساوية لكلمة الالتزام accountability المرتبطة بالإرادة الإنسانية الشاملة - اجتماعية، اقتصادية، بيئية، وسياسية. أنا لست متيمًا بكلمة "تبعية responsibility"، لكن يكون لدى فى عقلى شىء ما قابل للمقارنة عندما أستشهد بالأمر التى أتصورها على أنها أخلاقية فى الأساس - ربما تكون كلمة "المسئولية answerability" اختيارًا أفضل. أريد من الناس - وأنا فى المقام الأول واحد منهم - أن يكونوا مسئولين answerable عن النتائج العديدة للاختيارات التى يقومون بها كمستهلكين ومتفرجين وكقوى سياسية. إن كونك على وعى بالنتائج التى تتطلّب التحليل الجاد لكشف الغموض، هو العلامة المميزة لمبادئ أخلاقية سليمة. المقالات يمكنها أن تدعونا لكى نأخذ على عاتقنا هذا النوع من الاكتشاف.

والنوع المفضل لدى هو المقال السياسى، والذى يعلّل المقدار الأكبر من الأقسام فى هذه المجموعة. أتمنى للمزيد من الكتاب العرب الأمريكيين، خصوصًا الفئة المتزايدة من المؤلفين البارزين أن يحترفوا هذا النوع من الكتابة. كتابة المقال ليست فقط عملية منبهة وأحيانًا مطهرة، بل هى طريقة أخرى، بالنسبة لنا كعرب

أمريكين، للاستمرار في الحديث لصالحنا. وسوف ننهي بتقديم رؤى مختلفة إلى حد كبير، ولكن أي رؤية سيتمنى كل منا أن يتبناها، على الأقل هذا الرؤى ستكون خاصة بنا.

وإذا حدث واقتنيت هذا الكتاب، مهما كانت خلفيتك، ستصبح هذه المقالات مقالاتك، وتفضل بها ما تشاء. لكن من فضلك لا تسمها مقالات متقفة!

العنصرية ضد العرب، والليبراليون الأمريكيون، والإرهابيون المدنيون الجدد

فى يوليو من عام ٢٠٠٦، عندما دخلت سرية من "حزب الله" شمال إسرائيل وخطفت جنديين وقتلت ثمانية آخرين، وصفت وسائل الإعلام الأمريكية المطبوعة والمرئية تلقائياً الحركة بأنها عمل إرهابى، واعتبرت "حزب الله" منظمة إرهابية". كلمات الوصف افترضت ضرورة ملحة من نوع خاص، لأنها قدمت ذريعة لإسرائيل لتشن حملة قصف ثقيلة على لبنان، مخلّفة المزيد من الموت والدمار. كما أن قتل العديد من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين سيُبررُ بمعركة إسرائيل المزعومة ضد الإرهاب.

لقد أقرت وسائل الإعلام سواء من اليمين أو اليسار وصف إسرائيل والولايات المتحدة لحزب الله كمنظمة إرهابية، ولكن حقيقة هذا الوصف ينبغي أن تُناقش. إن لأخلاقية التدمير الإسرائيلي الوحشى لم تُبرز كثيراً من الجدل السياسى أو الأخلاقى بين هؤلاء الذين يفترض أن يفرقوا بين الأهداف العسكرية والأهداف المدنية، أو بين الإرهابيين والناس العاديين. المشكلة أن وسائل الإعلام الأمريكية أغفلت مراراً وتكراراً أى تفريق بين أى من كل ذلك، محولةً بهذه الطريقة العدوان الإسرائيلى إلى حالة دفاع عن النفس. مثل هذا الإغفال كان مقبولاً ظاهرياً بسبب وجود عنصرية متممة ضد العرب فى الولايات المتحدة تعمل على إزالة الصفات البشرية عن العرب، وتختزل الظواهر الاجتماعية والثقافية المعقدة فى العالم العربى إلى مستوى البربرية غير العاقلة.

هل قضى أى من المعلقين أو الجمهور بعض الوقت من أجل استكشاف هذه الظواهر، بدلاً من وصف حزب الله دون أدنى تفكير بأنه منظمة إرهابية. إن حدود النقاش ينبغي أن تنتقل إلى اتجاهات مفيدة. حزب الله قد تورط فى أعمال الإرهاب،

وأسوأها سمعة كان سنة ١٩٨٣ عندما فجر ثكنات جنود البحرية الأمريكية في بيروت، لكن دوره في لبنان قد أصبح على مدى طويل أكثر تعقيداً من كونه مجرد ميليشيا مسلحة. إنه كذلك منظمة سياسية شرعية تمتلك قاعدة راسخة من التأييد، وتقدم الخدمات الاجتماعية الضرورية لشريحة لبنان، الذين يعتبرون أفقر قطاع سكاني في الدولة، بالإضافة إلى اللاجئين الفلسطينيين. ولحزب الله أيضاً تأثير ثقافي في مناطق من لبنان، لأنه يؤكد وطنية رؤيته الشاملة للعالم والحياة بتصوره نفسه على أنه المتعهد الشرعي للتعبير الوطني ضد تدخل القوى الأجنبية. والمنظمة، على الرغم من ذلك، مسلحة وعلى مدى تاريخها نفذت عمليات يمكن أن توصف بحق أنها إرهابية. هذا فقط بعد واحد من مهمة معقدة، لكنه البعد الذي جاء ليعرف "حزب الله" في المخيلة الأمريكية.

في الواقع، طبقاً لوسائل الإعلام الأمريكية كل عنف عربي هو إرهاب. هذه الوسائل لم تحدد أبداً أي معيار نتج عنه مثل هذا الحكم، وفي الغالب لأن المعيار ليس سوى افتراضات متسرعة موحى بها من قبل الدافع العنصري، الذي يتصور أن العرب ليس لديهم السبب الوجيه على الإطلاق لارتكاب العنف، وبالتالي هم غير عقلاء، بينما الأمريكيون لا يمكن أن يكونوا غير عقلاء، كي يرتكبوا أعمال عنف دون سبب وجيه. الافتراضات انتزعت من سياقاتها من تفاصيل تاريخية ذات صلة - على سبيل المثال: خطف إسرائيل لمواطنين لبنانيين - ويصور ذلك على أنه أحكام محايدة تنتج عن مبرر موضوعي.

وبتنحية هذه القضية جانباً، قضية ما إذا كانت الموضوعية ممكنة الحدوث دائماً أم لا (غير ممكنة بالطبع)، فإن ما يسمّى بالأحكام المحايدة حول ما يمثل الإرهاب، يكشف الكثير عن كيف أن العنصرية ضد العرب تعمل في الخفاء وفي العلن في الولايات المتحدة. إدانة الإرهاب تبدو في الظاهر كأنها عمل محايد، ومع ذلك، من الذي يرغب في محاولة إثبات أن الإرهاب شيء جيد؟ في الواقع، على أية حال، فإن حصر ومساواة كل فعل عنف عربي على أنه "أعمال إرهاب"،

يكشف أن إدانة الإرهاب مبنية على أهداف سياسية، مما يؤكد المعتقدات السابقة بالتفوق الأبيض. لماذا، على سبيل المثال، المعلقون الأمريكيون متأكدون جدًا من كون حزب الله منظمة إرهابية، ولكن يبعدون هذه التسمية، مثلاً، عن الجنود الأمريكيين الذين يرتكبون فضاعات (أبو غريب، حديثة)، أو المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية الذين يحتلون أرضاً مسلوبة ويجمعون الحشود لقتل المدنيين الفلسطينيين؟

هذا السؤال ليس نوعاً من الخطابة. إذا سعينا لتقديم إجابة، فإننا سنواجه التراث الأمريكي في نزع الصفات الإنسانية عن أعداء أمريكا الجيوسياسيين، وفي هذه الحالة بإجمال العرب الذين يناوئون الطموحات الإمبريالية الأمريكية، جميعاً كارهابيين. والمفهوم ضمناً من هذا الإجمال هو الادعاء بأن العرب غير قادرين على دخول عصر الحداثة، وعلى ذلك مهما كانت المطالب التي يعبرون عنها من خلال العنف فهي بالضرورة لا مبرر لها، بينما العنف الأمريكي، مهما كان قبيحاً، دائماً ما يهدف إلى خدمة مصالح التقدم. ويشير السجل التاريخي إلى أن هذا الأسلوب قد استخدم إلى أقصى حد في نظام الحكم الأمريكي منذ زمن ثورات العبيد والإبادة الجماعية لسكان أمريكا الشمالية الأصليين .

إن الوقاحة التي تطبق بها وسائل الإعلام الأمريكية كلمة "إرهاب" على السكان العرب تعزز فوق ذلك تصور أن العنف في العالم العربي خارج سياق التطور التاريخي، ومن ثم فهو بلا معنى. كما أن العرب بدورهم أصبحوا شعباً بلا حكايات، ينتمى إلى ثقافة عاجزة عن الإدراك. هذه التصورات تشوش فهم الأمريكيين لكل من الولايات المتحدة والعالم العربي .

على سبيل المثال، إذا كان خطف حزب الله للجنديين الإسرائيليين قد صنّف بشكل يقيني على أنه عمل إرهابي، عندئذ سيظهر للعيان أن المعيار الممكن استخدامه لتعريف الإرهاب - عمل عنيف ضد جيش معادي - هو ذاته الذي يمثل التاريخ العسكري الأمريكي. حقاً، هذا المعيار سوف يحكم على جميع القوى

العسكرية للإرهاب (نقطة سيختلف حولها بعض دعاة السلام)، ولكن في هذه الحالة وسائل الإعلام طبقته بانتقائية على حزب الله من أجل إثبات اعتقاد فضفاض بأن عنفه يفتقر إلى الهدف. (إنه لديه هدف، وهو ألا نقول أننا يجب أن نقبل هذا الهدف أخلاقياً أو سياسياً). عندما يعترف الأمريكيون بهدف للعنف العربي، فإنهم يعزونه إلى عوامل دينية أو ثقافية بدلاً من العوامل السياسية، والتي، لكي نحددها ضمناً، هي حالة لصفة وراثية .

في يوليو ٢٠٠٦، عندما تسارعت وتيرة عملية تدمير إسرائيل للبنان، بدأ يظهر تغيّر في هذا الخطاب : فكرة أن المرء لا يستطيع بحق أن يفرّق بين الإرهابيين والمدنيين، لأن معظم المدنيين في لبنان هم إما في تعاون وثيق أو تعاطف مع حزب الله. وقد استخدم الصهيونيون مثل هذا الأساس المنطقي على نحو دوري للتعمية عن التطهير العرقي للفلسطينيين في الأراضي المحتلة. وقد وظّف المسؤولون الأمريكيون الأساس المنطقي ذاته أيضاً، كي يبرروا أعداد القتلى المتزايدة بين المدنيين في العراق. لكن لم يعد ذلك الأساس المنطقي يكتب كثيراً في التعليقات التي كانت سائدة أثناء الحرب الإسرائيلية على الشعب اللبناني.

ربما كان النموذج لهذه النظرة هو "ألان ديرشويتز"، خريج "هارفارد" الشهير وأحد المدنيين المؤيدين لمذهب حرية الإرادة. في صفحة نشرت في جريدة "لوس أنجيليس تايمز"، رفض "ديرشويتز" فكرة وحشية إسرائيل متسانلاً: "ولكن الآن من هو "المدني" في عصر الإرهاب، عندما لا يرتدى المسلحون زيّاً عسكرياً، ولا ينتمون إلى جيوش نظامية، ويندمجون بسهولة في السكان المدنيين؟". إن مغزى هذا السؤال واضح: جميع أفراد الشعب اللبناني هم إرهابيون محتملون، ولذلك هم مستحقون للقتل دون إلقاء اللوم على الإسرائيليين أو الأمريكيين. إن "ديرشويتز" يطيب هذه الحجة الخبيثة بلغة مضطربة ثقيلة، مستعملاً مفهومه الخاص ب - "تواصل المدنية"، والذي يعتبر طريقة خيالية للقول بأن إسرائيل لا يمكن أن تتصرف بأخلاقية ضد سكان مجردين من أخلاقيات أساسية.

"ديرشويتز"، الذي يلمح إلى أن القتل المدني اللبنانيين مشتركون في قتل أنفسهم، يصطنع حجته في الجملة الأخيرة من المقال: "إن مقتل أى مدنى هو مأساة، ولكن البعض أكثر مأساوية من الآخرين".

وقد جاء تعبير "ديرشويتز" الأخلاقى البغيض تعليقاً على الحصيلة المتزايدة للقتلى المدنيين اللبنانيين والعدد المتناقص للقتلى الإسرائيليين، والتي هيمنت على التغطيات الإخبارية في البداية. التغير الناشئ في التغطية أضيف إليه طوفان من الصور المستفزة التي انتشرت بين وسائل إعلام بديلة، بما فيها صور لأطفال إسرائيليين وهم يكتبون رسائل على قذائف كانت ستطلق في وقت لاحق، ولأطفال عرب متفحمين ومقطّعى الأوصال. وما إن أصبح استهداف إسرائيل للمدنيين غير ممكن إنكاره، حتى تحتم على "ديرشويتز" أن يجد طريقة لكي يغيّر أسلوبه الخطابى مع الاستمرار فى الالتزام تجاه إسرائيل. فلطالما ظل يحاول إثبات أن إسرائيل لا تستهدف المدنيين، ولكن ما إن أسقط ذلك الادعاء بواسطة وسائل الإعلام ذاتها والتي دائماً ما كانت تعتبر مؤيدة له، حتى قرر بدلاً من ذلك أن يحاول إثبات أن المدنيين الذين كانت تقتلهم إسرائيل ليسوا مدنيين فى الواقع، وهى حجة دليلها الوحيد رأى "ديرشويتز" نفسه .

إن موضوع الرأى الذى كتبه "ديرشويتز" هو مثال للعنصرية ضد العرب، لأنك عندما تخصص المشاركات الوجدانية لشعب واحد، سواء كانت هذه المشاركات من قبيل التملق أو هناك حاجة ملحة لها، فإنك تحصرها فى شىء ما من قبيل النظرة العرقية التى سرعان ما تبطل فاعليتها. علاوة على ذلك، فالرأى القائل بأن جميع اللبنانيين إرهابيون محتملون لا يمكن إقامة الدليل عليه تماماً، ولذلك فهو إجمال غير عادل. هذه الحجة تدعم اعتقاداً سائداً بين معظم الصهيونيين وهو أن العدوانية مرض مستوطن فى العرب وشىء دخيل على اليهود والأمريكيين البيض.

ربما يكون "ديرشويتز" نموذجًا لهذا النوع من الحجج، لكنه بالطبع ليس المؤيد الوحيد لها. بعد العدوان الإسرائيلي، رأينا وسائل إعلام المحافظين الجدد - في قضايا أخرى هم أعداء الليبرالي "ديرشويتز" - وتتفاعل مع ذلك ألقّت باللوم على الوضع المعقّد بشأن حزب الله (وسوريا وإيران، الراعيين الماليين للمنظمة، وكبشى فداء أيديولوجيا المحافظين الجدد). هذا اللوم كان مليئًا بالسباب العنصرى المميّز لمعلّقى المحافظين الجدد، والذي شمل تسمية الشرق أوسطيين ب-الرؤوس الخرق^(١) ragheads، مدعين أن جميع الفلسطينيين يشبهون الفئران ولديهم عيون خرزية، وأنهم أناس حقراء بسيور مرواح على مناشف يضعونها فوق رؤوسهم، ومقترحين أن تضرب الولايات المتحدة "مكة" بالأسلحة النووية. (انظر كتابي "العنصرية ضد العرب في الولايات المتحدة"، للمزيد من الأمثلة لعنصرية المحافظين الجدد) .

ردود الفعل الأكثر إثارة للانتباه تجاه العدوان الإسرائيلي جاءت من المحليين الليبراليين وفي بعض الحالات من التقدميين، والذين تجنبوا العنصرية العلنية، لكنهم سمحوا للاعتقاد القائل ببربرية العرب أن يؤثر على تحليلاتهم. فعلى سبيل المثال، عبّرت إحدى افتتاحيات مجلة "ذا نيشان" عن موقف مضاد للحرب لكنها فعلت ذلك عن طريق تقييم النتائج الاستراتيجية بدلاً من الإصابات البشرية، تمثّل ذلك فى ملخص المقال فى الصفحة الأولى من موقع المجلة على الإنترنت: "العنف المنتشر فى لبنان وغزة يُظهر بوضوح أن العقاب الجماعى للفلسطينيين واللبنانيين سيؤدى فقط إلى زيادة التطرف فى المنطقة". وجهة النظر هذه لا تذكر شيئاً عن لأخلاقيات عقاب إسرائيل الجماعى، بل تشدّد بدلاً من ذلك على مخاطره على الغرب، وتتجاهل أعداد القتلى من المدنيين العرب.

(١) إشارة إلى العمائم التى يرتديها بعضهم، ويقصدون من ذلك سب العرب والمسلمين (المترجم) .

مرة واحدة فقط في الافتتاحية أبدت مجلة "ذا نيشان" استنكاراً أخلاقياً وذلك بالظهور الوحيد لكلمة "غير إنساني". ومن ناحية أخرى، تعيد تدوير الكذبة التي تقول إن الشرق الأدنى ليس مسكوناً بالمدنيين بل بالمتطرفين والذين هم دوماً على شفا أن يصبحوا أكثر تطرفاً. أنا لا أريد أن أحكم على هذه الافتتاحية بأنها عنصرية، لكنني أجد الأمر محبطاً أن مجلة محترمة ذات رأى تقدّمى فى الولايات المتحدة فشلت فى أن تسبغ صفة الإنسانية على من هم على وشك أن يصبحوا سكاناً مجردين منها بشكل جدى.

جريدة "نيويورك تايمز" أعادت تدوير الكذبة نفسها فى إحدى الافتتاحيات، حيث ادّعت فيها أن "المزيد من القتل المدنيين فى لبنان لن يجعل إسرائيل أكثر أمناً". القارئ المجتهد يجب أن يسأل لماذا لم تُشرِ جريدة "التايمز" إلى أن المزيد من القتل المدنيين فى لبنان سيكون مستهجنًا أخلاقياً، أو أنه خرق مستمر للقانون الدولي. التأكيد المتحمس على الاستراتيجية فى مقابل القتل ممكن فقط من خلال عملية تجريد من الإنسانية، مشتركة بين الكاتب والجمهور. وبرصد وسائل الإعلام المطبوعة الرئيسية خلال الشهر التالى لعدوان إسرائيل على لبنان، لم أجد أى تعليق يدرس استراتيجية حزب الله دون إدانتها، أو على الأقل الإشارة إلى لأخلاقية استهداف المدنيين الإسرائيليين، إن ذلك نتيجة لحقيقة أن اليهود الإسرائيليين تُسبغ عليهم الصفات الإنسانية بشكل مضمون فى الولايات المتحدة .

تعليق يسارى آخر مريب ظهر فى مجلة "ذا بروجرسيف"، حيث أيدت "روث كونيغ" نظرية مضللة، لكنها منتشرة على نحو واسع، وهى أنه ما دام العنف موجوداً بين كل من العرب والإسرائيليين، فإن الإرهاب سيكون مقصوراً على العرب وحدهم. وقد اختتمت "كونيغ" هذا التأييد بأسلوبها ضعيف الخيال، مخصصة "العنف الإرهابى للعرب" والثأر العسكرى "لإسرائيل. كما لاحظت أن "الإسرائيليين ليسوا جميعاً متحمسين بشدة للحرب"، وهى ملاحظة تجعل القراء يستنتجون أن كل العرب متحمسين جداً للحرب. وكما حدث مع مجلة "ذا نيشان"،

سيكون ليس من العدل أن نحكم على رأى "كونيف" بأنه عنصريّ، لكن هذا يلفت انتباهنا إلى النقطة المهمة وهي أن بعض العنصرية ضد العرب التى تنشأ لدى اليمين تجد طريقها بمهارة إلى التحليلات السياسية لدى اليسار.

فى بعض الحالات، على الرغم من ذلك، فإن اليسار كما هو ممثّل بالصهيونيين الليبراليين يعيد تدوير العنصرية الصارخة ضد العرب، دليل عملى على ذلك هو موضوع الرأى الذى نشر لكاتب العمود فى جريدة "واشنطن بوست" ريتشارد كوهن" فى يوليو ٢٠٠٦. يبدأ "كوهين" تحليله بعمل تمييز أخلاقى بين اليهود والعرب: "الجنود الإسرائيليون المجنون إلزامياً أو جنود الاحتياط لا يعتقدون أن الموت والاستشهاد شيء واحد. لا عذراوات ينتظرن اليهود فى الجنة". بعد ذلك يستحضر الأسطورة القديمة التى تزعم أن إسرائيل ضحية بريئة للعدوانية العربية: "إسرائيل هى، كما أقول غالباً، موضوعة فى موقعها لسوء الحظ، كبناء متطور بين جيرة سيئة إلى حد ما". طريقة استعمال "كوهن" للألفاظ هنا متعمدة لصيغة المبنى للمجهول وبالتالي غامضة، مما يسمح له بتجنّب الحقيقة المزعجة وهى أن موقع إسرائيل سيئ الحظ ليس مصادفة تاريخية، بل كنتيجة لغزو استعماري مخطط بإحكام ومنفذ بوحشية. ويمكن الغموض أيضاً "كوهن" من أن يتجاهل القضية الحتمية للاستيطان ومن ثم لكى يكرر الفرضية العنصرية القائلة بأن العرب يهاجمون الإسرائيليين ببساطة لأنهم يحبون أن يقتلوا اليهود. وفيما يخص النزعة الطبيعية، الموثقة جيداً، لدى اليهود الإسرائيليين لقتل العرب كان "كوهين" واضحاً بشكل مريع: "الطريقة الوحيدة التى نضمن بها أن الأطفال لن يموتوا فى أسرتهن والشيوخ لن يموتوا فى الشوارع هو أن نجعل اللبنانيين أو الفلسطينيين يفهمون أنه، إذا، ولا يهم كيف يكون ضيقهم، أطلقوا هذه الصواريخ، فإنهم سيدفعون ثمناً باهظاً جداً جداً".

أنا أستخدم المراحل الأولى لعملية تدمير إسرائيل للبنان كحالة يُرجع إليها فيما يخص انتشار العنصرية ضد العرب، لأن هذه العنصرية، رغم أنها مستمرة،

تتجه مثل كل أنواع العنصرية إلى أن تزداد حدتها عندما تحتمّ الجيوسياسة وجودها. هذه الحقيقة كان يمكن أن تكون مستحيلة إن لم تكن الآن خطاباً متاحاً، وإن لم تكن وسيلة فعّالة لتبرير الوحشية الإسرائيلية والأمريكية في العالم العربي، ولتبرير الاعتداء الحكومي على الحقوق الدستورية والحريات المدنية بعد أحداث ١١ سبتمبر (انظر أيضاً: ديفيد كول، غرباء أعداء، وإلين هاجوبيان (تحرير): الحقوق المدنية في خطر).

النموذج الأكثر وضوحاً للعنصرية المؤسسية ضد العرب أثناء المراحل الأولى من تدمير إسرائيل للبنان كان القرار غير الملزم الذي يعتبر العرب مسؤولين عن العنف، والذي مرّره الكونجرس في تصويت ل- (٤١٠) مقابل (٨)، وهو مشهد نادر للازدواجية الحزبية (مساندة إسرائيل ودعم الأطماع المشتركة هي القضايا الوحيدة في حكومة الولايات المتحدة التي تحدث الازدواجية الحزبية بشكل منظم). أعلن "جون ماكين"، والذي يجسد النزعة الطبيعية للسياسيين الأمريكيين لتبرير قتل المدنيين العرب، أنه إذا اعتزم حزب الله شن هجمات من الأراضي اللبنانية، فسوف تدفع الحكومة والشعب اللبنانيين بشكل مأساوي ثمناً لذلك. وبمنطق "ماكين" سيكون للفلسطينيين المبرر العادل لقتل مدنيين أمريكيين لأن إسرائيل تشن بانتظام هجماتها عليهم بأسلحة مقدمة لها من الولايات المتحدة. (وللعلم، أنا لا أعتقد أن للفلسطينيين حق أخلاقي لارتكاب أعمال عنف ضد المدنيين الأمريكيين، ولكنني أعتقد بالفعل أن لديهم ما هو أكبر من الحق الأخلاقي في استخدام مثل ذلك العنف أكثر مما يفعل الإسرائيليون إزاء العرب. وهذا مبني على أساس موقفهم كطرف مضطهد تُلمس له الأعداء).

العنصرية ضد العرب ليست مضمفورة مع الفظاعات الأمريكية والإسرائيلية فحسب. بل إن لها وجوداً ثابتاً في الولايات المتحدة لما يزيد عن القرن من الزمان، وتجسدها الحديث يرجع تاريخه تقريباً إلى حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل. وقد وُجدت العنصرية ضد العرب عادةً في تيار اليسار وأيضاً في تيار اليمين (ولأنه

لديه كل أشكال العنصرية، فإن اليسار الأمريكي له تاريخ طويل من إسباغ صفة الشرعية على الأشياء ذاتها التي يزعم أنه يعارضها). بعد الحادى عشر من سبتمبر، قلّة من وسائل الإعلام البديلة (مثل إنترناشيونال سوشاليست ريفيو، وبالستينيان كرونكل، وديموكراسى ناو!) إما تجنبت التحليلات السطحية المضللة أو تحدّثت العنصرية ضد العرب بطريقة فعالة. ولا يزال قليل من المنابر يتّيح مساحة للعرب ليعبروا عن اعتراضاتهم الخاصة، إنها مشكلة النفوذ التي تستمر في التأثير على جميع الأقليات العرقية في الولايات المتحدة. ومن ناحية أخرى، فإن الليبراليين والتقدميين كالعادة كانوا متخاذلين فيما يخص قضية العنصرية ضد العرب، ليس فقط كانوا يفعلون القليل جدًا لرفضها، بل كانوا يزيدونها في بعض الحالات. يمكننا الرجوع إلى نموذج آخر لـ "روث كونيف"، كمثال ذى صلة بالموضوع، وهى تحوّل انتباهنا نحو العراق. كتبت "كونيف":

"جار لى، عاند فى أجازة قصيرة من رحلة عمل لمدة ثمانية عشر شهرًا كأحد جنود الحرس الوطنى فى العراق، عبّر لى عن اشمزازه من العراقيين، واصفًا إياهم بالشعب المتخلف، الذين لا يريدوننا حتى أن نبني المدارس. إنهم يفضلون أن يظل أطفالهم جهلاء ويعملون بالزراعة، قال ذلك. وهذا الشعور الموحش متبادل، لأن العراقيين ينظرون للولايات المتحدة بغضب متزايد. إنه جو غير مبشر.

وعلى عكس النموذج الآخر الذى ناقشته لـ "كونيف"، أرى أن هذا النموذج عنصري. يمكننا قبل كل شيء اعتبار جندى الحرس الذى استشهدت بكلامه - مفترضين أنها نقلت تعليقاته بدقة - عنصريًا ضد العرب، مفترضين أنه يُجمل العراقيين جميعًا على أنهم متخلفون وعدوانيون وجاحدون وجهلاء. وكونه قضى وقتًا فى الحرب بالعراق واحتمال أن يكون قد أصيب بأذى، هذا لا علاقة له بحكمى عليه كعنصرى، لأننى لا أجد فى تلك الوقائع أذارًا معقولة للإجمال السلبي، إن نظرية أن يسمح للجنود الأمريكيين بأن يحطوا من أقدار شعوب الدول التى يغزونها هى نظرية خبيثة ولا تنفيذ شيئًا سوى استمرارية الوحشية العسكرية الأمريكية.

نحن لسنا بحاجة إلى أن نربط بين "كونيف" والجندي من أجل أن نكتشف عنصريتها. إنها تتطرق بها بنفسها عن طريق صياغة تعليقاته وفي رد فعلها عليها. إن وصف عنصريته السافرة بتعاطف بانس على أنها "شعور موحش" هو في أفضل الأحوال تفسير تافه، وفي أسوأها أنه موافقة عليها. علاوة على ذلك فإن "كونيف" تورط نفسها بإشارتها إلى أن "الشعور الموحش متبادل"، وهو ادعاء لا تقدم أي دليل عليه (لأنه لا يوجد أحد يؤيد مثل هذا التعميم المبالغ فيه). ويعمل هذا الادعاء عمل خفة اليد: فهي تبرئ الجندي من موقفه المتعصب بافتراض أن العراقيين، الطرف الصامت في مقالتها، يجب أيضاً أن يخفوا مواقفهم المتعصبة. وكان بإمكان "كونيف" أن تستغل مناسبة تعليقات الجندي لكي توضح أن الحرب تعزز العنصرية، أو أن العراقيين بوضوح هم آدميون بما فيه الكفاية لإدارة شئونهم دون مساعدة جنود الحرس العنصريين، لكنها بدلاً من ذلك أخذت تبتكي وحشته كما لو أن ذلك بسبب عدم رغبة العراقيين في أن يخضعوا أنفسهم لهيمنة الأمريكيين.

إن أسلوب "كونيف" يذكرنا بموضوع سنة ٢٠٠٢ ل- "بربارا إيرنريتش"، التي نالت شهرة سيئة سنة ٢٠٠٥، لما قيل عن وصفها السودانيين العرب بأنهم "أشخاص يركبون الجمال هنا وهناك". الموضوع، مؤيد للحرب على أفغانستان لكنه منتقد للغزو المو شك للعراق، يدعو إلى، كما تفعل ذلك العديد من مقالات التقدميين، النزاهة الاستراتيجية بدلاً من النزاهة الأخلاقية أو القانونية. إذا قامت الولايات المتحدة بغزو العراق، فإن "إيرنريتش" تخشى "جيلاً من المسلمين الشباب في الرياض أو القاهرة أو هامبورج سيطلب الاستشهاد بقتل بعض منا". وبدلاً من اختلاق تهديد وهمي، فإن "إيرنريتش" قد تكون لاحظت عدم الشرعية الوحشية لقتل بعض "منهم". الاستراتيجية، بالطبع، اعتبار مهم، لكن المناقشة المقصورة عليها على حساب الهموم الإنسانية تؤدي في النهاية إلى التجريد من الصفات الإنسانية.

الأكثر إدانة، أن "بيرنريتش" توظف كلمتي "إرهاب" و"إرهابي" بيقين غير متفق مع قواعد النقد النزيه، حيث تكتب: "مع الإحجام الشديد والتشاؤم اضطرت أن أتفق مع إدارة بوش على أن أمريكا كانت في حاجة إلى أن تشن حربًا على "الإرهاب"، أو على الأقل تبذل جهدًا مكثفًا للقبض على الإرهابيين". "بيرنريتش" هنا تقصر الإرهاب على العالم الإسلامي، زاعمة أن أمريكا تشارك في أشكال شرعية من العنف، وهكذا فهي تعيد باختصار العبارة المبتذلة التي تقول بأن "العالم الإسلامي كله يستمتع بقتل الغربيين لأسباب خارجة عن النطاق الجيوسياسي. خذ على سبيل المثال استهدافها الماكر لمقتل مدنيين أفغان: "أعداد غير معروفة من المدنيين - ما بين ٥٠٠ و ٣٠٠٠ تقريبًا - حدث وأن تواجدوا في اتجاه القنابل والرصاص، مما يجلب لنا العداوة الدائمة ممن بقوا على قيد الحياة بعدهم".

مثلما حدث مع الأمثلة الأخرى للعنصرية المستترة في جانب اليسار، فإن مثال "بيرنريتش" مُعَبَّر عنه من خلال بناء دقيق للجملة، ففي هذه الحالة، سيفترض المرء أن المدنيين الأفغان يسعون بإرادتهم إلى أن يُقتلوا بالأسلحة الأمريكية، إنها تتجاهل الاحتمال البارز للعيان أن الأسلحة الأمريكية تمكنت من أن تصل إلى المدنيين الأفغان عن قصد. إذن فعنصرية التقدميين ضد العرب أكثر دهاءً من تلك التي لدى اليمين والتي غالبًا ما تكون صارخة وبالتالي يسهل اكتشافها. وفي اليسار، مع ذلك، يمكن أحيانًا اكتشاف ما يؤكد عليه الكتاب من خلال أسلوب الإغفال عندما يكونون وصفيين باختيارهم، وما يقولونه ضمناً حول قيمة الشعوب العربية والإسلامية عندما يريدون التأكيد على حرمة الحياة الأمريكية.

ومن هنا فإن الصفة الثابتة للعنصرية ضد العرب في الولايات المتحدة : هي المساواة المستمرة للعرب بالعنف الغريزي الوحشي، مجردة السياق المسلم به دائماً من أى مثال للعوانية الأمريكية أو الإسرائيلية. يوجد تضخيم للذات في الولايات المتحدة فيما يتعلّق بقضية الإرهاب، فهناك واحد يدعى أنه محايد لكنك تجده دائماً ذا اتجاه سياسي، وواحد يبرر الفساد الأخلاقي المحلي والدولي من خلال التلاعب

بالعواطف. إن اليسار التقدمي لن يفتعل أبداً مقاومة سرية مثمرة طالما هو مستمر في التشجيع ضمنياً على تضخيم الذات هذا، بدلاً من تحديد هويته والتحقق فيه.

مشكلة أخرى ذات صلة باليسار الليبرالي حول قضية العنصرية ضد العرب، هي عدم الرغبة في التعامل مع العرب على أساس إنسانيتهم الأصلية. وقد أصبح مؤكداً جداً لدى الملوثيين أن العنصرية لا يمكن أن تتأصل في أي مجتمع دون القبول من الليبراليين. وقد تغلبت الليبرالية على المشكلة بتزويد المؤيدين لها بـ"مريح"، وهو أن مجرد كونك ليبرالياً، فهذا كافٍ تماماً لأن تصنف كمقاوم للعنصرية.

ليس لأحد الحق في أن يصنف أحداً على أنه مقاوم للعنصرية على أساس الأيديولوجيا فقط، كما أنه ليس لأحد الحق في هذا التصنيف بناء على أن له أصدقاء عرب، وعلى لافتات الحشود المناهضة للحرب، وعلى ملصقات السيارات، الداعية للتعايش السلمي، و"داروين فيشيز" (1) وعضويات التعاونيات، أو النوايا الحسنة. أن تكون مناهضاً للعنصرية - أن تكون مقاوماً للعنصرية بحق - فهذا يستلزم شيئاً أكثر من وضع الشعارات وأكثر من النظار بالعلامات السطحية لايديولوجيا سياسية معينة. أن تكون مناهضاً للعنصرية يعني أن تكون عازماً على التضحية بأى ميزة خاصة لصالح جميع البشر. إنها تعنى الرغبة في العمل بدلاً من التفلسف. إنها تعنى التشوق لمعرفة الآخرين بدلاً من الولع بوعظهم. إنها تعنى دائماً السعى لاكتشاف مدى تورط المرء شخصياً في الأمور التي يمتقها الإنسان بالفعل.

إنها تعنى جميع هذه الأشياء بسبب مدى العمق المتأصلة به العنصرية في الولايات المتحدة. ولا ينهى المرء العنصرية بمجرد أن يجمع قليلاً من أصدقائه أو

(1) جماعة فكرية تهتم بطبع وبيع الملصقات التي تحتوي على صور الأسماك، وتستخدم الأسماك كرمز للدعوة إلى الانضمام إلى المسيحية. (المترجم)

أن ينظم تظاهرة باللافتات ضد الحرب. لكي نقضى على العنصرية فى الولايات المتحدة، سوف نحتاج إلى أن نعترض على كل ما يعتبر أمريكياً فى الأساس، لأن تفسير "الأمريكية" الذى يواجهنا اليوم يعتمد بعمق على وجود العنصرية، بما فيها العنصرية ضد العرب، التى تكمن وراء كثير من الجيوسياسات الرأسمالية الأخيرة للولايات المتحدة.

لذلك ينبغى علينا أن نهى نظرية أن الليبرالية تعادل تلقائياً التسامح، أو أن الليبراليين مناهضون للعنصرية بإخلاص. الليبراليون كانوا وما زالوا جزءاً من المنظومة ذاتها التى خلقت العنصرية، موضوع مناقشتنا فى هذا المقال. هذا الاجترار على التسامح، الذى وُضع لإطالة أمد الاستعمال لفترة طويلة من قبل الليبراليين الأمريكيين، هو التعبير المادى عن رفضهم لمواجهة العرب على أساس إنسانيتهم الأصلية. إن إعجاب الليبراليين بهذا التصور العام فيما يبدو، يعكس عدم رغبتهم فى عمل ما هو ضرورى للتخلص من العنصرية.

التسامح فى الواقع تصور أحمق وهدف خبيث، والذى يشبه الادعاء بأنه يغذى القول بالمساواة بين البشر. التسامح كمعتقد مؤسس ضد العنصرية أو أى شكل آخر من الظلم الاجتماعى هو مبدأ خبيث، لأنه لا يفعل سوى تعزيز ما يبدأ الظلم ظاهرياً فى التخلص منه. المؤيدون المخلصون للتسامح ربما يشعرون أن أخلاقيات التسامح لديهم نبيلة وصالحة. لكننى متردد فى ترك الأمر يستقر على هذا الافتراض. بالتأكيد هناك عدد من الليبراليين الذين يعرفون جيداً جداً أن التسامح هو عبارة عن ستار من الدخان، يحول بطريقة فعالة دون المبدأ الفعلى القائل بالمساواة بين البشر، ويعزز فقط البنية الفوقية البيضاء التى حكمت أمريكا الشمالية منذ بدايات القرن السادس عشر. التسامح ليس سوى علاج وقتى، إنه لا يتطلب أبداً أن يدرك الناس الآلية السياسية المجحفة التى تنتج العنصرية، والتى يجنى المستفيدون منها، بما فيهم أغلبية الليبراليين البيض، المزايا العاطفية والاقتصادية الاجتماعية.

علاوة على ذلك، فإن أهدافى - كفرد ينتمى إلى مجتمع أقلية - متنوعة وطموحة، وأن أكون "متسامحاً"، ليس واحداً من تلك الأهداف. أنا أفضل كثيرًا - كما يفضل إخوتى فى العرقية، وأجروا على أن أقول ذلك - أن أكون محترمًا بفضل إنسانيتى المتأصلة، وأن يكون لدى القدرة على الوصول إلى الحقوق والمسئوليات الاجتماعية، التى تنشأ من العيش ضمن منظومة من المساواة الاجتماعية الحقيقية. كل من القانونين الأمريكى والدولى، على أى حال، يعلن أن لى حقوقاً أكثر من السخاء المزعوم فى حال كونى متسامحاً. أن أكون متسامحاً هو حتمًا أن أكون تابعًا لأولئك الذين لديهم سلطة أن يعتبرونى متسامحًا - وبالتالي سوف تتغير فرصى بشكل غير محتمل.

أصبح الشعار الليبرالى للتسامح ذائعًا فى الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر، خاصة فيما يتعلق بالعرب والعرب الأمريكىين. والعرب عمومًا مهمشون ومحتقرون ومحاصرون. وفى لحظات الكرم، على أية حال، يتحول العربى فى المخيلة الليبرالية من كونه أجنبيًا إلى موضوع فضول مقبول، موضوع ينهى شرعنة معظم الطهارة المسيحية المحفورة فى المخيلة الليبرالية. ولأن العرب كانوا عرضة للاستراتيجيات المتنافسة (لكنها ليست بالضرورة متخاصمة) للمعاقبة (بين المحافظين) وللتسامح (بين الليبراليين)، فقد كانوا يميزون بأنهم مختلفون. وبهذا التصور للعرب على أنهم بطريقة ما بعيدون عن بقية الأمريكىين، وعلى أنهم مختلفون نوعًا ما فى التحليلات الكريمة، ومتوحشون بشكل بشع فى التحليلات الأقل ادعاءً، تستمر أساطير العرق لتكون حتمية فى الولايات المتحدة.

هذه الأساطير وإن بدت متماسكة ظهرت على خلفية عدوان إسرائيل على لبنان، كما تفعل عادة عندما تجعلها أى لحظة جيوسياسية شيئًا مناسبًا عمليًا. إنها تمكّن الليبراليين والتقدميين من أن يكونوا انتقاديين بما فيه الكفاية للولايات المتحدة وإسرائيل، بينما تأييدُ هذه الأساطير للمزاعم المتواجدة منذ زمن والتي تنزل العرب إلى منزلة دون منزلة البشر، وهذا أكثر أهمية - يحمى الامتياز الأبيض فى

مواجهة ما ستوجهه المسؤولية الحقيقية. إن معلومة أن الليبراليين البيض كثيرًا جدًا ما يتحملون مسؤولية حقيقية، كافية لمناقشة ولاءاتهم الأساسية، والتي عندما لا تكون في تأييد فعلى للإمبريالية الأمريكية والإسرائيلية، تكون متواطئة معهما بجهل. هذا التأييد والتواطؤ، مُتَكَرِّينَ على أنهما استتارة، يتواجدان فقط بسبب الحضور المتزامن وليس المصادف أبدأ، للعنصرية ضد العرب .

القابل للضياع حتماً

فى صيف ٢٠٠٦، ظهر "جون نيكولاس" - وهو كاتب عمود الرأى بجريدة "ماديسون كابينال تايمز" التقدمية، والكاتب المعين بجريدة "ذا نيشان" - على "راديو ١٦٧٠، ذا بالس The Pulse"، ليناقد موضوعاً كتبه حول اجتياح إسرائيل للبنان. وكان مُحاوره المذيع "جون سيلفستر" الشهير ب-"سلاى"، المعروف بتسميته ذات مرة "كوندوليزا رايس" بالعمّة "جيمينا"^(١)، و"كولين باول" بالعم "توم"^(٢).

"سلاى"، وهو ليبرالى ملتزم، يعتبر صهيونياً مخلصاً، وقد أراد أن يفتح نقاشاً حول انتقاد "نيكولاس" المزعم لإسرائيل. وها هو ما كتبه "نيكولاس":

" لا يوجد صديق حقيقى لإسرائيل يمكن أن يكون سعيداً بما يفعل الآن باسم تلك الدولة من قبل رئيس الوزراء إيهود أولمرت وأتباعه المضللين.

إن هجوم إسرائيل على لبنان، والذى قتل حتى الآن وجرح المئات، ودمّر الكثير من البنية التحتية لتلك الديمقراطية الهشة - بما فيها المطارات والموانئ والكبارى والطرق - لم يفعل شيئاً من أجل أن يجعل إسرائيل أكثر أمناً، أو أكثر سلامة من التهديدات التى تشكلها منظمة حزب الله الإسلامية المسلحة. فى الواقع، أصبح هجوم المجموعات الإرهابية على أهداف فى شمال إسرائيل أكثر جراً - ومميتاً - منذ بدأت إسرائيل تضرب لبنان.

ولا يوجد مشارك جاد فى الخطاب المعاصر يمكنه أن ينكر أن إسرائيل الحق فى حماية نفسها. ولكن لا أحد من ذوى الرأى السليم يعتقد أن إسرائيل تنفذ هذه المهمة بطريقة ذكية".

ومثل الدعوات الليبرالية المعاصرة للولايات المتحدة إلى أن تسحب قواتها من العراق، فإن تحليلات "نيكولاس" تدعم حق إسرائيل فى استخدام العنف، ثم

(١) علامة تجارية لشركة أطعمة إفطار أمريكية شهيرة (المترجم) .

(٢) رمز لشخصية الأمريكى الأسود المستعد لأن يفعل أى شىء بما فى ذلك خيانة بنى جلدته، من أجل أن يبقى على نفوذ قوى مع الأمريكى الأبيض (المترجم) .

تحثها بعد ذلك لا لأن توقف هجماتها بل لأن تمارس نوعاً من العدوانية أكثر حكمة.

إن "نيكولاس" محقّ في قوله إن إسرائيل كدولة ذات كيان لها الحقّ في أن تحمي نفسها. على أية حال، بإقراره بما هو ظاهر، فإنه يتغاضى بذلك عن عدد من النقاط المهمة. التحليل الأكثر ذكاءً ربما يسأل لماذا يُعامل موضوع حماية إسرائيل كأنه مسألة أخلاقية بديهية. وبجعلها بديهية، فإن هذا النوع من المسائل الأخلاقية، يجعل العرب غير إنسانيين لأنه يلغى حقهم في أن يحموا أنفسهم من إسرائيل. بمعنى آخر، فإن "نيكولاس" يمكنه أن يثبت رأيه ذا المنطق السليم فقط على حساب اللبنانيين. وربما يجد قراءة "أنطونيو جرامشي" شيئاً مفيداً^(١).

وكون الصهيونية "سلاى" يفتح نقاشاً حول رأى أكد بشكل أساسي، أو برّر ضمناً كل وحشية إسرائيل فإنه شيء لافتح للنظر. إن رد فعل "سلاى" يوضح تفاني الصهاينة لدرجة الولاء الكامل، ولكنه مفيد لأناس مثل "نيكولاس"، الذي يمكنه حينئذٍ التظاهر بأنه مستقلّ فكرياً أو معارض. إنها مجرد طريقة مختلفة للتضحية بنفسه في سبيل إسرائيل .

أثناء البرنامج، أخذ "سلاى" و"نيكولاس" بعض الوقت وهما يتجادلان. إسرائيل، أعلن "نيكولاس" - مبدئياً نوعاً من المواقف المعارضة التي يشتهر بها البيض أصحاب الامتيازات - الآن في ظروف جائرة. وقد استغرق ظهوره في راديو "ذا بالس" اثنتين وعشرين دقيقة. في الاثنتين وعشرين دقيقة تلك، نجح "نيكولاس" في ألا يقول أي شيء إنساني عن الفلسطينيين أو العرب. وبدلاً من ذلك اعتبر بعضهم "إرهابيين مخبولين" وبعضهم الآخر "إرهابيين متمرسين". كما أعلن أن "هناك الكثير من الناس السيئين [في الشرق الأوسط] بين مجموع يستحق

(١) أنطونيو جرامشي (١٨٩١-١٩٣٧) فيلسوف إيطالي وكاتب ومنظر سياسي ماركسي، كان أحد مؤسسي وقادة الحزب الشيوعي الإيطالي (المترجم) .

الاحترام"، وهو تنازلٌ بأن لا أحد يمكن أن يحيره التصرف المحترم. ما حدث لإسرائيل، من ناحية أخرى، هو شيءٌ "مرعب" و"قظيع"، لأن إسرائيل "أجبرت على أن تكون في هذا الموقف". لقد عبّر "نيكولاس" عن الانزعاج العميق من أجل أمن إسرائيل، بينما تجاهل حق الفلسطينيين في الشيء نفسه. (في الواقع، لأنهم الجانب المحتل، فإن حقهم في الأمن هو الأكثر إلحاحاً في نفس اللحظة من حق إسرائيل). الشيء الإنساني الوحيد الذي ربما يكون قد تمكن من قوله عن العرب هو "يوجد كثير من العرب الذين بلا ريب ليسوا مخبولين بل هم متحملون للمسئولية فعلاً"، أسلوب بلا ريب يجعل المستمعين يستنتجون أن معظم العرب مجانين وغير مسئولين.

إن رأى "نيكولاس" يجسد مدى اللغو الحذر. فهو صنعة المخيلة الليبرالية، وهو وسيلة تحايل تُستدعى للوجود لأن مراكز القوى ترحب - بل تطلب - بنوع المعارضة الذي يقدمه.

في إحدى نقاط البرنامج، توقع "سلاي" أن ديكتاتورية صدام حسين المستمرة سوف تكون أفضل شيء للولايات المتحدة. وافقه "نيكولاس"، مشيراً إلى أنه "لا يوجد مجال للشك" في أنه مع بقاء صدام في السلطة فإن المنطقة ستكون أفضل بالنسبة "لنا".

زميلة "نيكولاس" ورئيسة التحرير "كاترينا فاندين هيوفايل"، مغرمة بدراسة وجهة نظر مشابهة في صيغة شعار: "ما هو مؤذٍ للأمة، مفيد لمجلة الأمة The Nation" (1). "هيوفايل" تنشر هذا الشعار كصورة فنية فكاهية علناً، وكنوع من التلاعب الموحى بالألفاظ، وكطرفة انتقادية على موقع مجلة "ذا نيشان". في الواقع، الشعار فارغ بشكل حذر، وبدل على غياب المهارة التحليلية، أو على الوضاعة الأخلاقية. (وأعتقد أن ما تبقى من العالم سيظل منتظراً أن يُشمل في هذا الشعار).

(1) (what's bad for the nation is good for The Nation) (المترجم)

هل تريد "فاندين هيو فيل" أن تقول أنها ستفقد جميع الامتيازات المتناسبة مع وظيفتها في مجلة "ذا نيشان"، فقط إذا أصبحت "الأمّة" بخير؟ بمعنى آخر، لماذا هي لا تستخدم الشعار التالي: "ما هو مفيد للأمّة، مؤذٍ لمن تدعى مجلة" ذا نيشان" أنها تعارضهم".

في السنة الأولى من وظيفتي الجامعية الحالية دعيت إلى حفلة على شرف خريجي القسم المتميزين - وكلمة "متميز" بالطبع تعبير لطيف عن كلمة "غنى". وباقتراض أن الخريجين كانوا من برنامج اللغة الإنجليزية بالإضافة إلى كونهم أغنياء، فليست مفاجأة كبيرة أن يكونوا جميعًا من البيض. وباستثناء اثنين، أنا وامرأة سوداء، فإن الحضور العشرين تقريبًا من الكلية كانوا أيضًا من البيض. وقد غادرت المرأة السوداء مبكرًا بسبب التزام سابق لديها.

طاقم تقديم الطعام المكوّن من أربعة أشخاص، مزدانين بالسترات البيضاء ذات الطبقتين، كان كلّه من السود. بطاقتها السوداء المنتظر في زيّ حائل اللون، وأعضائها البيض مترعين كئوس الخمر، كانت الحفلة مشهدًا من "الجنوب القديم"⁽¹⁾.

لم أعتبر أبيض أبدًا من قبل زملائي، ولم أعتبر نفسي أبيض قط، لكنني فاتح اللون بما يكفي لتحقيق الغموض الاجتماعي عند التفاعل مع البيض الذين يتخيلونني مؤيدًا، بما يكفي لتركي أطلع على السرّ. أي شخص قضى وقتًا في أماكن مليئة كلها بالبيض يعرف بالضبط ماذا يكون "السرّ". إلى جانب أسلحة إسرائيل النووية، ورغم ذلك، يتصادف أن يكون هذا هو أسوأ أسرار العالم المحفوظة، وهو سرّ يعرفه الأمريكيون الأفارقة أنفسهم جيدًا جدًا. إنه سر، مع ذلك، لكن بمعنى أن أصحابه البيض يصرون على أنه لا يوجد بالمرّة.

(1) يحمل مسمى الجنوب الأمريكي القديم للجنوبيين البيض نكباتهم عن الرخاء والنظام الاجتماعي، أما بالنسبة للسود فهو يذكرهم بأيام العبودية والعمل الشاق في الزراعة. (المترجم)

السر هو أنه في الأماكن الاجتماعية الخالية من المشاركين السود، تصبح العنصرية مطلوبة بحكم الإتيكيت. العداء الصريح مقبول، لكن التعليقات الساخرة والاشمئزاز ستكون مقبولة أيضاً. هذه الحفلة، في ذلك الحين، عملت كمنطقة آمنة حقيقية للتمييز الأبيض (مع أنه يجب ملاحظة أن غياب الأجساد السوداء ليس ضرورياً بالتأكيد للتعبير عن العنصرية البيضاء).

لم يمر وقت طويل على الضيوف المتأقنين حتى بدأوا الشكوى من مجلس الكلية المكون من السود، مستنتجين أنه مع هذا المجلس دائماً ما يوجد شيء خطأ.

انتقل الحديث بشكل حتمى إلى اليمين المتطرف، وهو موضوع مفضل بين الثرثارين الأكاديميين الليبراليين. (إن استحضار الناس الممقوتين ثم مهاجمتهم بعنف بطريقة تلفت الانتباه من أجل ممارسة العدل بدون ميزة التحقيق الفعلى، هي خاصية من خواص مهنة التدريس في الجامعة) .

وسط الشكاوى المتكررة من الثيوقراطيين⁽¹⁾ زائدى الأهمية عن اللازم والسود الذين يستعرضون القوة، انضم عضو من الكلية إلى الحديث. "هل أسمعكم تتحدثون عن "جبرى فالويل"؟"، وعلى تأكيدنا، علق قائلاً: "الجميع في العالم سيكونون في حالة من الرضا، إذا حدث وقُبض عليه في حجرة فندق مع ولد أسود".

الشخص الذى أبدى هذه الملاحظة ليس "جون نيكولاس" أو "كاترينا فاندين هيوفايل"، مع أنه، من وجهة نظر أخلاقية، ربما يكون أحدهما أيضاً. جميع المتحدثين الثلاثة يستخدمون الافتراض ذاته فى إنتاج ما يتخيلونه أن يكون مناقشة متحررة غير منحازة وذات معنى. هذه المناقشات تمثل شكلاً خاصاً غريباً للخطابة الليبرالية البيضاء، والتي تظهر اهتماماً بالعدالة الاجتماعية، بينما فى الواقع تعمل فقط من أجل الحفاظ على مصالح البيض. الليبرالية، مثل جميع الرؤى السياسية

(1) الثيوقراطى هو رئيس أو عضو حكومة تخضع لرجال الدين. (المترجم)

العالمية، هي شيء معنوي حتمًا، لكنها تُقدّم هنا على أنها شيء محسوس، وتُمنح مجموعة من الالتزامات التي تُخضع جميع أشكال القوة الأخرى.

وجهة النظر الخطابية هذه خبيثة، لأنها تحتاج دائمًا إلى شخص ما لكي يُضخّي به. إنه المحروم من حقوقه المشروعة هو المرشح حتمًا للتضحية .

"سلاي" و"نيكولاس"، على سبيل المثال، يريدون فرض الديكتاتورية على الناس، طالما أن مصالحهما كأمركيين محفوظة. نظرًا لتجرده من أي عاطفة، فإن هذا النوع من المواقف يصنع أساسًا منطقيًا للإمبريالية والاستعمار، وفي النهاية ينشئ علاقة جدلية مع العنصرية. مركزًا على مصلحة جيوسياسية ضيقة كأساس لتحليل السياسة العامة، ينشئ "نيكولاس" تسلسلاً هرميًا، والذي يحول دون أي إمكانية واقعية لحوار يتخطى الحدود القومية، أو للتعاون. ثم يعيد تعريف الولايات المتحدة على أنها المكان الطبيعي للاعتدال السياسي. في هذه المعالجة، هو، علاوة على ذلك، يثير العداوة ضد العراق، المكان الذي أصبح فيما بعد، كما يرى "نيكولاس"، "مجنونًا جدًا". إنه من السهل أن تصبح غير مكترث بسكان مثل هذا المكان.

إن شعار "فاندين هيوفايل" المتكرر في أغلب الأحيان هو الأكثر سوءًا نوعًا ما، فقط لكونها مستعدة للتضحية ببقية شعوب العالم بالإضافة للعراقيين. لهؤلاء الذين ربما يثبتون أنه لا أحد من هؤلاء الليبراليين يؤيد في الواقع أي نوع من التضحية، أريد أن أشير إلى أن التضحية يمكن اكتشافها كمعنى ضمنى كامن، والذي بدونها سوف تفقد شعاراتهم وعباراتهم معانها سواء كتلاعب بالألفاظ أو كتعليق. خذ على سبيل المثال تعبير "ما هو مؤذٍ للأمة، مفيد لمجلة الأمة"، فـ "فاندين هيوفايل" هي رئيسة تحرير مجلة "ذا نيشان" (الأمة)، وبالتالي لديها الرغبة في زيادة توزيع هذه المطبوعة. على الرغم من أنه في أي مناسبة أخرى يُحتمل أن تحاول "فاندين هيوفايل" إثبات أنه لا ينبغي التضحية بشخص في سبيل شخص آخر، فإنها عندما تردد الشعار في الواقع تقدم تلك الحجة، والتي تصبح عندئذ

مقياسًا مناسبًا لالتزاماتها الأخلاقية كليبرالية شهيرة. إنها يفترض أن تكون ذكية بما فيه الكفاية لكي تعرف أنه على المرء ألا ينطق الشعارات التي لا تمثل مشاعره بدقة. على أية حال، فإن اختيارها للشعار في الموضع الأول هو دليل واضح على اهتمامها بمكانتها الخاصة كليبرالية متفانية، في مقابل اهتمامها بمصلحة هؤلاء الذين يعانون مباشرة من الوضع السيئ للأمة (The Nation) (وجريدة The Nation). لقد ابتدعت هذا الشعار، مع كل ذلك، إنه لم يسلم لها جاهزاً.

إذا كان ثمة أحد لا يزال غير مقتنع بالشعار ك - كلمة رمزية للأناية الشديدة، فربما زميل "فاندين هافيل" السابق "ديفيد كورن" - هو الآن مع مجلة "Mother Jones" - يمكنه أن يساعد في وضعه في وجهة نظر أفضل، حيث يقول: "يجب أن أدفع فواتيري، أنا لدى أسرة أريد أن أطعمها". "ما نقوله في المجلة هو أن الشيء المؤدى للأمة مفيد لمجلة "الأمة" The Nation".

لا نريد أن نظن أن الناس الذين يتلفظون بالمثل العليا يمكنهم في الواقع أن ينخرطوا في أنواع القوى التي يزعمون أنهم يعارضونها. ولهذا السبب، فإنه من السهل تبرير العبارات عديمة الفائدة في ظاهرها على أنها نكات بريئة أو أنها فضولية خطابية. أريد أن أشجع الآخرين، مع ذلك، كي يستجيبوا بكل قوتهم، ليضعوا نصب أعينهم حقيقة أن الليبراليين يلزم أن يعاملوا تمامًا مثل كل الحركات السياسية والشخصيات المؤثرة. لا أحد يجب يكون بعيدًا عن اللوم أو فوق الاعتراض. هذه النقطة حقيقية بشكل واضح فيما يخص هؤلاء الذين يدعون بحماس شديد، أنهم يعملون بعيدًا عن أو فوق اللاأخلاقية.

يجب علينا أن نسأل أسئلة جادة فيما يخص الليبراليين وأن نتحدى قوتهم ذاتية الصنع، دونما اعتذار. المحافظون الجدد والعنصريون الصرخاء في منتهى السهولة والوضوح. بالتركيز عليهم بشكل حصري غالباً، نحن نمنحهم نوعاً من القوة لا يملكونه هم أنفسهم. وليس من الضروري أنه توجد قوة حقيقية بين هؤلاء الناس. القوة الحقيقية ترحب بوجود المعارضة، لكن ما عندهم هو تخريب تستكره

القوة. لم يظهر أبداً أى تصريح مخرب في أعمال "نيكولز"، "فاندين هافيل"، و"كورن".

لا أنسى أكثر شيء مثير للضيق في العبارات المعروضة فيما مضى من هذا المقال. إنها تضمن موضعاً في القمة، لأنها تمثل بلوغ الذروة في مجالها. تعليق زميلي حول فعل الراحل "جيرى فالويل" ^(١) لما يجب أن يكون أشياء لا يصح ذكرها، هو خلاصة نوع المنطق الليبرالي الواضح في خطاب هيئة مجلة "ذا نيشان". وبمعنى آخر، كان تعليق زميلي هو إلى أين سيؤدي هذا المنطق الذي لا يتغير. ليس لديه مكان آخر ليذهب إليه.

ومن المحتمل أن يرغب زميلي في أن يبرر التعليق بالتأكيد على أنه بالفعل استثناء من أجل العدالة. إن "جيرى فالويل" ثيوقراطي خطير. إنه كاتب أخلاقي مداوم. وكما يحدث مع معظم الكتاب الأخلاقيين فإنه ملزم بأن يكون منافقاً، وربما منافقاً صادماً إلى حد الإشمزاز، وإلى الدرجة التي يمكن لمستقبله المهني أن ينهار أو على الأقل يقبل بتسوية مذلة. لا شيء يمكن أن يكون فاضحاً أكثر من ضبطه وهو يتحرش بطفل أسود. بدون وجود "فالويل" حولنا، فإن العالم سيكون مكاناً أفضل.

هذ المنطق غيبى بشكل مضاعف، غيبى فكرياً، والأهم من ذلك أنه غيبى أخلاقياً. فكون الكتاب الأخلاقيين منافقين فهذا ليس "خبراً عاجلاً". في الواقع، إن جوهر الأخلاقية هو التعفف عن المتع الجسدية التي لا غنى عنها. من المستحيل أن تكون "كاتباً أخلاقياً" بدون أن تكون منافقاً أيضاً. الأمر لم يستلزم شهوانية وكاميرا خفية لكي تشوه سمعة "جيرى فالويل"، لقد تطلب الأمر نوعاً من التغيير الاجتماعي الذي يحتكر الكلام عنه الليبراليون أنفسهم. معلومة أن "فالويل" كان

(١) جيرى فالويل (١٩٣٣ - ٢٠٠٧)، قس أمريكي بروتستانتي متعصب، كان من أشد المتحمسين لإسرائيل والمؤيدين لسياسات جورج دابليو بوش.

يملك قوة وبرنامجا سياسيا تدل على أنه كان يقول أشياء كان الناس إما يؤمنون بها أو يريدون سماعها. وطبقا لمنطق زميلي، إذا، فالكثير من الأطفال سيحتاجون إلى أن يُتحرّس بهم أمام الكاميرا من أجل وضع حد للممارسات التيقراطية. أليس الأسهل هو مساعدة الناس اجتماعيا واقتصاديا، لكي لا ينجذبوا إلى مجالات لا تتطلب فيها الحقيقة أى عمل فكري؟

من وجهة نظر أخلاقية، هناك مسائل كثيرة جدا تحتاج المناقشة، لذلك أريد فقط أن أسأل لماذا يكون ذلك الطفل الأسود مثيرا للفضيحة أكثر من أى طفل أبيض أو طفل من الإسكيمو أو طفل من التبت؟ إن تحديد الحالة العرقية لهذا الطفل الافتراضى من أجل تضخيم غرض خطابى، هو تدعيم لأسوأ أبعاد العنصرية كقوة تاريخية قاهرة فى المجتمع الأمريكى. نعم، إن تلميح زميلي هو أن "فالويل" كان عنصريا بالإضافة إلى كونه لوطيا فى الخفاء ونهائيا جشعا. ولكن "فالويل" كان عنصريا، لأن الناس أمثال زميلي، إلى حد ما، هم الذين سمحوا له بأن يكون كذلك.

فكر فى الأمر: يمكننا أن نفسر عبارة زميلي - هذه أمنية، فى الواقع - على مدى أيام، ويعمل هذا سنتسبب فى غضب متصاعد. وبالأخص، رغم ذلك، فالأمر ببساطة مثير للاشمئزاز، حيث إنه يريد أن يعرض طفلا للانتهاك من أجل أن ينهى مستقبل "جبرى فالويل" المهنى - بما يعنى زيادة متعته الليبرالية. والتخلي عن الطفل غير الأبيض يوضح أن زميلي واع تماما بقيمة معظم المحرومين منا من حقوقهم المشروعة، بالنسبة لذوى الامتيازات.

الخاصية المشتركة بين كل هذه الشعارات والتعبيرات هى أن كل متحدث يعرف نفسه على أنه مدافع عن العدل، دون أن يمتلك أى معرفة حقيقية بمعظم هؤلاء الذين يحتاجون للعدل. فى الواقع، ما ينجح فيه كل متحدث هو أن يلغى معظم هؤلاء الذين يحتاجون للعدل، حتى لو ادعى - هو أو هى - أنه يتحدث لمصلحتهم. وتلك هى المشكلة، هذه الاستثناءات الليبرالية من أجل العدالة هى فى الأساس غير عادلة. إنها مبتذلة جدا لأنها تخلق حاجة للتدخل المستمر.

إن حلول المشكلات المزمّنة يمكن أن تكون أموراً معقدة، لكن حل هذه المشكلة، الموجودة منذ سنة ١٤٩٢م، سهل: المبدأ الأخلاقي لا يجب أن يكون حكمة أخلاقية، كما أنه لا ينبغي أن يُعدّل لحماية المؤسسات والرؤى السياسية العالمية. والناس ستتعامل معه بشكل أفضل. المبدأ الأخلاقي هو إشراك الآخرين جميعاً كنظراء متساويين أخلاقياً. هذا المبدأ في حد ذاته لن يغيّر العالم. لكنه البداية الضرورية للتغيّر العالمي.

عاجلاً أو آجلاً، الأطفال السود، والعراقيون، والمكسيكيون، والهنود الحمر، والفلسطينيون سوف ينطلقون من غرف الفنادق الرطبة والمصانع الاستغلالية والمستودعات والسجون الاستعمارية. سوف يضعون أيديهم في أيدي بعضهم البعض، ويؤلفون هذه الرسالة :

أعزائنا الليبراليون المهتمون بالأمر:

نحن بشر لا يريدون أن يكونوا أدوات مساندة في أى أوضاع أخلاقية حقيرة. نحن المهتمون. نحن المحرومون. نحن غرباؤكم المعروفون. إننا نحمل تاريخاً صامتاً على كواهلنا. لدينا أعداد كبيرة من المصالح التي نحبون أن نتحدثوا عنها. لقد وقعنا في فخ التناقض اللفظي الرهيب. ومنتظر بلهفة اليوم الذي يتوقف فيه الضعيف عن أن يكون قابلاً للضبايح حتماً .

دعيت لأرتكاب الإبادة الجماعية

إننى الضحية والمرتكب لجريمة الإبادة الجماعية. لقد شردتُ بواسطة قوّة همجية ثقافية، والتي اضطرتنى لأن أصبح همجياً ثقافياً. لقد أعرتُ اسمى لهؤلاء الذين يشتهون قتل البشر .

أنا مسيحي عربى .

إن كينونتى تتحدى الوضوح الأخلاقى .

لم أعرّف نفسى أبداً فى مقال أو تذييل على أننى مسيحيّ، لأنه ببساطة حتى عهد قريب لم يمثّل كونى مسيحياً شيئاً مهماً بالنسبة لى، على الأقل ليس بشكل صريح. المسيحية عنصر أساسى فى كينونتى. ولأننى عربى، فإن أكون مسيحياً هو أن أكون منغلِقاً فى حيز ثقافى معين، وأن أدعى ملكية تاريخ باق، وإن كان غامضاً. لكننى لا أمارس المسيحية بطريقة ورعة عادةً. أنا مجرد مسيحيّ. إننى أقول ذلك كمحدد ثقافى وليس كمجاهرة بالعقيدة، أو كتكريس لخلق دينى.

دعونى أصوغها بهذا الأسلوب: أنا لا يمكننى أكون مسيحياً بحق بينما أنا لست عربياً كذلك.

فى حياتى ككاتب وأكاديمى كنت أفضل أن أتصورَ نفسى كمشارك فى الجماعات القومية، والتي تكون مستقلة ومميّزة فى آن واحد. هذه الجماعات مستقلة لأنها تنشأ من وجهات نظر اجتماعية عالمية تتجنب الخلفيات الدينية، وهى مميّزة لأنها تعطى الأولوية للهوية العرقية. أنا أعرّف نفسى إذن على أننى عربىّ أو أمريكى عربىّ، كلمة عربىّ تدلّ على الأصل العرقى، وكلمة أمريكى عربىّ تشير إلى الانتماء العام. أنا أتجنّب تمثيل نفسى فى هويات دينية متعددة، والتي يمكن أن تنتهك المنل العليا للوحدة القومية والعرقية. على سبيل المثال، أنا أشعر بصلّة قرابة حقيقية مع المسلمين الأردنيين والفلسطينيين، وليس مع معظم المسيحيين الأمريكيين البيض.

ولكن مؤخراً، ولأول مرة في حياتي، اكتشفت صلةً بما كان بشكل مختلف بعداً راسخاً في هويتي. لقد وصلت إلى هذا الاكتشاف لأنني انقذتُ إليه بشكل عفوى.

نوع ما من الحرب الثقافية قد ثار حول المسيحيين العرب، والفلسطينيين بشكل خاص. أحد آثار هذه الحرب الثقافية هو إحلال الرمزية الروحية محل الإنسانية الحقيقية للمسيحيين العرب. الحرب الثقافية تضع العرب في موقع المساعدين وليس المشاركين في حوار ذي شأن مهم بالنسبة لهم. وأثرها الأكثر مباشرة، رغم ذلك، هو الحكم على المسيحيين العرب بأنهم متورطون في نشر الإبادة الجماعية.

نشر الإبادة الجماعية مزعج إلى حد بعيد لكن دعونا، مع ذلك، نبدأ بالرمزية الروحية، لأن المسيحيين العرب لا يمكنهم أن يكونوا مشاركين في جريمة الإبادة الجماعية إلا إذا أُجبروا على أن يكونوا خدماً بدلاً من أن يكونوا بشراً. الحرب الثقافية على المسيحيين العرب قامت في الأغلب بسبب الاهتمام المستجد الذي أبداه تجاههم الإنجيليون الأمريكيون التبشيريون⁽¹⁾، أو الصهيونيون المسيحيون. يضم الصهيونيون المسيحيون في صفوفهم هؤلاء القادة المؤثرين مثل الراحل جيري فالويل، "تيم لاهاي"، و"بات روبرتسون". لا يوجد نقص في السياسيين بطريقة أو بأخرى في عملهم، وقد نشأت إمبراطوريات الإعلام من نظرية لاهوتية تبشيرية.

مؤخراً، زعم التبشيريون أن المسيحيين الفلسطينيين هم سكان متناقصون في العدد في الأراضي المقدسة. هذا الزعم حقيقى بكامله. فالمسيحيون الفلسطينيون،

(1) طائفة بروتستانتية صاغت لنفسها عقيدة تتعلق بعودة المسيح، وتؤمن هذه الطائفة بأن الله هو مدبر كل شيء. وأن في الكتاب المقدس نبوءات واضحة حول الوصايا التي يحدد الله فيها كيفية تدبير شؤون الكون ونهايته: عودة اليهود إلى فلسطين، قيام إسرائيل، هجوم أعداء الله على إسرائيل، وقوع محرقة هرمجدون النووية، انتشار الخراب والدمار ومقتل الملايين، ظهور المسيح المخلص، مبادرة من بقى من اليهود إلى الإيمان بالمسيح.... (المترجم)

الذين شكلوا في وقت من الأوقات نسبة من ١٥ - ٢٠ في المائة من السكان العرب في فلسطين، عددهم الآن يقارب اثنين في المائة. إنه أمر متوقع بشكل نظري أن تكون فلسطين بدون مسيحيين مستقبلاً. التدبيريون يرجعون تلك الهجرة الجماعية إلى وحشية المسلمين الفلسطينيين. وهذا الادعاء لا يمكن إقامة الدليل عليه تماماً وهو زائف بشكل معيب.

في هذا النوع من الخطاب، استُخِمْ المسيحيون الفلسطينيون في موقف سياسي يعارضونه بشدة. هذا الموقف السياسي يؤدي إلى الظاهرة الحقيقية التي تسببت في أعدادهم المتلاشية : الاستعمار اليهودي لفلسطين. إذا تمكن التدبيريون من فعل ما يريدون فإن المسيحيين المتبقين في فلسطين سيتعرضون للإبادة الجماعية، كما سيحدث مع الملايين الخمسة من إخوتهم المسلمين.

الصهيونيون المسيحيون يؤمنون بلا كلل بحق اليهود في استعمار فلسطين، وهي عملية ينظرون إليها على أنها استعادة لإسرائيل التوراتية، وأنها المبشر الأساسي بفرحة عودة المسيح. وطبقاً لهذا المخطط، فإن الفلسطينيين، مسلمون ومسيحيون على السواء، لديهم خيارات قليلة، ولا واحد من هذه الخيارات يؤدي إلى القدرة على الوفاء بالمتطلبات السياسية، أو القدرة على الوصول إلى الحقوق الإنسانية. معظم التدبيريين ينادون بنقل الفلسطينيين بالقوة إلى الأردن، حيث من المفترض أن يمكنهم تكوين دولتهم الخاصة بهم (أو فعل أي شيء يريدونه، طالما أنهم لا يعطّلون الاسترجاع اليهودي لفلسطين). بعض من أولئك يرى، تدعيماً لهذه السياسة، أن رفض الفلسطينيين للمغادرة سيحتاج ببساطة إلى أن يواجه بحسم. الصهيونيون المسيحيون الأكثر استتارة - وهم عدد لا يعدو كونه غير مهم وملىء بالتناقض - غير متحفظين على بقاء الفلسطينيين في الأراضي المقدسة بأعداد صغيرة، ما دام هؤلاء الفلسطينيون القليلون يخضعون أنفسهم تماماً للسيطرة اليهودية.

بمعنى آخر، تشجع الأيديولوجيا التديريّة إسرائيل على التطهير العرقيّ للفلسطينيين، جميع الفلسطينيين، بما فيهم هؤلاء الذين قد يتصادف أن يكونوا مسيحيين. لقد اكتشف التديريّون مؤخرًا أن المسيحيين الفلسطينيين يمكن مع ذلك استدعاؤهم للمساعدة في هذه الإبادة الجماعية، ومصيرهم كضحية لها، بالطبع، على الرغم من ذلك. هذا الاستخدام قد يكون مستحيلًا دون تحويل المسيحيين الفلسطينيين من حالة البشرية المادية إلى مجاز مرسل.

هناك حقيقة أكثر ذاتية، ويقينية، وهي كالتّى: لأن الصهيونيين المسيحيين يستدعون المسيحيين الفلسطينيين لكي يسهّلوا الإبادة الجماعية، فأنا أصبح إذن متورطًا على الأقلّ بشكل غير مباشر في قاموسها الخطابى. إن إشفاقي لا يعنى شيئًا تجاه عملية التورط هذه، وعلاقتى الابنّية بالخاضعين لهذه الإبادة الجماعية هو اختلاف فضولىّ فقط. هؤلاء الذين يسمحون لأنفسهم بأن يوضعوا عن جهل في مواقف يفترض أنهم يعارضونها بوعى، يصبحون متورطين من خلال الغفلة أو في النهاية من خلال اللامبالاة. مثل أى شخص آخر، المسيحيون العرب لديهم كل من الحق في والحاجة إلى التعبير عن مواقفهم الخاصة.

وفيما يخص قضية الإبادة الجماعية الإسرائيلية هذه، والذي من المؤكد أنّها بعض القراء إلى التركيز على الدلالات، أريد أن أضع فاصلاً بين الموقف السياسى الراهن في إسرائيل / فلسطين والموقف المرغوب من قبل الصهيونيين المسيحيين، والذي له أهميته هنا. هناك جدال جاد حول ما فعلته إسرائيل بالفلسطينيين في الماضى وما تستمر في فعله ب-هم الآن، وجميع أنواع المفردات يمكن أن تطبق (وقد طبقت بالفعل) على سياسات وممارسات الاستعمار الإسرائيلى. عالم الاجتماع الإسرائيلى "باروخ كيمرنج"، على سبيل المثال، استخدم كلمة **politicide**، وهي كلمة ملحقة على **political access** الوصول السياسى. العلامة الأديب الفلسطينى إدوارد سعيد كان مغرمًا بكلمة "نزع الملكية" **dispossession**، وهي عبارة واسعة في المجال، لكنها مألوفة في التأنيب الأخلاقى. عدد كبير من الكتاب، ومنهم أنا،

يميلون إلى كلمة "التطهير العرقي" "ethnic cleansing"، وهي كلمة وصف واضحة، ومع ذلك، تشير ضمناً بشكل مختلف أكثر من كلمة "الإبادة الجماعية" genocide.

بعض الناس، على أية حال، يفضلون كلمة الإبادة الجماعية genocide الصريحة الوحشية لمجموعة من الأسباب، وفي المقام الأول منها حقيقة أن هدف إسرائيل المعلن منذ مدة طويلة هو الإبقاء على أغلبية سكانية يهودية. هذا الهدف قد أفرز على مدى عقود سياسات كانت ترمى إلى إزالة أى وجود للثقافة الفلسطينية، بعضهم كان يستخدم القياس المنطقي الواضح، وهو أنه لإزالة أى شعب فالطريقة الأكثر تأثيراً هي محو ثقافته من الوجود.

إن ما يتصوره العديد من التدبيريين، من الناحية الأخرى، يمكن أن يكون إبادة جماعية نشطة، مقارنة بأسوأ الأمثلة لهذا العمل على مدى التاريخ. إنهم يقترحون نقلاً قسرياً للسكان على نطاق واسع، أو قتلاً صريحاً للعرقية الفلسطينية وحدها (أى غير اليهود)، وهو أكثر شكل مفهوم للإبادة الجماعية (على الرغم من أن الإبادة الجماعية لا تحتم فقط القتل الفعلي للناس). دعونا نضع هذا الاختلاف في الحسبان بينما نحن مستمرين، وهو الوحيد الذى يصور البديل الأكثر وحشية للبربرية الإسرائيلية المستمرة، مهما سميناها.

إنه بسبب هذه الإبادة الجماعية المأمولة، قررت أن أمارس حقى الابنى فى أن أتحدث كمسيحى عربى. إنها طريقة لإعلان صوتى فى فضاءات بدأ يشغلها، على الرغم من إجماعى عن ذلك. وإنها طريقة لتغيير إطار الحديث حول الدين والعرقية فى الولايات المتحدة.

لقد لاحظت أن الناس يحبون أن يشيروا إلى على أننى "مسيحى عربى" عندما يصفون عملى، على الرغم من أن عملى لا يصف هويتى فى الواقع فى هذه الأحوال (استثناء واحد جدير بالذكر هو قسم حول "الصهيونية المسيحية" فى كتاب "العنصرية ضد العرب فى الولايات المتحدة" (Anti-Arab Racism in the)

(USA). رسالة في إحدى المدونات، على سبيل المثال، تقول: "ستيفين سالايثا هو مسيحي عربي، أستاذ في اللغة الإنجليزية، ومؤلف كتاب ...". (إذا كانت النتائج توضح المقدمات، فأنا عندئذ أفترض أنني يجب أن أوضح أن كوني أستاذاً جامعياً هو شيء له أهمية أكبر بالنسبة لهويتي من كوني مسيحياً). وكذلك هناك مدونات أخرى ومندوبات مفتوحة تلحق عبارة "مسيحي عربي" بنهاية اسمي .

في تقديم حول الصهيونية المسيحية في "مجلس المصلحة الوطنية" the Council on National Interest، أشار "روبرت أو. سميث" إلى على أنني "باحث مسيحي عربي". وقد سألتني الرجل المهذب "سميث" سلفاً عما إذا كان بإمكانه أن يشير إلى هكذا، وقد أجبته بأنني سأكون مسروراً إن فعل ذلك، تماماً لأن طبيعة الوصف، التي تفيد في ذلك الإطار لتوضيح أن المسيحيين العرب لا يريدون أن يوضعوا كغرض في الخطاب الحماسي لأناس مثل "بات روبرتسون" و"جاري باور". لقد حاول استعمال "سميث" للكلمة أن يوجّه الهوية المسيحية في تطبيق عملي تاريخي وعرقى بوصفها مضادة لمغزاها السياسي الوقح في استعمال التدبيريين لها.

إلا أنه ما زال مهمماً أن نلاحظ أنه لكي أحدد هوية شخص ما عن طريق ميولى السياسية وانتماءاتي المعلنة ك-"مسيحي عربي"، فإن ذلك بمثابة تادية عمل خطابي واضح، أنا الذي أمل في إقناع الأمريكيين بالتواصل مع العرب على أساس أنهم آدميون وليسوا همجاً. كلمة "مسيحي" على الرغم من التعديل بصفة "عربي"، تتشبه بتبادلية متخيلة يمكن أن ينتج عنها نوع ما من الألفة. إنها هذه الألفة المتخيلة (أو المرغوبة) التي من المفترض أن تلزم الأمريكيين بأن يعترفوا ب- إنسانية العرب بدلاً من النظر إليهم على أنهم غرباء، وخاصة الفلسطينيين. وهكذا فإن وصفى على أنني "مسيحي عربي" يتطلّب من أولئك الذين قرأوا أعمالى حول العنصرية ضد العرب والتطهير العرقى الإسرائيلى والإمبريالية الأمريكية، أن يعطوا تلك الأعمال الفرصة، بدلاً من تجاهلها على أنها غضب إسلامى صميم.

المشكلة، رغم ذلك، هي أنها ليست فكرة جيدة أن نستخدم أعمالاً خطابية تحتاج من الآخرين إلى البحث عن الألفة على أنها أساس التواصل الفكري، فالأمانة الأخلاقية يجب بدلاً من ذلك أن تكون هي المعيار. الألفة المتخيلة لها أكثر من أثر للقرار الجماعي المتضمن فيها، وبالتالي احتمالية حدوث جميع أنواع النتائج المزعجة.

أو، لتوضيح الأمر أكثر، ليس من العدل (بل وعنصرى بشكل مثير للجدل) أن نرجع الخلاف الإسلامي حول السياسات الإسرائيلية والأمريكية إلى المرض الثقافي أو الاتجاهات السياسية المكتسبة، والتي هي بالضبط ما يفعلها الناس عندما يقررون أنه من الأفضل للمسيحي أن يكون أول من يبلغ الأخبار الواردة عن الوحشية الإسرائيلية أو الغباء الأمريكي إلى المسيحيين الآخرين، حتى إن لم يكن هذا هو ما يقصدون فعله. إنه ليس من الصعب فهم الحقائق الأساسية لهذا القرار. وامتلاك المسيحي العربي المزيد من الشرعية كمُدافع في الولايات المتحدة ضد التطهير العرقي الإسرائيلي أمر حقيقي على الأرجح. النقطة الأساسية هي أن نسأل ما الذي نضحى به كقوى فكرية عندما نخضع لهذا الواقع. الشيء الأكثر وضوحاً أنه تم التضحية به هو قدرة المسلمين على توضيح الحقيقة بدون الشكك المسيحي. يجب على المسلمين العرب ألا يتوسلوا بوجود المسيحيين العرب كمدخل إلى المنتدى العام. إن حقيقة هذه الشرعية المسيحية المتأصلة هي سبب للانزعاج، وجديرة بالاجتثاث لأن التخلص منها سيبرز أهمية إجراء تغيير ضروري في مواقف الأمريكيين المسيحيين تجاه العرب والمسلمين.

يمكنني أيضاً أن أعبر عن الأمر بطريقة مختلفة نوعاً ما: لا أريد أن أضطر لأن أكون مسيحياً لكي أكون مستحقاً للاستماع إليّ في الولايات المتحدة. أنا وإخوتي المسلمين ينبغي أن نكون جديرين بالاستماع إلينا لأننا لدينا شيء ما ذو شأن نريد قوله. إذا توقفنا عن قول أشياء ذات أهمية عندئذ سيكون من اللازم تجاهلنا. المسلمون العرب، مهما يكن، يجب ألا يتم تجاهلهم، ببساطة لأن أصلهم

الدينى يفشل فى أن يثير التعاطف الابنى. الحيلة الخطابية لتحديد الخلفية المسيحية لدى المثقفين العرب تزيد من خطر تجاهل الأغلبية الكاسحة من الأصوات فى العالم العربى.

عاجلاً أو آجلاً، سيحتاج الأمريكيون إلى أن يكونوا على اتفاق مع العرب، مبنى على من هم العرب، وليس على ما ماذا يريد الأمريكيون من العرب أن يكونوا. على الرغم من أنني مسيحيّ إلا أنني لدى القليل من الاهتمامات والأفكار المشتركة مع الأمريكيين المسيحيين غير العرب، إلا إذا كانت نشاطاتهم السياسية موجّهة نحو التحرر الفلسطينى الحقيقى، أو نحو القضاء على العنصرية الليبرالية فى الولايات المتحدة. إن كونى مسيحياً، عندئذ، ينبغى ألاّ يُضار كمصافحة خطابية إذا شككت أن يد زميلى اليسرى تخبئ أصابع رافضة خلف ظهره. علاوة على ذلك، فإن تحديد هوية دينى شىء زائد عن الحاجة ولا يثبت سوى نوع الجهل، الذى أعتقد أنه يضيف إلى قدرة إسرائيل على تشريد الفلسطينيين واستعمار بلادهم. أى شخص يعرف أى شىء عن العالم العربى سيدرك أنه باسم مثل "ستيفين" أنا أعتبر مسيحياً، والشخص الأكثر معرفة يمكنه أن يقدم تخميناً ملاماً (بدقة) وهو أن اسمى يشير بالتحديد إلى خلفية مسيحية أرثوذكسية.

مسألة الاستراتيجية ليس من السهل تجاهلها، مع أن أحد أصدقائى المقربين، وهو أمريكى عربى مسلم ذكى جداً، يعتقد بشدة أن المسيحيين الفلسطينيين هم المفتاح لتحويل الأمريكيين المسيحيين بعيداً عن مواقفهم المؤيدة إلى حد كبير لإسرائيل. الفكرة هى استثارة دوافعهم العقائدية (والتي، مثل جميع الأشياء الأخرى التى تبدو أنها ناشئة عن دوافع، تكون مشتركة اجتماعياً). هذا التفكير مشابه لبعض الفرضيات الأساسية فى مجالات مثل الأنثروبولوجى وحلّ الصراعات، التى تفترض أن الاهتمامات الجماعية تحكم النظام الاجتماعى وأن الهوية الجماعية تؤثر بشكل خطير فى صنع القرارات السياسية والاقتصادية. لذلك، إذا كان الأمريكيون مجبرين على الإقرار بارتباط حقيقى مع الفلسطينيين وليس الإسرائيليين، عندئذ

سوف تُملَى معتقدات الهوية الجماعية تغييرًا في المشهد السياسي. هذا النوع من الاستراتيجية واقعي في الأساس ومناسب للاحتتمالات الأخلاقية أو الفلسفية، بدرجة أقل منه للنتائج القابلة للقياس.

أنا أحترم هذه الاستراتيجية ولكنني أجدها في النهاية تتطوى على مشاكل. لا أحب أن أعبر عن رد فعلي من خلال نموذج المؤيد/ المعارض، لأنني أريد له أن يكون أكثر تعقيدًا من مجرد الاتفاق أو عدم الاتفاق. (هناك طرق عديدة لإنجاز أهداف سياسية وإنتاج تحليل أخلاقي، ولكن لا الأهداف ولا التحليلات يمكن إنجازها بدون الجماهير، والتي أحيانًا تكون منسجمة وأحيانًا متعارضة). وبالمثل، لا أريد أن أجادل فيما إذا كانت هذه الاستراتيجية رديئة أو حتى أنها سوف لا تكون فعالة. إنها من المحتمل إلى حد كبير أن تكون فعالة، على الأقل في المجالات المحلية. أنا فضولي فقط فيما يتعلق بتكلفة فعاليتها، وفيما يتعلق بما يضحى به على المدى القصير لتطبيق الاستراتيجية، وكيف تؤثر تلك التضحيات على المستقبل طويل المدى لكل من الفلسطينيين والأمريكيين العرب .

السكان الفلسطينيون في الأراضي المحتلة، على سبيل المثال، هم ٩٧% مسلمون وتقريبًا ٢% مسيحيون (توجد أقليات دينية فلسطينية أقل عددًا مثل الدروز والبهائيين). نسبة الاثنتين في المائة من المسيحيين يمكن أن تمثل بشكل مناسب نسبة السبعة والتسعين في المائة من المسلمين إلى تلك الدرجة، حيث إن المسلمين الفلسطينيين والمسيحيين يشتركون في تاريخ وثقافة ورؤية سياسية واحدة. إلا أنه بالضبط بسبب تلك الظواهر المشتركة فإن منح امتيازات للأقلية المسيحية على حساب المجتمع بكامله هو أمر مثير للشبهات. إن التعريف بالسياسات التحررية الفلسطينية من خلال متحدثين رسميين مسيحيين يجعل تلك السياسات تبدو أكثر شرعية بالنسبة للأمريكيين. لا يوجد شك في أن تلك السياسات، التي ليست شرعية فقط بل واجبة أخلاقيًا، تحتاج إلى أن تؤخذ بجديّة أكثر من قبل الأمريكيين. المشكلة هي أن تقديم هذه السياسات بواسطة مسيحيين فلسطينيين ذوي امتيازات لا

يمنح وحده الشرعية أو ينزعها عن تلك السياسات. إنه يضخمها بدون أن يغير فيها شيئاً. بمعنى آخر، إن التعريف بالسياسات التحررية الفلسطينية من خلال متحدثين رسميين مسيحيين يجعل تلك السياسات تبدو أكثر شرعية فقط، لكنه لا يجعلها شرعية بالفعل. إنه يخلق فهمًا للشرعية يستمر فقط طالما بقي الإسلام مقموعاً. إن الأمريكيين يحتاجون في النهاية إلى التعامل مع ترجمة إنسانية للإسلام تسمح لهم بالتعامل مع المسلمين وشكاوهم بجدية. وبدون هذا التغيير، فإن المسيحيين العرب ليسوا أكثر من وهم خلاب.

هذا واحد من المبررات التي بسببها أعتبر نفسي مشاركاً في هويات عرقية وقومية وليست دينية. أريد للمسيحيين الفلسطينيين أن يتحرروا وأريدهم أن يعيشوا في ديمقراطية فعالة تحمي حقوق الإنسان، لكنني أريد لهم ذلك بالإضافة إلى المسلمين الفلسطينيين. لذلك أنا ملزم أخلاقياً برؤى شاملة تقترح أهدافاً قومية ودينية متعددة.

على أية حال، فإن الأقليات العرقية في الولايات المتحدة والشعوب المستعمرة حول العالم لديها رغبة مشتركة في تدمير المعادلة الضمنية للسياسات الأمريكية السائدة عن طريق النزاهة المعيارية، من خلال الادعاء بأن الآخرين يتوافقون مع الأنماط الأمريكية السائدة للمعيارية. تصوير المسيحيين العرب على أنهم واجهة فلسطين من أجل إحداث مشاعر متعاطفة بين الأمريكيين، يعزز بنكاء هذا القاعدة المؤثرة للمعيارية .

إلا أن هذه اللحظة تتطلب أن تتكلم الأصوات المسيحية العربية في الولايات المتحدة، بسبب ادعاء التدبيريين بأن المسيحيين يجبرون على الخروج من الأراضي المقدسة بسبب غدر المسلمين الفلسطينيين.

على مستوى أساسي، أنا أريد أن أؤكد على هوية مسيحية عربية، ببساطة لكي أستجمع الثقة بالنفس لأعلن قائلاً: أنا مسيحي عربي. لا تستخدموني لتأييد

الإبادة الجماعية. ليس لكم الحق في استخدام اسمي، ثقافتي، تاريخي، وأجدادي من أجل أن تشجعوا مستعمرينا. لم نطلب تدخلكم لصالحنا، نحن نرفض إيثاركم المستغرب للغير. نحن نقف في تماسك مع إخواننا وأخواتنا المسلمين الفلسطينيين، رفقائنا ضحايا التطهير العرقي الذي ينفذه اليهود الذين قدمتم لهم الدعم المالي والمعنوي المتواصل. نحن نرفض ادعاءاتكم الزائفة، ونرفض أن نستخدم كجنود للمساعدة في تدميرنا نحن أنفسنا.

لقد استجاب المسيحيون الفلسطينيون بدرجة أكبر أو بدرجة أقل هكذا. في عام ٢٠٠٦، على سبيل المثال، أصدر رؤساء جميع الكنائس في القدس بياناً صيغ في عبارات قوية ونشر على نطاق واسع، بدأ بـ: "نحن نرفض بشكل قاطع معتقدات الصهيونية المسيحية بوصفها تعاليم خاطئة تفسد رسالة الكتاب المقدس الخاصة بالحب والعدل والوفاق". كما أكد البيان على أن "الفلسطينيين شعب واحد، بكل من مسلميه ومسيحييه. نحن نرفض جميع محاولات هدم وتفكيك وحدتهم". وقد أعلن مسيحيون عرب آخرون مجاهرتهم بالتضامن مع نظرائهم العرب، مثلما حدث عندما عقد وفد أمريكي عربي شمل كلاً من "ديبورا ناجور" و"تادين نابور" و"وارين ديفيد" مؤتمراً صحفياً في "ديترويت" في صيف ٢٠٠٦ لإدانة إسرائيل، وخاصة بوصفهم مسيحيين عرب.

هناك مبررات أخرى للمسيحيين العرب للرد بوقاحة على التدبيريين. فبتعبيرهم عن الانزعاج، مهما كان صورياً، من أجل مسيحيي فلسطين، يلجأ التدبيريون على الأقل إلى صلة غير مباشرة بينهم وبين المسيحيين الفلسطينيين. في الواقع، الفريقان لديهما بعض الأشياء المشتركة. المذهب المقتنع به بين مسيحيي فلسطين يؤمن بأن المسيح عيسى ابن الله، ويؤمن بصحة حادثة صلب المسيح الواردة في الإنجيل، تماماً كما يفعل جميع التدبيريين. هذا تشابهم الأساسي والوحيد. أريد أن أشك في أن أناساً مثل "توم ديلاي" و"هال ليندسي" يهتمون، لكن المسيحيين العرب يفتنون الصهيونيين المسيحيين بصفة عامة (أتصور أن الأسباب

واضحة الآن). إن المسيحيين العرب لا يشعرون أيضًا بأى صلة تاريخية أو ثقافية مع التدبيريين، الذين يتمسكون بنظرية لاهوتية وتفسير للكتاب المقدس مختلفين بشكل واضح. الأغلبية الكاسحة من المسيحيين في فلسطين تُستغل بشدة كحالة مميزة بانتمائهم إلى المجموعة الوحيدة في العالم للمسيحيين المتأصلين في بلادهم، وبكونهم عنصرًا محوريًا في أمة فلسطينية مضطهدة. إذا لم يتخلّ الصهيونيون المسيحيون عن مساندتهم لإسرائيل، فإنهم سوف لا تكون لهم أبدا القدرة على التحدث لصالح المسيحيين الفلسطينيين باستثناء ما يفعلونه الآن ككذابين ومتطفلين.

مبرر واضح آخر يجعل المسيحيين العرب بإمكانهم أن يدافعوا عن هوياتهم الابنية في مواجهة التدبيريين، هو من أجل الحقيقة الأساسية، على الرغم من أنه لا حاجة لأحد في الانتماء إلى أي جماعة عرقية خاصة أو قومية لإثارة الحقيقة الأساسية وهي أن الصهيونيين المسيحيين مخطئون تمامًا فيما يتعلق بأسباب الهجرة المسيحية من فلسطين. في البداية، نريد توضيح أن عشرات الآلاف من المسيحيين الفلسطينيين قد سُردوا في مواقع عديدة منذ سنة ١٩٤٨، وتصنيف هذا التشريد على أنه هجرة هو تزوير فاضح للتاريخ. المؤرخ "سامي هداوي" قد أوضح، لتقديم مثال واحد فقط، أنه في عام ١٩٤٨ أكثر من نصف مسيحي القدس الغربية قد طردوا من منازلهم بواسطة اليهود، وهذا أكبر انخفاض عددي على الإطلاق للمسيحيين الفلسطينيين. وقد كتب "إلياس شاكور" وهو أحد قسيسى طائفة الروم المليكين، بتأثر عن طرد كل السكان المسيحيين في قرية "بيرام" بالجليل وتدميرها اللاحق بواسطة الجيش الإسرائيلي. إن المسيحيين الفلسطينيين لديهم قصة بعد القصة البشعة لطردهم والتعاسات اللاحقة في حياتهم تحت الاحتلال الإسرائيلي.

بعد ذلك، من المهم أن نلفت النظر إلى أن المسلمين الفلسطينيين في الوقت الحاضر يهاجرون بأعداد أكبر من المسيحيين الفلسطينيين (حتى لو ضُبط التباین العددي). نظرية أن المسيحيين الفلسطينيين يهربون من غدر المسلمين، إذن، تواجه حقيقة مزعجة تفصح سببيتها العنصرية. الرد العاقل الوحيد على هذه الحقيقة

المزعجة هو التفكير في لماذا يهاجر المسلمون (مفترضين، بالطبع، أننا سنستغنى عن نظرية أن المسلمين يهاجرون بسبب المسلمين). الإجابات متنوعة ولها علاقة معينة بالإمكانات الاقتصادية، والروابط العائلية في الخارج، وعدم الاستقرار السياسي، وغياب الحريات المدنية، والفساد الحكومي. الهجرة الفلسطينية لها علاقة كبيرة أيضاً بالاحتلال الإسرائيلي، والذي يضخم الأسباب الأكثر عمومية التي تجعل السكان يرحلون أو يهاجرون.

إن أسباب هذه الهجرة الفلسطينية معقدة بشكل ملحوظ، والتي في حد ذاتها تقوّض التفسير المضلل لوحشية المسلمين. على أية حال، فإن الفلسطينيين، الذين لديهم ارتباط عميق بأرض أجدادهم، لم يهاجروا في أعداد كبيرة بشكل واضح، لقد فعلوا ذلك فيما يقارب المعدل ذاته الذي فعله اليهود الإسرائيليون، الذين، بوصفهم المجموعة العرقية التي تستحوذ على كل القوة الاجتماعية والاقتصادية للأرض المقدسة، لا يمكنهم بحق إلقاء مسئوليتها على اضطهاد المسلمين. على كل حال، فإن الافتراض القائل بأن المسلمين الفلسطينيين يضطهدون المسيحيين الفلسطينيين هو افتراض خاطئ. الفريقان، اللذان يكوّنان معاً المجتمع القومي ذاته، لديهما تاريخ من التعايش السلمى الذي يعدّ نادرًا في أماكن تشتمل على أقلية دينية واضحة. هذا إلى حد ما بسبب تأثير الإشفاق المسيحى على الأراضى المقدسة، ولكن أيضاً لأن المسيحيين الفلسطينيين لعبوا دورًا قويًا في تشكيل السياسات القومية الفلسطينية، وظلوا طويلاً قوة ثقافية واقتصادية فى المجتمع الفلسطينى. (انظر، سواء للأفضل أو للأسوأ، إلى أدوار شخصيات بارزة مثل جورج حبش، نايف المطوع، عطا الله حنا، حنان عشاوى، عزمى بشارة، إميل حبيبي، سها عرفات، جورج أنطونيوس، وهويدا عراف). أكثر من أى شيء آخر، مع ذلك، بإمكان المسلمين الفلسطينيين أن يفتخروا بتاريخ رائع من الانفتاح العقلى.

مسموح لنا أن نتساءل كيف، بافتراض دورهم المتكامل فى الثقافة والسياسة الفلسطينية، يكون المسيحيون الفلسطينيون مضطهدين من قبل مواطنيهم المسلمين.

الصهيونيون المسيحيون يدعون أن ذلك بسبب تزايد التعصّب بين المسلمين والمبني على صعود التيارات السياسية الإسلامية. هذا الادعاء جدير بالاهتمام لأنه حقيقى ظاهرياً ويقوم على أساس مجموعة من السياسات الشرق أوسطية المعاصرة وثيقة الصلة بالموضوع.

هناك بالتأكيد قلق بين أوساط المسيحيين العرب فى فلسطين وفى أماكن أخرى من صعود التيارات السياسية الإسلامية. كأقلية دينية، فإن المسيحيين العرب من حقهم أن يقلقوا مما قد يحدث لهم فى حالة حدوث انقلاب ثيوقراطى (كما يفعل أى شخص يقدر قيمة نوع الحرية التى لم توجد مطلقاً فى ظل الحكومات الدينية فى جميع الديانات). ومع ذلك، قد يكون الأمر خادعاً إذا تم قصر القلق على السكان المسيحيين فى العالم العربى، لأن العديد من المسلمين كذلك قلقون من التيارات السياسية الإسلامية. والأمر الأكثر أهمية هو أنه لا يوجد دليل على الافتراض القائل بأن القلق المسيحى العربى من الحركات الإسلامية يحفز الهجرة بشكل حاسم أو حتى بشكل غير مباشر. القليل من المسيحيين العرب يذكر التيارات السياسية الإسلامية كسبب أساسى لهجرتهم إلى أوروبا أو الولايات المتحدة، إنهم يرجعونها بشكل ساحق، كما يفعل جميع المهاجرين الآسيويين، إلى الفرصة الاقتصادية. تسهم الحركات الإسلامية فى صنع حالة عامة من عدم الاستقرار السياسى فى العالم العربى، والتى بدورها تثير مشكلات اقتصادية، لكنها بشكل مطلق تضع هذه القوى فى حالة حراك. العوامل الأخرى مثل السياسات الخارجية الأمريكية العدائية والدعم المادى الغربى للطغاة العرب والتعدى الإسرائيلى على الأراضى العربية، على الدرجة نفسها من الأهمية أو أكثر أهمية.

أخيراً، من الأهمية بمكان توضيح أنه بينما يلمح التدبيريون إلى أن هجرة المسيحيين من فلسطين تهدد وجود ثقافة متفردة، نجد الثقافة المسيحية الفلسطينية فى الواقع حية تماماً فى أماكن مثل شبلى والولايات المتحدة وهندوراس وكندا وبريطانيا العظمى وفى أماكن أخرى. الثقافة المسيحية الفلسطينية كذلك سوف

تكون دائماً حية في فلسطين، لأنه طالما لا تمنع إسرائيل المسيحيين تماماً من دخول أماكنهم المقدسة فإن وجوداً ثقافياً سيستمر في الانتشار في أرجاء البلاد. إنه لا وجود لفلسطين بدون وجود مسيحي. هذا الوجود جزء لا يتجزأ من المكان وثقافته الأصلية المنتمية لذلك المكان. وقد بدأت إسرائيل في تدمير كل من المكان وثقافته الأصلية، وهكذا هي تشكل التهديد الحقيقي الوحيد بتدمير الوجود المسيحي في الأراضي المقدسة. سوف تتم إسرائيل تدمير هذا الوجود المسيحي فقط عن طريق طرد جميع الفلسطينيين. حتى لو رغبوا (وهم لا يرغبون)، فإن المسلمين الفلسطينيين لا يمكنهم تدمير الوجود المسيحي لأنه جزء من كينونتهم الثقافية والتاريخية. هذه حقيقة أساسية نجد الصهيونيين المسيحيين إما يرفضون فهمها أو أنهم يفضلون التعامل معها بجهل سافر.

وهذه هي النقطة الرئيسية في الأمر كله في تقديري: لو أخذت لحظة لأؤكد هوية ابنية ولأحدث كمسيحي عربي، فإن ذلك أساساً لأنه توجد هناك حقائق متعلقة بوجودنا في هذا العالم واختلافات بسيطة جداً في مشاركاتنا المتنوعة في المجموعات القومية والثقافية. الصهيونيون المسيحيون لم يصلوا إلى أو يتلفظوا بأى من تلك الحقائق. إنهم غير مهتمين ذهنياً للاختلاف في الرأي. إنه من واجبنا إذن أن نفعل ذلك - ليس لصالحهم، بل لمصلحتنا نحن كمسيحيين من أهل البلاد الأصليين.

إننى في غاية الضيق لكونى دعيت من قبل الأوغاد والثيوقراطيين لأبرر الاستعمار ونزع الملكية. لست منشغلاً بسخرية الصهيونيين المسيحيين المرصية، الذين أجبروا المسيحيين الفلسطينيين على أن يحتفلوا بتسريدهم من بلادهم وتدميرهم. لقد دعونى لأرتكب الإبادة الجماعية. لقد شاركت في تلك الإبادة الجماعية طوال الوقت الذى كنت فيه صامتاً. بعد ذلك أثبت حقاً مكتسباً بالولادة كان قد سرق منى، وتكلمت بوصفى مسيحياً عربياً. لكننى مدرك أنه ستأتى مرحلة عندها ستحتاج الأصوات إلى أن تعود إلى التردد بشكل أكثر حميمية.

لذلك أود أن أسقط مرة أخرى هويتي الابنية كمسيحي عربي وأن أتحدث من خلال ابنية أكثر أصالة بوصفي إنساناً: الرغبة الصهيونية المسيحية في التحريض على الإبادة الجماعية للمسلمين تستحق الإدانة الصريحة، ولكنها تحتاج أيضاً إلى التدخل الفكري الذي يتناول بجدية التكوين السياسى والثقافى المتعدد فى العالم العربى. وبهذا المعنى، فإن كل الحديث عن الإسلام والعرب فى الولايات المتحدة يجب أن يتطور إلى اختلاف أخلاقى، بدلاً من تكرار حقائق بديهية حول ثقافة ما قبل الحداثة والثقافة البدائية.

ينبغى أن أعترف فى رهان شخصى فى هذه المناقشة: إنه من خلال هذا الاختلاف الأخلاقى فقط أنا، الشخص المكوّن من هويات مشتركة، يمكننى أن أكون واضحاً أخلاقياً. سوف لا أدخل فى هوية مسيحية، رغم ذلك، بدون كينونتى العربية الكاملة.

الانفتاح العقلي في يوم الاستقلال

بالطبع، ليس كل الأمريكيين الأفارقة كسالى. بالطبع، ليس كل الهنود مدمنى كحوليات. بالطبع، ليس كل اليهود بخلاء. بالطبع، ليس كل الروسيات عاهرات. بالطبع، ليس كل المكسيكيين قذرين. بالطبع ليس كل الباكستانيين تفوح منهم روائح كريهة. بالطبع، ليس كل الأفارقة وحشيين. بالطبع ليس كل الإسكيمو يستخدمون (٢٥٠) كلمة كأسماء للتلج .

بالطبع ليس كل الآسيويين جبناء. بالطبع، ليس كل الأمريكيين جهلاء. بالطبع ليس كل اليابانيين طيارين انتحاريين. بالطبع، ليس كل الهنود رواقيين^(١). بالطبع، ليس كل الأمريكيين الأفارقة مجرمين. بالطبع، ليس كل العرب شرسين. بالطبع ليس كل الماوريين^(٢) بدائيين. بالطبع، ليس كل الهاوايين راقصى هولولا^(٣). بالطبع ليس كل السكان الأصليين فى أى بلد متخلفين. بالطبع، ليس كل التايلانديين مقامرين. بالطبع، ليس كل النساء مرهفات الحس أكثر من اللازم.

بالطبع، ليس كل المكسيكيين عمال كادحين. بالطبع، ليس كل سكان جنوب شرق آسيا محتالين. بالطبع، ليس كل سكان الأبالاشيا^(٤) مغتصبين متخلفين. بالطبع ليس كل الناس الفقراء عديمى الذوق. بالطبع، ليس كل النساء قليلات الشأن فى القدرات العقلية. بالطبع، ليس كل النيولنديين أغبياء. بالطبع، ليس كل الإيطاليين أعضاء فى "المافيا". بالطبع، ليس كل الإسبانين منحطين أخلاقياً. بالطبع، ليس كل

(١) نسبة إلى المذهب الفلسفى الذى انشأه زينون حوالى عام ٣٠٠ ق.م. والذى يقول بان الرجل الحكيم يجب ان يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح او الحزن وان يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة .

(٢) أقلية عرقية تعيش فى نيوزيلندا .

(٣) رقصة شعبية تشتهر بها نساء جزر هاواى .

(٤) الأبالاشيا سلسلة جبال فى شرق أمريكا الشمالية تمتد من كويبيك حتى خليج المكسيك.

الأفغانيين قذرين. بالطبع، ليس كل الأمريكيين اللاتينيين الذين يعيشون في الولايات المتحدة ملوثين بالشحم. بالطبع ليس كل المثليين منتهكى أطفال. بالطبع ليس كل الأفارقة عرايا ووثنيين. بالطبع، ليس كل سكان سريلانكا يستحقونها.

”بالطبع، ليس كل المسلمين إرهابيين.“ (توماس فريدمان، نيويورك تايمز، ٤ يوليو ٢٠٠٧) ^(١).

(١) عيد الاستقلال في الولايات المتحدة يحتفل به في الرابع من يوليو كل عام (المترجم).

مايكل مور يفعلها مرةً أخرى

عند الحديث عن شخص ما مثل "مايكل مور"، وهو فنان اهتمامه منصب على خيانة النظريات السياسية بدلاً من اختبارها، فإنه ربما يكون من الأفضل تجنب مظهر المكر أو المراوغة. دعوني إذن أنطلق إلى البداية وأعرقها: إنها فعل المجاهرة بوجهات النظر السياسية الليبرالية من خلال الاستعمال الجزئي للعنصرية غير المشروعة كوسيلة خطابية غير معروفة. و"مايكل مور" يتفوق "في ذلك". إن فيلميه التسجيليين الأخيرين "فهرنهايت 911" و"*Sicko* سيكو"، يوظفان تلك الوسيلة بدرجة إتقان لا يصل الشك إليها غالباً. لم يخترع "مور" هذه الوسيلة بالضبط، لكنه بضرب مثلاً بفانديتها لفنّ الفيلم التسجيلي وضرورتها للسياسات الليبرالية الأمريكية على نحو أشمل. الفيلمان يتبران من التحيز، ويدافعان عن العدل من خلال الوجود الموازي وغير الموضوع في الاعتبار للعنصرية ضد العرب.

أريد أن أركز هنا أولاً على فيلم "سيكو"، إلى حد ما لأنني علّقت في حينه علناً على فيلم "فهرنهايت 911"، وإلى حد ما لأنني أجد فيه مثلاً أكثر مكرراً، ومن ثم مفيد تحليلياً، لكيف يمكن لعنصرية مأكرة وغير منظورة ضد العرب أن تتخفى خلف واحدة من استراتيجيات "مور" الخطابية.

نفورى من "فهرنهايت 911" يلقي الضوء على رد فعلى السلبى تجاه "سيكو". من السهل أن نكره "فهرنهايت 911"، رغم ذلك. الفيلم لا يستخدم فقط العنصرية غير المشروعة كوسيلة خطابية غير مدركة، بل يعتمد أحياناً على الخيال العنصرى بشكل صريح. أنا أفكر فى المشهد الاستشراقى الذى يوظفه "مور" عندما يشير إلى المغرب والذى يشتمل على القروء - وما شابه ذلك؟ - والطربوش. لقد كتبت فى حينه عن اعتراضى على الطريقة التى يبحث بها "مور" قانون الوطنية الأمريكى "USA Patriot Act". باختصار، وجدت الأمر مزعجاً

حيث اختار "مور" مجموعة من المواطنين البيض كبار السن الذين كانوا مضيّقاً عليهم إلى حد ما من ال-FBI كنماذج للخطر على "قانون الوطنية". لقد فهمت هذا الموقف على أنه موافقة ضمنية على العنصرية ضد العرب، لأنه يتجاهل الضحايا الأساسيين لقانون الوطنية Patriot Act، وهم العرب والمسلمون، يكون "مور" قد اختار أسلوباً مفضلاً اعتقد أنه سيكون مقنعاً لعموم الأمريكيين. هذا الأسلوب يمكن أن يكون مؤثراً، رغم أنه، بنى فقط على الافتراض فقط بأن النشاط المسلح للبيض أبرياء بالضرورة من الجرم، بينما العرب والمسلمون مشتبه بهم لا محالة. بمعنى آخر، الحقيقة لا تهتم بالنسبة ل-"مور"، فتحقيق هدفه هو الأهم في نظره.

وهكذا فأسلوب "مايكل مور" المعتاد هو: أن يتجاهل أى شيء قد يقوّض أو يعقّد التزاماته الليبرالية المخلصة.

هذا الاعتراض لا يذكر شيئاً عن أكثر أشكال العنصرية مكرّراً ضد العرب في فهرنهايت ٩١١، وهو فيلم يصور العرب على أنهم بارونات بترول مشبهون وشيوخ قبائل خطرين. فى الفيلم، جورج بوش الابن، أخرق، ومؤذ، يُظهر وهو متورط فى شرك مصاديد أولياء نعمته العرب، الذين يقدمون النقيض الغامض للصلاح الأمريكى الأصيل الذى يحث "مور" جمهوره لاستعادته. إلى جانب الجشعين، وبارونات البترول المتشحين ب-"الجلابيب"، فإن العرب فى "فهرنهايت ٩١١" هم عراقيون، يقدمهم بشكل رومانسى تذكارى، والذين بحسب "مور" كانوا يعيشون بسلام فى عراق "صدّام حسين" قبل أن يسرع "دُبّيّا"^(١) (جورج بوش) ويدمر كل شيء. بطريقة أو بأخرى، العرب لم يكن لهم فى الواقع أى صوت فى "فهرنهايت ٩١١". إنهم يوجدون كمشاهد متقنة الصنع فى خيال "مور" العقائدى .

لم يكن "مور" أبداً أكثر من مجرد مؤيد للمراوغة. إن أعماله تستخدم الدليل بانقائية لكى يتمكّن "مور" من توصيل فرضية محددة سلفاً. عندما يستخدم طلابى

(١) من أسماء جورج بوش الابن .

اللامتخرجين تخصص "مور"، ويلوون عنق الدليل لى يناسب المناقشة بدلاً من طريقة أخرى من هنا وهناك أعطيهم درجة أدنى. إن "مور" مخرج أفلام موهوب ذا شخصية محبوبة، مع أنه كخطيب فى مستوى طالب جامعى مبتدئ. على الأقل الطلاب قليلو الخبرة لهم عذر مقبول. مع "مور"، نحن مضطرون لاستنتاج عدم الأمانة إذا لم نقبل عدم القدرة كمبرر معقول. فى الواقع، إذا دوى نجاح أفلامه، فأنا متأكد من أن إدارات السياحة فى كندا وفرنسا وبريطانيا العظمى وكوبا سترغب فى استئجار "مور". فهو يجعل كلاً من هذه الأمم رومانسية بوصفها النقيض الرائع لفشل أمريكى استثنائى (خاصة فيما يتعلق بتنظيم مبيعات الأسلحة والرعاية الصحية). فى فيلم "Bowling for Columbine"، على سبيل المثال، يقل "مور" آلة تصويره إلى "أونتاريو" لإظهار أن العنصرية هى مشكلة أمريكية واضحة، وغير موجودة فى كندا تقريباً. فى فيلم "Sicko"، يطلب منا أن نصتق أن نظام الرعاية الصحية البريطانى يوفر أطباء ميسورين مادياً وعناية طبية بلا مشكل. إن "مور" يتاجر فى فن الإقناع وليس فى فنية المصدقية. إنه يجيء بدقة بالنتيجة التى يشرع فى استكشافها .

حتى إذا ما اتفق المرء مع بعض أو كل حجج "مور" - وهناك الكثير فيما يخصها يمكن الإعجاب به - فإننى أجد من الصعوبة بمكان قبول الطريقة التى يقدمها بها، وهى طريقة مناقشة ومهينة. إن "مور" نموذج مثالى للغز أن الفنانين والمتقنين يجب أن يمارسوا التفسير المستقل. أن نخدم انتماء سياسياً معيناً، هو أن ننحى عن احتمالية كون الحزب المنتمى إليه جدير بالتدقيق الذى سنوجهه إلى الحزب المعارض له. أن ننتسب إلى أنفسنا، فهذا يضطرنا إلى ميدان فكرى توافقى. بإنتاج فيلم تسجيلى لخدمة " حملة "جون كيرى"⁽¹⁾ فى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤، على سبيل المثال، تجاهل "مور" تواطؤ الديمقراطيين فى الأمور ذاتها التى أصبح ساخطاً عليها بشدة .

(1) ينتمى جون كيرى إلى الحزب الديمقراطى (المترجم)

الهدف هنا ليس أن نتجادل حول ما إذا كان "مور" مصيبًا في أن الرعاية الصحية في الولايات المتحدة غير عادلة وفضيحة قومية. طبعًا هي فضيحة، وليس سوى أن يكون أحد أفراد جماعات الضغط الخاصة بشركات التأمين أو غيبى هو الذى سيجادل في أن النظام الحالى لهيئات الحفاظ على الصحة والعلاج المشترك (HMOs) نظام عادل. الهدف هو أنه بعمله فيلمًا تسجيليًا عن هذا النظام الحالى، يلقي "مور" الضوء بالمصادفة على مشاكل قومية اخرى، مجرد وجودها في فيلمه رسالة تذكير فاضحة لتورطه السياسى والفنى.

أتمنى لو كان "مور" دقيقًا من الناحية التحليلية أكثر مما اختار هو أن يكون عليه. يلجأ فيلم "سيكو" إلى الاحتيال ليصنع ما هو بطريقة أو بأخرى موضوعًا نزيهًا وحاسمًا عن الحالة المريعة للرعاية الصحية في أمريكا. الدليل الذى يجمعه "مور" ضد شركات التأمين المقتررة مناسب وقوى في آن واحد. نبرة الفيلم الغاضبة، وهى سلعة "مور" الرئيسية، تنبيهية أكثر منها أخلاقية. و"مور"، كما يشير كثيرًا فى المقابلات الصحفية، يستخدم موضوعًا هو أساسًا مؤيد من كلا الحزبين الديمقراطى والجمهورى، والذى يمكن أن يتجاوز المصالح الحزبية بين الأمريكيين. الكل يريدون الرعاية الصحية الكافية لأنفسهم ولأسرهم. فى ما يتعلق بهذا المطلب الأساسى (والحق الإنسانى)، أناس قليلون غير مدفوع لهم من قبل شركات التأمين من أجل تأييدها، مبالون لتأييد هيئات الحفاظ على الصحة، المستقلة والقوية على ما يبدو.

لا يحتاج "مور" إلى أن يعتمد على التحايل، والذى جعل فيلم "سيكو" مصدرًا للقيم الجائرة. تضمين هذه القيم يضرب مثلاً على وقوع "مور" فى فخ نمط من الخطاب الليبرالى لن يمكنه من أن يصنع شيئًا من التدخلات الثورية التى تلهم عمله ظاهريًا. (فى حالة ما إذا تخيلنى أى شخص مبالغًا أكثر من اللازم، فإن هذا الخطاب الليبرالى سوف لا يمكن "مور" أبدًا من القيام بالتدخلات السلمية أيضًا). وبمعنى أشمل، تضمين تلك القيم فى فيلم "سيكو" يدل على قبول "مور" بالعنصرية

ضد العرب كقوة محفزة فعالة في الولايات المتحدة. القيم الظالمة التي يعيدها "مور" ثانية، والقيم الظالمة التي يهاجمها على صلة ببعضها البعض، على الرغم من بعدها عن التشابه، لأنها تنشأ من الدافع ذاته بين المدافعين عنها لترضى في النهاية مراكز القوى.

التحليل الأكثر وضوحاً في فيلم "سيكو"، والذي أضعه في الاعتبار هنا، هو المنظر الذي يبحر فيه "مور" على ما يبدو من "ميامي" إلى خليج "جوانتانامو" في كوبا. كان مع "مور" عمال إنقاذ 9/11 البيض - تقريباً كل ضحايا صناعة الرعاية الطبية في فيلم "سيكو" من البيض - ذوى المشاكل الصحية المتكررة. كان العمال غير قادرين على الحصول على الخدمة الطبية الكافية. "مور" - والذي كان قد استمع إلى السيناتور الجمهورى (والطبيب) "بيل فرست" يتباهى فى التلفزيون بأن الأسرى فى القاعدة العسكرية الأمريكية فى "جوانتانامو" يتلقون رعاية صحية ممتازة - قرر أن يتأكد من هل ستكون هذه الرعاية الصحية متاحة لعمال إنقاذ 9/11. الفضول هزلى، بالطبع. "مور" يعرف أن عمال إنقاذ 9/11 لن يتلقوا أى علاج فى "جوانتانامو"، ولذلك فأخذهم إلى هناك فإنه يخرج مشهداً مفعماً بالتعليق الساخر. وكان يمكن للتعليق الساخر أن يكتسب وضع المهرج أو التتويج لو لم يضطر إلى الاعتماد على التكتيك المعتاد بنزع صفة الإنسانية عن المسلمين من أجل التهليل للأمريكيين الوطنيين. أريد بدلاً من ذلك أن أصنف المشهد على أنه حالة عنصره ضمنية.

هناك أسباب عديدة لهذا الحكم. قبل أن أتطرق إليها، رغم ذلك، دعونا نفرغ معانى مشهد "جوانتانامو". ينجح "مور" فى أن يقول أشياء كثيرة مهمة فى أن واحد، وهو شئ من الصعب عمله. أنا لا أختلف مع صعوبة المشهد، أنا أختلف مع أحد تعليقات المشهد الضمنية. فى ظاهره، المشهد طريقة لجعل الناس يقبلون بفكرة أن نظام الرعاية الصحية الأمريكى غير عادل، باعتبار أنه يستبعد حتى هؤلاء الذين خدموا الولايات المتحدة بشرف. ويتوضح أقل، المشهد يعيد إنتاج

نوع من العبث "الكافكوي" الذي يبرزه "مور" في مكان آخر: الأبطال الأمريكيون في احتياج لأن يزوروا سجنًا عسكريًا متكتمً عليه ومحاطًا بأراضٍ معادية من أجل أن يحصلوا على ما ينبغي أن يكون حقهم المكتسب بالمولد كمواطني أمة متقدمة تكنولوجياً وغنية.

المشهد يقدم أيضًا تعليقًا ساخرًا، لأن "مور" لم يعط المتفرجين الانطباع بأنه يصدّق بالفعل ادعاء "فرست" حول الرعاية الصحية الممتازة في "جوانتانامو". إنه ينتقد السجن بكشف أن حديث الرعاية الصحية الموجودة به مجرد خرافة. يدين "مور" نوعين من النفاق، واحد متعلق بالرعاية الصحية الشاملة، والآخر بالتعذيب في "جوانتانامو". ("مور" معروف بأنه معارض لوجود السجن). لا عمال إنقاذ 9/11 ولا السجناء في "جوانتانامو" يعاملون بعدل. عمال إنقاذ 9/11 فقط، مع ذلك، يقدّمون على أنهم مستحقون للتعاطف معهم .

قد يعترض أحد من الناس على مناقشتي بالتنبيه إلى أن "سيكو" فيلم حول نظام الرعاية الصحية الأمريكي وليس السجن العسكري في "جوانتانامو". أود أن أرد على هذا الاعتراض بالموافقة من كل قلبي، وأريد فقط أن أضيف أن "مور" ينبغي عندئذ أن يكون مرتبطًا بالموضوع. ففي اللحظة التي استخدم فيها "جوانتانامو" ومعاناة الناس في سجنها، أصبح مسئولاً أخلاقياً عن تلك المادة. وبدعم ممارسة هذه المسئولية، فوجئ "مور" باستغلاله لسجناء "جوانتانامو". أنا لا أستخدم فعل "يستغل" باستخفاف، ولا أريد أن ألمح إلى أن استغلال "مور" مساوٍ لاستغلال الحكومة الأمريكية إزاء السجن. وعلى عكس الحمل أو المصادفات، الاستغلال فيه مناطق رمادية، واستغلال "مور" ليس هداماً. لكنه برغم ذلك مثير للريبة.

هنا يتضح كيف يفسر "مور" المشهد في "الديمقراطية الآن" (1)!

(1) برنامج إذاعي وتلفزيوني إخباري (المترجم)

و"كنت أعتقد، إلى حد بعيد، أنكم تعرفون أننا هنا لدينا عمال إنقاذ ٩/١١ الذين لا يمكنهم الحصول على أى رعاية طبية. إنهم هنا يعلنون بصوت عال كيف أن لديهم رعاية طبية شاملة مجانية، فى مجال طب الأسنان والعيون واستشارات التغذية، للمسجونين. وفكرت، بشكل جيد، لماذا لا نأخذ الآن عمال إنقاذ ٩/١١ إلى "جوانتانامو"، ونرى ما إذا كنا سنستطيع أن نحصل على بعض من تلك الرعاية الصحية المجانية التى يتفاخرون بها؟ وهكذا، حقيقةً، عندما ترون الفيلم - لا أريد أن أفصح عن مضمون الفيلم كله - ولكن هذا أساسًا هو ما سنفعله.

هذا التبرير بارع فى ظاهره، لكنه مؤسف أخلاقياً. يمكننا على سبيل المثال، أن نوسّع منطق "مور" : لماذا لا نرى ما إذا كنا سنستطيع أن نجرّب بعضًا من هذا التعذيب الذى يسترون عليه ؟

والأكثر استحقاقاً للإدانة، أن "مور" يثير مجموعة من القضايا الخطيرة التى يتجاهلها هو نفسه حالياً. المسجونون، الذين يشار إليهم كثيراً على أنهم "مشبهو إرهاب"، و"إرهابيون محتملون"، و"مقاتلون أعداء"، و"القاعدة"، يُعرضون كأدوات مساعدة فى سيرك "مور" الخطابى، وهكذا يُمنعون من ترفّ ما يثبت الهوية الإنسانية الأساسية. إنهم يُستغلّون إذن، لأن "مور" يخصصهم لغرض معين لا يتعلّق أبداً بمصلحتهم الذاتية. هنا يصبح معتقلو "جوانتانامو" صوراً مجردة من الإنسانية. نحن لا يمكننا أن نتعامل معها بجدية. فى الواقع، لسنا ملزمين بأن نهتمّ بهم مثقال ذرة. لكنهم مثقلون بعبء إحداث التعاطف من أجل الأمريكين.

يعتبر فيلم "سيكو" السجناء فى "جوانتانامو" مذنبين، برفضه التعليق على المبررات المريبة لأسر الكثيرين من المقبوض عليهم، والذين بين صفوفهم أطفال وأناس اكتشفت براءتهم من قبل المحاكم الأمريكية والمحققين منذ وقت طويل. فى أكثر التفسيرات كرماً، يتجاهل "مور"، وليس غير ذلك، لماذا يوجد السجن والسجناء من الأساس، وهو يتجنب مجرد الإشارة الروتينية إلى لماذا سجن "جوانتانامو" بئس جداً. إنه فى الواقع يقدم سخريّة مؤيدة نظرياً للسجناء، ولكن هذه السخريّة - السجناء لا يتلقون بالفعل رعاية صحية بل يتلقون التعذيب - خفيفة جداً

لدرجة أنها غير مؤثرة. إن "مور" يبحث عن السخرية لوقت طويل بما يكفي لتوضيح وجهة نظره فيما يخص الأبطال الأمريكيين البيض المعذبين. وفيما عدا هؤلاء الأبطال البيض هو لا يرى شيئاً يتعلق بـ "جوانتانامو" على الإطلاق .

هذا النوع من التصرفات متوافق مع مضمون مجمل أعمال "مور". إن "مور" يمنح نفسه لما يتخيل أنه التحامل الخفى من جمهوره. إن أمريكا البيضاء الليبرالية والديمقراطيين الوسطيين لن يتعاطفوا مع السود؟ إنها ليست مشكلة. "مور" سوف يحتويهم بشكل هامشى فى آخر الأمر. سوف يرفض الأمريكيون المعارضون، الذين هم وطنيون فى النهاية، القبول بإنسانية العرب والمسلمين؟ رائع. سيحول "مور" موضوعات معارضتهم، مثل "قانون الوطنية"، إلى قضية بيضاء، ملقياً ببضع صور للعرب الأوغاد ليوفر لهم الرضا. إن "جوانتانامو" أداة مفيدة، لكنها ثقيلة جداً للعرض المتعدد فى آن واحد لدى "هارفى وينشتاين" (١) و"صباح الخير يا أمريكا" (٢). لماذا، الحل معدّ سلفاً بشكل عملى. سوف يكيف "مور" جوانتانامو فى صيغة ليبرالية تتجنب الإشفاق على أسراه المسلمين، وتتخيل نفسها أنشودة شكر مناسبة للقائمين على السجن. هذه الخطوة الأخيرة ليست مجرد إخراج سيء استناداً إلى تحايله عديم الجدوى. بل هى أيضاً غير أخلاقية من الناحية الخطابية بسبب عدم رغبته فى التخلّى عن الإساءة الأخلاقية الشاملة.

المشهد مذكّرٌ بأسلوب يستخدمه "مور" فى "قهرنهايت ٩١١"، لأن ذلك الفيلم الوثائقى كان مرتبطاً بمهمة تأييدية من أجل انتخاب "جون كيرى"، وأراد "مور" أن يصل إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور. ومن الواضح أن هذه الرغبة تستلزم حدوداً منطقية، كما فعل القرار بإعلان تأييد الحزب الديمقراطى. (لقد منعت تلك الرغبة "مور" من نقد الديمقراطيين بشكل مقبول، على سبيل المثال). لم يلتزم "مور" بتلك الحدود بإخلاص فقط بل قلصها فى الواقع. فى خضمّ حماسه لإنتاج

(١) منتج أفلام أمريكى وموزع سينمائى. (المترجم)

(٢) أحد أشهر البرامج التلفزيونية الأمريكية، تأسس سنة ١٩٧٥ (المترجم)

فيلم يهتم به العالم، وجد "مور" ملاذه في ذلك المكان سييء السمعة الذي يضم الأوغاد. إن "فهرنهايت ٩١١" ليس أكثر من إيماء وطنية فجأة، مبتكرة في شكل الفن، قُصد منها تعبئة جماهيره في خدمة السياسات المتضامنة، المبتكرة هي أيضاً (بشكل ركيك) على أنها راديكالية أو معارضة. إن "مور" يكرر تعويله على الوطنية في فيلم "سيكو"، بإبرازه الواضح جدًا لعمال إنقاذ ٩/١١، وأخذهم إلى "جوانتانامو"، حيث وُضعوا إلى جانب الآخرين المناقضين، الإرهابيون المسلمون.

الغرض من هذا المشهد هو تأكيد فضيحة الرعاية الصحية الشاملة في الولايات المتحدة. هذا الغرض يجب أن يكون سهلاً تحقيقه، كما يوضح "مور" بنفسه في مكان آخر من فيلم "سيكو". لكنه قرر أن يزيد تأكيد غرضه، وبفعله هذا صنع ازدواجية خاطئة وقدم إطاراً ضعيفاً للتعاطف الانتقائي: "إذا كان مخزياً أن عمال إنقاذ ٩/١١ قد حرموا من الرعاية الصحية، إذن تأمل فقط كيف هو مخزٍ أن الإرهابيين المسلمين المشتبهين لم يُحرموا منها". على أية حال، استحضار الوطنية من أجل الإقناع هو حيلة خطابية مملة ورخيصة. إن "مور" ينجح حتى في صبح حجته باللغة والأفكار ذاتها الخاصة بأعدائه في اليمين: "إذا كانت القاعدة تستطيع الحصول على الرعاية الصحية، إذن لماذا لا يستطيع أبطال ٩/١١؟". إن "مور" يكرر ازدواجية المحافظين الجدد الأصلية، وهو الذي قضى السنوات السبع الماضية في إدانة أيديولوجيتهم.

والأكثر أهمية من ذلك، أنه لا يوجد أساس سوى الإجمال العنصرى الذي من خلاله يمكن أن يُشار إلى معتقلى "جوانتانامو" بصورة متطابقة على أنهم "القاعدة". السجن واحد من التخبّطات المرتبطة بإدارة "بوش"، وقد أصبح مصدراً للاحتجاج والغضب في الفعاليات السياسية البريطانية منذ اكتشافه. إنه يمثل تعذيب ما بعد ٩/١١ السائد في الولايات المتحدة. باختصار، الأمر ليس مزحة. إنه في غنى عن أن يلعب دوراً في مناقشة موضوع الرعاية الصحية الأمريكية. إنه يحتاج بدلاً من ذلك أن يلعب دوراً في حديث غير موجود في الولايات المتحدة غالباً، حول لا أخلاقية التعذيب، والعنصرية في كثير من التشريعات الجديدة.

إذا شعر "مور" أنه مجبر على الاستشهاد بالأسرى في "جوانتانامو"، إذن كان عليه أن يخصص لحظة واحدة لينقل للآخرين (وما أتمناه كان أشياء بديهية) مسألة أن هؤلاء الأسرى بشر. إنهم ليسوا أدوات، إنهم بشر عانوا بشكل رهيب، بشر انتزعوا من عائلاتهم واعتقلوا دون استشارة قانونية في وضع مجهول المصير. الكثيرون منهم مذنبون بشيء ما بالتأكيد طبقاً لشخص ما. ولكن الكثيرين، طبقاً للدليل الشامل، مذنبون بلا شيء سوى أنهم ذوو بشرة داكنة ويستخدمون كلمة عربية للإشارة إلى "الرب". بعضهم أطفال، والذين هم وفقاً للتعريف القانوني، أبرياء. ومثل عمال إنقاذ ٩/١١ الذين يكرمهم "مور"، فإن هؤلاء البشر قد عانوا من الظلم. جميعهم، الأمريكيون والمسلمون، أو كلاهما معاً، يستحقون منا الإصغاء والتعاطف إذا كنا راغبين في الاهتمام بهذه الأمور. يطلب منا "مور" أن نهتم بهذه الأمور، لكنه يجبرنا على أن نهتم بها بشكل ناقص.

أخيراً، فإن فيلم "سيكو" يقدم لنا أسئلة حول استخدامات وفائدة الفن، ليس فقط فن العرض أو الإقناع ولكن المبادئ الأخلاقية للفن، الذي يسعى في الوقت ذاته إلى ممارسة العمل السياسي. لقد أصبح الفن موضوعاً إيضاحياً عادياً منذ ظهور الكتابة، وقد ألهم سلسلة من الآراء المختلفة على امتداد الزمن منذ "أرسطو" حتى "جان بودريلار"^(١)، وقد أصبح أيضاً موضوعاً للحوار المتنوع لآلاف السنين في المجتمعات القائمة على الشفاهية. إذن فاعتبار "مور" شيئاً غامضاً جداً يعدّ أمراً غير ممكن، خاصة وأن مجمل أعماله لا يلائم في الواقع نموذج البراعة الفنية، بل يلائم نموذج الغوغائية. إنني أتردد في أن أحول بين "مور" وبين عالم الفن، مهما يكن، لأنه يصنع غوغائيته من خلال وسيلة فنية، وهي الفيلم، ولذلك هو يضمن التقدير بواسطة هذا الإطار مثل أي مخرج تسجيلي آخر.

أود أن أؤمن، على اعتبار أنه نقاش مؤسسي، أن الفن بالتأكيد له قواعد، وليس مجموعة ثابتة من القواعد. فقواعد الفن تتغير وتتطور طبقاً للمشروع. ومن

(١) جان بودريلار (١٩٢٩ - ٢٠٠٧) فيلسوف فرنسي ماركسي. (المترجم)

هنا يمكن أن يكون الفن جدليًا أو مثاليًا بكل معنى الكلمة. مع ذلك فهو دائمًا ما تكون له تعليقات، وبهذا المعنى فهو دائمًا سياسيًا. ليس الفن بالضرورة نتاجًا عن المصادقية، ولا حتى المصادقية الظاهرية. إنه يمكنه أن يكون مآكرًا أو متلاعبًا وأحيانًا يكون وضيعًا. أنا لا أُنقِد بأي اعتقاد غير عملي بأن الفن يحتاج لأن يكون جميلًا أو نبيلًا، أو حتى لأن يحتاج لأن يكون ذا معنى. بعض الأعمال الفنية جميل جدًا مثل : (The God of Small Things , Rabbit Proof Fence) ^(١)، والبعض نبيل، مثل : (Common Sense, In The Light of Reverence) ^(٢)، والبعض له معنى، مثل : (Once Were Warriors, Power) ^(٣). وبعضها لا يمتلك أيًا من هذه الصفات الثلاث (معظم أعمال "جرتروستين" ^(٤)، على سبيل المثال، أو بعض قصص "شيرمان أليكسي" ^(٥) الأكثر وقاحة). لن أضع هذه الأعمال في تسلسل هرمي مبني على أي معايير مفترضة ترى أن الفن الجميل والنبيل أو ذا المعنى هو الأفضل. هذا النوع من التسلسل الهرمي سوف يكون تخمينًا إلى حد بعيد، وبسبب ذلك سيكون مضملاً. النقطة الأكثر إفادة هي أن الفن يأتي في جميع الأشكال بغض النظر عن كيف نختار أن نحكم على جودته. (إنني، على سبيل المثال، أميل إلى كراهية الفن الذي يحمل أي لمحة من الوعظية، والذي أحكم عليه بأنه أقل جودة من العمل الذي يكون ذكيًا سياسيًا، إلا أنني لا أستخدام رد الفعل هذا كدليل على أن العمل الوعظي ليس فنًا).

(١) فيلم سينمائي أسترالي، عرض لأول مرة عام ٢٠٠٢، إنتاج وإخراج فيليب نوبس. (المترجم)
(٢) فيلم تسجيلي أمريكي استغرق إنتاجه عشر سنوات، عرض لأول مرة سنة ٢٠٠١، من إنتاج كريستوفر ماكليود وماليندا ماينور، ويدور حول ثقافات السكان الأصليين في أمريكا. (المترجم)

(٣) فيلم سينمائي نيوزيلندي، من إخراج لي تاماهوري، ١٩٩٤. (المترجم)

(٤) جرتروستين (١٨٧٤ - ١٩٤٦)، كاتبة وشاعرة أمريكية حديثة .

(٥) شيرمان أليكسي (١٩٦٦ - ..) شاعر أمريكي وقاص وروائي وكاتب سينمائي ومخرج .

لكن الفن - ولا يهم أى شيء آخر يكون هو، وفى النهاية هو كل شيء - لا يمكن أن يكون شيئاً واحداً على وجه الخصوص: مندمجاً بصلاية.

هذا المعيار، أكثر من أى شيء آخر، يميّز بين الفن والدعاية. إن فن "مور" مندمج بصلاية مع واحد من شينين (وأحياناً مع كليهما فى آن واحد) : جدول أعماله المعدّ سلفاً والحزب الديمقراطيّ. لقد برع الديمقراطيون فى فنّ الاستمالة، لكنهم على العكس سدّج تماماً مثل حمامات وسائل المواصلات العامة (التي، بالمصادفة، تتجه لأن تصدر روائح زكية أكثر قبولاً). جدول أعمال "مور" ليس مشكلة فى حد ذاته، على الرغم من أنه عادةً ملئ بالمشاكل كموضوع سياسىّ. إن حقيقة أن جدول أعماله دائماً ما يكون معدّاً سلفاً لأمر مثير للضيق. العمل بالتالى يفقد أهميته، مثل بثّ تليفزيونى محسن قدر الإمكان لمادة انتقائية. خذ، على سبيل المثال، فرضية "مور" أن الرعاية الصحية فى الولايات المتحدة فظيعة. هذه فرضية سليمة، وقد قام بعمل معقول لتوضيحها وجعلها مقنعة. إلا أن "مور" كان قد قرر سلفاً ما سيكون كنتائج لتحقيقاته، ولذلك تكون فرضيته أكثر إقناعاً من الاستقصاء الأمين، بالمصادفة. يتلاعب "مور" بفرضيته عن طريق تصويرها بشكل رومانسىّ وبأكثر الأساليب فجاجة، لأنظمة الرعاية الصحية فى بريطانيا العظمى وكندا وفرنسا، والتي لديها جميعاً نظام صحى اجتماعى. وبدلاً من الحدّ بشكل مفيد من قوّة ادّعائه، عن طريق الاعتراف بوجود بعض المشاكل فى تلك الأنظمة، وبالتالى جعل حجّته دقيقة، فإن "مور" يعمل على إثبات أنها ستكون حلاً لجميع المشاكل.

هذا النوع من التصرفات يدلّ على تضليل فكرى. إنه يهين المشاهدين أيضاً، لأن "مور" لا يسمح لهم بأن يفكروا مليّاً فى الدليل، أو أن يعتمد عليهم فى التحقق من الاستنتاجات الذكية من بين مسائل معقدة، حتى هذه الخيارات لا يتيحها لهم. إنه يقرر ما ينبغى أن يعتقدوه، وهكذا يشرع فى بناء قصة، أى قصة، من أجل تدعيم هذا القرار. بهذه الطريقة، يعمل فيلم "سيكو" كمسرح سياسى : فبدلاً من التوضيح من خلال إقناع متميز لشروط الاكتشاف الدقيق، فإن "مور" يعزّز المغالاة

بلمحات شخصية، المقصود منها الإجبار على التعاطف. هذه اللمحات، التي عادة ما تصوّر الناس الذين تعرضوا لظلم بيّن، لا تهدف سوى إلى إرضاء العواطف الراحية للنزعة الخيرية اللبيرالية.

إن "مايكل مور" محرّض بارع، إنه فنان ردىء. فى موضع واحد من فيلم "سايكو"، فى وقت الاستعداد لحيلة "جوانتانامو"، تشكو إحدى المجنّات من المعتقلين: "إنهم يحصلون على رعاية صحية أفضل من التى أحصل عليها أنا". إن تضمين هذه الشكوى فى الفيلم تضرب مثلاً على قصور "مايكل مور" وفشله الأخلاقى فيما يتعلّق بقضية العنصرية. إنه يمثّل قصوراً فنياً لأنه نشره إعلانية مجانية، وكذب سخيف لا يهدف إلى شىء على وجه التحديد سوى نقل الكراهية الضمنية، علاوة على ذلك، يصوّر "مور" عاطفة المجنّدة بشكل رئيسى فى قصة "سيكو"، كما لو أن هناك حقيقة تستحقّ الفداء، راسخة فى اللامنطقية المرصية لهذه القصة. ويمثّل هذا التضمين فشلاً أخلاقياً لـ "مور" فى قضية العنصرية لأن الجملة البسيطة المكونة من ثمانى كلمات يمكنها أن تنهى واحدة من القضايا المهمة للغاية فى وقتنا هذا فى الولايات المتحدة: التعذيب. قبل كل شىء، من الواجب أن نعرف ما إذا كان المعتقلون فى "جوانتانامو" يتلقون رعاية صحية أم لا، وهو أمر أقل أهمية، على ضوء حقيقة أنهم يعذبون. إن المجنّدة فى فيلم "مور" لن تقايض أبداً حالة الرعاية الصحية التى تحصل عليها بتلك التى يحصلون عليها. ولأنها لن تفعل - و"مور" يعرف أنها لن تفعل، لأنه لا هو ولا هى بذلك الأحق - فإن تعليقها ليس له شأن بالفيلم. وهذا التعليق مضلل بشكل واضح، وأنا لا أفهم كيف يمكن لـ "مور" أن يكون غير واع بتضليله الواضح. بإدراجه لهذا التعليق، ومن ثم الموافقة الضمنية عليه، يأخذ "مور" نصيبه من ذلك التضليل.

الأكثر أهمية من ذلك، أن شكوى المجنّدة تضع المسلمين مرة أخرى أيضاً كمنافضين لهوية أمريكية وطنية. فكلمة "أنا" - كناية عن الأمريكى المتقانى - تحقّق المعيارية الإجمالية عندما توضع إلى جانب كلمة "هم" الإسلامية. ومن هنا

يكون البُعد المريب في إخراج "مايكل مور". ولا يبدو أنه مهتم بتقديم حجة دقيقة. ويبدو أنه يفضل تصنيف الآخرين في علاقات أقل شأنًا، من أجل إحداث التأثير الخطابى. في هذه الحالة، فإن تلك الخطوة أدت إلى النتيجة اللاأخلاقية المريعة بتحسين صورة التعذيب من أجل الدعاية لصالح الوطنيين الأمريكيين الحقيقيين.

لقد فعلها "مور" من قبل. عندما كتبت لأول مرة عن فيلم "فهرنهايت ٩١١"، كنت في شوق إلى أن أقبل بأن "مور" يقول الحقيقة: لم أكن على استعداد لأن أبرهن على أن العنصرية ضد العرب في هذا الفيلم منهجية. فقد صورتها بدلاً من ذلك على أنها شيء من نتيجة هامشية غير مقصودة لأسلوب خطابى ركيك. بعد مشاهدة فيلم "سيكو"، على أية حال، يتضح أن "مور" يستغل بشكل معتاد أى "آخر" متاح، لكى يدعم فى هدوء أجندته الليبرالية المتعصبة. فى هذه اللحظة، يتصادف أن يكون آمنُ "آخر" هم العرب والمسلمون - آمن، بمعنى أنهم بسهولة يمكن أن يُجعلوا قابليين للاستهلاك، مع خطر قليل للاحتجاج أو حتى الإدراك.

إذا حدث وصنع "مور"، رغم ذلك، فيلمًا حول السجناء فى "جوانتانامو"، بدلاً من أن يصنع فيلمًا يستغل فيه السجناء فى "جوانتانامو"، فإنه سيكون عندئذ ببساطة مخرجًا حقيقياً آخر للأفلام التسجيلية. وهذا أقل إثارة للجدل إلى حد بعيد من كونه "مايكل مور"، البطل الليبرالى.

الطموح والإرهاب والتعاطف

هناك شيء مميز نوعاً ما لجامعة "فرجينيا تك"، وهي جامعة بحثية ممتدة المساحة في مكان ريفي مفعم بالحيوية. إنه تضارب لوني الجامعة البرتقالي والأحمر الداكن. وأسماء الأماكن الشهيرة بها - النصب التذكري وساحة التدريب العسكري - تلمح إلى حضور عسكري قديم جداً. اسم الجامعة لا يعكس بدقة اتساع مجال تخصصها العلمي، مما يشير إلى أنها تمارس انعداماً لبرامج الفنون الليبرالية الشاملة .

إلا أنه يوجد شيء ما متوازن جداً ومنطقي تماماً فيما يتعلّق بتميّز جامعة "فرجينيا تك". وهو أن معظم الطلاب الذين يتخرجون في جامعة "فرجينيا تك" يظلون أوفياء للجامعة كخريجين، وهواة رياضة، وسّياح في نهاية الأسبوع، وسفراء غير رسميين. إنها ثقافة نوعيّة تخص جامعة "فرجينيا تك"، يشترك فيها الطلاب والخريجون، إذن فوصف هذه الثقافة بأنها بعيدة عن المشاركة المباشرة قد يكون أمراً مستحيلاً تقريباً. تحدث جامعة "فرجينيا تك"، لأسباب ليس من الضروري أن تكون ملموسة، على التفاني المستمر والأكيد .

أنا لست من خريجي "فرجينيا تك". لقد حصلت على درجتين علميتين من جامعة "رادفورد" القريبة منها، وهي جامعة إقليمية شاملة مصدر دخلها الرئيسي هو التربية والتعليم، وقد اعتادت جامعة "رادفورد" أن تكون جامعة للبنات فقط وفرعاً لجامعة "فرجينيا تك" التي كانت سابقاً للبنين فقط (في تلك الأيام التي كانت تعرف فيها ب-اسم "VPI" المكوّن من الأحرف الأولى لاسمها الرسمي: "جامعة ومعهد ولاية فرجينيا للعلوم التطبيقية Virginia Polytechnic Institute and State University"). لقد حصلت على البكالوريوس في العلوم السياسية والماجستير في اللغة الإنجليزية من جامعة "رادفورد". كطالب، كنت أجد قسم اللغة الإنجليزية في جامعة "رادفورد" ممتازاً جداً، ووجدت قسم العلوم السياسية بها

مفتقدًا للأفكار الجديدة ومحافظًا فكريًا (باستثناء أستاذ واحد هو "ريجنالد شريف").
إننى سعيد بتعلّمي هناك، لكننى أعتبر تجربتى عادية.

بصدق، لقد التحقت بجامعة "رادفورد" لأننى لم أتمكن من دخول جامعة "فرجينيا تك". عندما كنت فى سن السابعة عشرة فى "بلوفيلد" المجاورة، لم أكن مثيّرًا للإعجاب سواء كطالب أو كشاب. وكانت درجاتى تتراوح بين المتوسط والضعيف، وكنت أفتاخر بدرجاتى المتوسطة فى امتحان ال- "SAT" ^(١). لم يكن لدى ما يمكن أن أكون جاذبًا بشأنه. لكننى وجدت لى فى "رادفورد" صوتًا ومجموعة من الاهتمامات مدعومة بالتشجيع من قبل بعض الأساتذة الملهمين، لذلك سأكون معترفًا بالجميل إلى الأبد لتعليمى الجامعى. كنت أشعر أحيانًا ببعض الغيرة تجاه هؤلاء الذين درسوا فى جامعة "فرجينيا تك"، التى فى ظلها أقمنا فى جامعة "رادفورد" الأصغر حجمًا والأكثر ريفيّة أيضًا.

بعد أن أكملت درجة الماجستير، سجّلت فى برنامج الدكتوراة فى اللغة الإنجليزية فى جامعة "أو كلاهما"، وهى جامعة تحث بطريقتها الخاصة على الولاء الدائم. (ما زلت متعلّقًا إلى حد بعيد بجامعة "أو كلاهما" كخريج، وأنا فخور بكل صراحة بكونى ذهبت إلى هناك). فى "أبالاتشيا" ^(٢)، وفى "فرجينيا" بالتحديد، جامعة "تك" عبارة عن شيء ضخم وقوى جدًا، وحضور واسع الانتشار كشعار على القمصان ال- "تى شيرت"، وكملصقات على مصدّات السيارات، وكمكان مفضّل لطلب العلم. خارج "أبالاتشيا"، فى شمال "فرجينيا" يبدو خريجو جامعة "تك" فى كل مكان، وهكذا يكون حضور اللونين المتضاربين، البرتقالى والأحمر الداكن. وقد علمت، مع ذلك، أنه خارج "فرجينيا" و"أبالاتشيا"، جامعة "تك" غير معروفة

(١) امتحان يجرى فى أمريكا لطلاب المدارس الثانوية الراغبين فى دخول الجامعة. (المترجم)
(٢) منطقة فى شرق الولايات المتحدة تمتد من غرب ولاية نيويورك إلى شمال ولايات الألباما والميسيبى وجورجيا. (المترجم)

بسهولة جدًا. الجامعة مشهورة على المستوى القومي، ويدرس فيها آلاف الطلاب من أنحاء العالم، ولكن من نواح كثيرة هي مؤسسة إقليمية.

بعد أن أنهيت الدكتوراة في جامعة "أوكلاهوما"، بدأت أولى وظائفى التدريسية في جامعة "ويسكونسين - وايتووتر"، حوالى خمسين ميلاً جنوب شرق "ماديسون"، وهي جامعة إقليمية شاملة، مشابهة من حيث عدد طلابها ورسالتها لجامعة "رادفورد". كنت سعيدًا ببدء حياتى العملية كأكاديمى، من خلال خدمة الطلاب في مؤسسة مشابهة لتلك التى تعلمت فيها كطالب. لم يكن لدى أبداً شعور بالاعتراب في "ويسكونسين"، رغم ذلك، لأى سبب، ما عدا الطقس السيئ. إن "ماديسون" مكان يعجز عن تحقيق عناصر صورته الخاصة من نواح متعددة. ولكن في الواقع، أنا فتى "أبالاتشى"، أردت أن أعود إلى موطنى .

إننى أتذكر الجلوس في غرفة المعيشة في بيتنا ذى الطابق الواحد، في مساء صيفى في "ماديسون" مع زوجتى "ديانا". الهواء عابق بالروائح العطرة لأشجار منطقة الغرب الأوسط، ومثقل بالرطوبة، وملئ بالفراشات التى تصطدم بالباب السلكى، وطين البعوض المنخفض. "ديانا"، مرتدية بلوزة بيضاء بلا أكمام وبنطالاً قصيراً مموهاً، تمددت على الأريكة وهي ترشّف الشاي المثلج. وأنا، دون قميص، أشغل نفسى بصليب ذهبي يستقر في عشب من شعر الصدر، بينما أتململ في الكرسي الوثير، كى أتجنب الالتصاق بقماش الكرسي. كان صوت الهواء الثقيل الهائج يحيط بنا من كل مكان. "أريد أن أعود إلى سوق العمل" أبلغتها، دون التفكير في أى مكان.

على دخان السجائر الكثيف، كان لنا حديث طويل في تلك الليلة حول أين نريد أن نستمر حياتنا. مغادرة "ويسكونسين" لم تكن ذات أهمية في الواقع، فما سيطر على مناقشتنا هو أين سينتهى بنا الأمر. كانت "ديانا" مرنة ومنفتحة العقل. فما إن أشعر بأن الوقت قد حان للبحث عن وظيفة جديدة أجدها تؤيدنى في ذلك.

"أين تحب أكثر أن تُمنح درجة الأستاذية؟"، سألتني بعد أن قررنا أن أعود إلى سوق العمل في الخريف، وتلك مهمة مستهلكة للوقت.

كنت قد نشرت في ذلك الوقت أول كتيبي، ولديّ اثنان تحت التعاقد في مطابع جامعية. لذلك شعرت أنه يمكنني أن أكون منافسًا على منصب الأستاذ المساعد. فكرت في الاحتمالات المعتادة: "ستانفورد" و"هارفارد" و"كورنيل" و"تورث ويسترن". بالإضافة إلى شهاداتي العلمية العامة، على الرغم من ذلك، كنت أعلم أن الأمر يتطلب ما هو أكثر من الكتب المنشورة لكي تلفت انتباه تلك الجامعات. على أية حال، اتفقنا على أننا سنفضل أن نكون قريبين من والدينا في "فرجينيا"، لذلك فكرت مليًا في قائمة إقليمية لجامعات ممتازة أقل في الأهمية: "ديوك"، "جورجتاون"، "يو في آيه"، "جون هوبكنز".

وكانت جامعة "فرجينيا تك" هي التي رضيت بها في النهاية. لم أكن قد فكرت في "فرجينيا تك" حتى تلك اللحظة. الموافقة بدت وكأنها جاءت من خارج نفسي، ولكن ما إن جاءت لم أستطع أن أهرب منها. "نعم"، استمررت جاعلاً عقلي ممسكاً بالفكرة، "ألا يعد أمرًا رائعًا إذا حصلت على وظيفة في جامعة فرجينيا تك؟".

"نعم، سوف يكون"، استطعت أن أرى "ديانا" تحاول أن تمسك بعقلها حول هذا الاحتمال، متحمسة بقوة للفكرة.

عندما نشر إعلان الوظيفة بالصحف بعد ذلك بشهور قليلة، في سبتمبر، شعرت بالارتياح بأن أجد عددًا من الجامعات البحثية الرصينة توظف أشخاصًا في مجالات اهتمامي. هؤلاء الذين جربوا البحث عن وظيفة في مجال العلوم الإنسانية يعلمون أن المواصفات المعلنة للوظيفة غير جديرة بالثقة. فهذه المواصفات تتضمن عددًا ضخمًا من النصوص الفرعية والمعاني الخفية. لجان البحث التي وضعت هذه المواصفات لديها هي فقط الإحساس الدقيق بمن الذي سيكون أفضل من يلائم

متطلباتهم (وهذا ليس دائماً القضية). المرشحون الذين يصادفون الوظائف التي يحلمون بها على الورق، عندئذ، وفي أحوال كثيرة، يقعون في الحيرة، ويحبطون عندما لا يحصلون حتى على فرصة دخول مقابلات التصفية النهائية. لقد كنت على وعى بتلك الحقيقة. ومع ذلك لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور بالفرحة عندما قرأت في الصحف أن "فرجينيا تك" تطلب أستاذاً مساعداً في الأدب الأمريكي. مواصفات الوظيفة بدت كأنها فصلت خصيصاً على مقياس اهتماماتي العلمية وسجل مطبوعاتي. لقد كانت وظيفة أحلامي. وقررت حينها أنه يجب أن أكون الشخص الذي ستوظفه جامعة "فرجينيا تك".

أرندا "ديانا" وأنا، أن تمضي حياتنا إلى "بلاكسبيرج"⁽¹⁾.

بعد مقابلة شاملة، مُنحتُ، وبالتالي قَبِلْتُ وظيفة أستاذ بقسم اللغة الإنجليزية. لقد صنعت علاقة ثقة بأعضاء لجان البحث، وشعرتُ بالسعادة في حرم الجامعة أثناء زيارتي التي استغرقت يومين في يناير. تَلَقَّيتُ عروض وظائف أخرى، أحدها فكرت فيه بجدية، لكن "ديانا" وأنا قررنا في النهاية أن نعود إلى "أبالاتشيا".

بعد شهر قليلة في الوظيفة، أتممتها مستمتاً أكثر حتى مما أتوقع، كنت في حفل شواء في "ثورث كارولينا"، حيث أحد أصدقاء العائلة لم يصدق أنني أريد أن أكمل مسيرتي العملية في "فرجينيا تك"، في "أبالاتشيا" الريفية - أو أنني يمكنني أن أجد بالفعل أن هذا النوع من العمل وافياً بمتطلباتي. في رأيه، دلّت سعادتِي بـ "فرجينيا تك" على نقص في الطموح. فالخطوة الطبيعية ينبغي أن تكون البحث عن مسار يشمل جامعة "يو إن سي تشابيل هيل" أو جامعة "إيموري"، قبل الاستقرار في النهاية في مكان ما في الشمال الشرقي.

"الأفضل لي أن أنظف الحمامات في "فرجينيا تك" بدلاً من الكدح في القلب النابض للصهيونية الليبرالية"، رددت عليه بطريقة مغالى فيها نوعاً ما.

(1) مدينة تقع في ولاية فرجينيا .

بعد ذلك بشهور قليلة، صادفت موقفاً مشابهاً من ضيوف من أماكن مختلفة. مأخوذين بنظرية مشكوك في صحتها حول سحر "فرجينيا" الشمالية، وألحوا علىّ في السؤال حول خطوتى القادمة في حياتى العملية. ابتسمت قائلاً: "أنتم ترونها الآن!". لقد أخذوا على عاتقهم أن يقنعونى بأننى لن أستطيع - فقط لن أستطيع - أن أقضى حياتى العملية كلها فى "فرجينيا تك". إن مدينة "بلاكسبيرج" صغيرة للغاية، ومنعزلة جداً. وشهرة "فرجينيا تك" صنعت من الهندسة وليس من اللغة الإنجليزية.

أقررت قائلاً: "وأسفاه!". "إننى أكسب أموالاً كافية. وأدرّس بالفصل يومين فى الأسبوع، وأعود إلى المنزل عند الظهر فى هذين اليومين. الجزء الآخر من وظيفتى يتطلب منى أن أعمل ما أحب وما أريد أن أفعله على كل حال، وهو أن أكتب. بدأت أتفاعل فى جو هادئ وجميل مع شبّان أدكياء ومفعمين بالحيوية. إننى أؤكد: "إننى لم أستوعب الأمر أبداً، لكننى مجرد خطوة بعيداً عن منجم الفحم"^(١). لذلك ظللت أنحت فى الصخر، باذلاً أقصى جهدى لأنقضى عبور الخط الذى يفصل بين البرج العاجى والممسحة وزجاجات الأمونيا وصفوف الحمامات القذرة.

اعتراضى على أصدقائى المهتمين بأمرى ليس بسبب إعلانهم النصيحة الجادة وغير المرحب بها منى، بل كان بسبب كيفية تعريفهم للطموح، والذى يبدو أنه ليس أكثر من التكيف مع الأشياء العادية. الناس، والأكاديميون، على وجه التحديد، غالباً ما يبنون أحكامهم المتعلقة بالحياة والعمل على أساس أمور سطحية مثل الشهرة، والتي من المحتمل أن تكون المعيار الأكثر انعداماً للفائدة لأنها لا تستلزم بشكل ضرورى الدقة التحليلية. الاستقرار فى مكان ما عملية معقدة. إننى شخص ودود، لكننى لست مرناً بما يكفى لأستقر فى مكان ما إرضاءً لشخص

(١) كانت مناجم الفحم إحدى الثروات الطبيعية فى أبالاتشيا، حيث تقع الجامعة التى يعمل بها.
(المترجم)

آخر. إننى أرحب بأن يعيش الآخرون مثلهم الخاصة كما يريدون حول ما يشكل الكيفية أو القابلية.

من الواضح أنه لا أحد من هؤلاء الناصحين الحاليين من خريجي جامعة "فرجينيا تك". فخريجو "فرجينيا تك" يميلون إلى الاعتقاد بأن وظيفتى خالية من العيوب، مما يثبت فى النهاية أن جامعة "فرجينيا تك" قدمت لهم تعليماً جيداً .

بالنسبة لرجل "أبالاتشى"، ضجر من الطبوغرافيا المنبسطة، فإن "فرجينيا تك" كانت اختياراً مهنيًا جذاباً. كذلك كان لموقفى القيمة المضافة لحافز أمريكى جوهرى: "الافتداء". ولعدم تمكنى من الدراسة فى جامعة "فرجينيا تك" كطالب، وجدت الأمر مبهجاً أننى قد أجد نفسى فجأة أعمل كأستاذ هناك. وعلى عكس الطرق الأمريكية للافتداء فإن طريقي لم تتطلب أى نوع من العنف. نجحنا "ديانا" وأنا فى التدرّب على الطموح بسلام. فقد تغلبنا على معوقات هائلة من أجل أن نعود أخيراً إلى "بلاكسبيرج". أن نصل إلى "آيفى ليغ"، وهى مدرسة حكومية عريقة وبكل معنى الكلمة، قد يكون أمراً ممكنًا جدًا.

موضوع الطموح متغلغل بأشكال كثيرة فى "فرجينيا تك".

بداية من يوم السادس عشر من إبريل ٢٠٠٧، كان وجود الإرهاب هكذا.

بأشكال عديدة، رغم ذلك، ظل الإرهاب عمدًا لا قيمة له. هذه العبارة لا توهم بتبرير الإرهاب، ولكن تهدف إلى تحديد هوية وجوده، فترك الإرهاب غير محدد الهوية يجعله غائبًا، وبالتالي مفرغًا من معناه. أنا أشير بشكل خاص إلى الخبر السار الذى انتشر بصورة مرضية عن طريق وسائل الإعلام المشتركة بشكل جزئى خلال يوم ١٦ أبريل ٢٠٠٧، معلنا أن المذبحة التى وقعت فى جامعة "فرجينيا تك" ليست عملاً إرهابياً. إنها مجرد مذبحة، أو نوبة قتل، أو قتل جماعى.

عدم تعريف نوبة القتل فى "فرجينيا تك" بأنه عمل إرهابى هو إغفال فعّال، بمعنى أنه إغفال يفعل الكثير من الأشياء. تعريف قتل اثنين وثلاثين شخصًا بريئاً

فى ١٦ إبريل على أنه إرهاب يجب ألا يغير أو يحول دون حقيقة أنه كان مذبحه أيضاً (كلاهنا، على أية حال، التعريف أو عدم التعريف، الأمران يميلان إلى أن يحدثا فى وقت واحد). ومع ذلك الإشارة إلى الحدث بأنه إرهاب قد يضيف إليه معنى. المعانى التى قد يضيفها غير ملائمة سياسياً، ولذلك تم تجنبها.

تصريحات وسائل الإعلام أشارت بصراحة وبأمانة أن عنف "سيونج هوى تشو" لم يكن اندلاعاً للإرهاب، مذيعو الأخبار كانوا يصدقون ما يقولونه، وأعلنوا هذا الخبر دون أى قدر من وضوح المعالم. إذا قرروا أن هياج "تشو" كان إرهاباً، فإنهم فى الوقت نفسه يتخلون عن الإطار الأيديولوجى المستمر الذى يستخدمونه فى التمييز بين الإرهاب وأشكال العنف الأخرى. قرار تصنيف المذبحة على أنها شىء آخر غير الإرهاب كان بسبب ذلك مركباً أخلاقياً، ومحتملاً سياسياً. إذا درسنا الفرضيات المتضمنة فى القرار، سنجد أنه فى العرف الأمريكى يجب أن يكون الإرهاب ملتصقاً بأيدولوجيا معينة . تحديد هذه الأيدولوجيا ليس عملاً محايداً أو طبيعياً. إنه عمل ينشأ من سلسلة من المعارك الجيوسياسية الأمريكية.

وطبقاً لوسائل الإعلام المشتركة، فإن جميع أنواع العنف العربى إرهابية، ولا يهم مصدرها أو مقصدها، ولذلك من المعقول التفكير فيما إذا كان مطلق النار عربياً، فإن هياجه سيعتبر فى الحال إرهاباً. لم يكن " تشو " فارغاً أيدولوجياً، لقد عبر فى الواقع عن أيدولوجيا، وهى أيدولوجيا موجهة بشكل مشوش إلى إدانة "الشباب الأغنياء". إذا أعلن "تشو" أيدولوجيا سياسية أكثر وضوحاً - "الأيدولوجيا المعينة"، التى أشرت إليها سابقاً - عندئذ قد يتغير تفسير العمل الذى قام به، وخاصة إذا ازدرى "تشو" السياسة الأمريكية الخارجية أو أى إله زائف يُستخدم لتحديد مستوى مناسب للوطنية. الخيارات الاصطلاحية فى هذه الحالة تشير إلى الإرهاب الذى يعرف عادة فى الولايات المتحدة مبنياً على وجهة النظر والعرقية، أكثر منهما على الارتكاب الفعلى للعنف غير المبرر، حتى لو كان موجهاً دون تمييز إلى المدنيين.

حتى في غياب رمز أيديولوجي مختزل للإرهاب، فإن بعض المعلقين حاولوا إيجاد رمز عن طريق وضع الإرهاب في منطقة مألوفة، تُدعى "العنصر الإسلامي"، في هذه الحالة، كان هناك توقيع في نشرة موزعة باليد، باسم "إسماعيل إكس"، استخدمه "تسو" في رسالة غير مترابطة، وفيها أيضًا شبه نفسه - أكثر من مرة - بالمسيح عيسى. ولكون "إسماعيل" اسمًا إسلاميًا، فقد جعل نوبة القتل إرهابية بشكل ممكن. أما مقارنة نفسه بالمسيح، فلكونها غير مفيدة أيديولوجيًا، تم تجاهلها بشكل ملزم.

فلنضع هذا كله في الاعتبار. "تسو" كان يفتقر بشكل واضح إلى المعرفة الكافية بكل من "إسماعيل" وهو أحد أبناء "إبراهيم"، أو "عيسى"، وهو أحد أبناء سلالة "إبراهيم". لقد ألّف خطبة طويلة في إحدى حجرات السكن الداخلي الجامعي بين جرائم قتل جماعي مختلفة. وكونها أخذت توقيعًا غامضًا، مشيرًا إلى لا شيء سوى تلميح مضلل لوسائل الإعلام كي تفكر في إمكانية كونه عملاً إرهابيًا، فهذا يخبرنا في الواقع بكل ما نحتاج معرفته حول اعتبارية الحدس وتسييس الرعب. إن القتل العشوائي لاثنتين وثلاثين مدنيًا بريئًا ينبغي أن يكون به ما يكفي لتحذير الناس من إمكانية حدوث الإرهاب.

وبينما نحن في موضوع الإرهاب في جامعة "فرجينيا تك"، فمن المهم أن نلاحظ أنه في أثناء تغطية مذبحه السادس عشر من إبريل، بذلت وسائل الإعلام المشتركة أقصى ما في وسعها لتبرئة كل شيء أمريكي من العنف. لقد سمعت معلقين كثيرين يعلقون بانزعاج على أن عائلة "تسو"، والذين هم مهاجرون كوريون، بدت أنها انصهرت جيدًا جدًا في الولايات المتحدة. كيف، إذن، يمكن لواحد منهم أن يفعل مثل هذا الأمر؟ هذا السؤال يجعل الأمر يبدو كما لو أن العنف غير موجود في الولايات المتحدة، وأن الأمريكي الحقيقي لا يرتكب العنف أبدًا، أو على الأقل ليس العنف غير المبرر. ("تسو" لن يبلغ أبدًا منزلة أن يكون أمريكيًا). أود أن أبين، مع ذلك، إنه بالضبط لأن "تسو" انصهر في المجتمع الأمريكي، فقد

أمكنه أن يفعل ذلك. حوادث إطلاق النار في المدارس، على كل حال، لا تحدث في كوريا الجنوبية. إنها تحدث في الولايات المتحدة.

"ولف بليتز" (1) قام بهذا التلميح في مقابلة أجراها مع "جمال البرغوثي"، وهو طالب أجنبي، أخذًا وقتًا طويلاً في البث المرئي عن طريق الهاتف المحمول، خارج قاعة توريس هول، موقع جريمة القتل الجماعي الأساسي. سأل "بليتز" "البرغوثي" من أين هو، وهو سؤال يعرف "بليتز" إجابته مسبقاً. عندما أجاب "البرغوثي" بقليل من الارتباك: "فلسطين"، طلب منه "بليتز" مناقشة كيف كان العنف مفاجئاً في جامعة "فرجينيا تك" بالنسبة له. كان "بليتز" يتصيد شيئاً معيناً، ومن أجل هذا الشيء "البرغوثي"، ربما دون وعي منه، قدم الشكر: الناس في الشرق الأوسط معتادون على العنف، ولذلك فإن الأمر حتماً كان صادماً وربما مؤذياً كذلك بالنسبة لهم، عندما يصادفون العنف في الولايات المتحدة.

هذا النوع من الأسئلة، والشائع عقب حادث إطلاق النار، يصدر العنف إلى بقية أنحاء العالم. الأكثر أهمية من ذلك أنه يتجاهل دور الولايات المتحدة في ارتكاب وإثارة العنف في أماكن أخرى. إنه نوع من الأسئلة يستخدم التعاطف الظاهري ليخفي مجموعة كبيرة من الافتراضات الشوفينية. يمكننا أن نتظاهر بكل ما أتيح لنا من اعتداد بالنفس من أجل أن ننمى ادعاءنا بأن الأجانب فقط الذين يتصرفون بطرق عنيفة. ويمكننا أيضاً أن نلوم موسيقى "الراب" وألعاب الفيديو "جيم" بسبب تشجيعها للعنف، إلى أن تفرقع أسناننا. في النهاية، مع ذلك، فإن الحقيقة المروعة هي أن الحكومة الأمريكية تؤدي عملاً رائعاً لصالحها بتغذيتها لثقافة العنف في الولايات المتحدة. أخيراً، الأمر يستحق أن نوضح أنه قبل أن يتم تحديد هوية "تشو"، سمعت الآتي من أشخاص أعضاء كثيرين: "أمل ألا يكون عربياً". أو بعد أن تم تحديد هويته: "الحمد لله أنه لم يكن عربياً". ماذا تعني هذه العبارات؟ كيف ستكون المأساة مختلفة لو كان "تشو" عربياً؟

(1) صحفي ومذيع بشبكة CNN. (المترجم)

لا أحد قال هذه العبارة فعل أى شيء أكثر من التعاطف الكامل، معظمهم، فى الحقيقة، كانوا هم أنفسهم عرباً. إليكم التفسير الممكن للعبارة: إذا كان "تسو" عربياً فإن ثقافته ودينه سيستخدمان لتعليل عمله الرهيب. كل العرب عندئذ سيلامون وسيكونون عرضة للعنف، والدعوات إلى الترحيل و/أو السجن فى مراكز الاعتقال السرية العديدة فى الولايات المتحدة. كيف عرفنا ذلك؟ لأن ذلك تماماً ما حدث للأمريكيين العرب بعد 9/11. عندما قال لى الناس: "الحمد لله أنه ليس عربياً"، فقد كانوا فى الواقع يقولون: "الحمد لله أنك لست فى خطر".

هذه الاتجاه لإجمال المجموعات العرقية ينشأ من دوافع عنصرية قوية فى الولايات المتحدة. البيض يمكنهم ارتكاب جرائم كأفراد، لكن الأفارقة، والسكان الأصليين، والآسيويين، والأمريكيين اللاتينيين لا يملكون هذا الخيار. إنهم يرتكبون الجرائم كرمز للانحراف الثقافى. إنهم غير مسموح لهم بالعمل منفردين. كل شيء سيء قد يفعله أحدهم يُستشهد به كدليل على الانحطاط الجماعى. بالنسبة للمجرمين الذين قد يتصادف أن يكونوا مسلمين، لا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر لسلوكهم (إلا إذا كان هذا السلوك مرغوباً).

وهكذا وفرّ "تسو"، بمظهره غير الأمريكى التقليدى، على وسائل الإعلام عناء ممارسة الاستبطان لفحص دوافعه ومشاعره.

مع ذلك يبرز جانب إنسانى بوضوح فى مأساة جامعة "فرجينيا تك"، وأنا لست راغباً فى إغفاله. إن ما حدث فى "فرجينيا تك" فظيع بشكل لا يوصف. إننى أفكر فى فظاعته كشخص كَبُرَ بالقرب من حرم الجامعة. ويربط تاريخ عائلتى حدث الهجرة بالوصول إلى "فرجينيا تك". إن حرم جامعة "فرجينيا تك" ومدينة "بلاكسبيرج" محفوران فى "دى إن إيه DNA" ذاكرتى. لدى ارتباط هائل بالمكان وإحساس عميق بالرعب مما حدث هنا. هذا المكان يربط حياتى فى الولايات المتحدة بأسلافى فى الأردن. ولكن حتى فى لحظات المأساة، فإنه من المهم مواصلة التفكير ملياً فى كيف أن المأساة مُثَلَّت من قِبل أناس مختلفين، بأنصبة مختلفة، وبأشكال مختلفة من التمثيل.

إن ما حدث للطلاب في جامعة "فرجينيا تك" ليس مختلفاً كثيراً جداً عما يحدث بشكل معتاد في العراق وفلسطين. الشيء نفسه موجود بأحاء العالم الأخرى، لكنني أريد أن أركز على العراق وفلسطين باعتبارهما موضع اهتماماتي السياسية. وبلا شك، هناك اختلافات خطيرة بين المذبحة التي وقعت في "بلاكسبيرج" والأشكال المعتادة للعنف التي يعاني منها العراقيون والفلسطينيون. لذلك، عندما أقول أن الاثنين ليسا مختلفين كثيراً جداً، فإنني أتحدث عن مستوى الخوف والرعب الناجمين بشكل روتيني عن العنف في العراق وفلسطين. إنه مستوى مشابه لما عاناه سكان "بلاكسبيرج" للمرة الأولى في السادس عشر من إبريل ٢٠٠٧.

الاختلاف الرئيسي هو أن الناس في فلسطين والعراق ليس لديهم إمكانية الوصول إلى الموارد اللازمة لدخول ساحة جامعة وادعة وثرية. وليس لديهم القدرة على زيارة المستشارين الاجتماعيين الذين يعملون "طوال أربع وعشرين ساعة". إنهم ببساطة لا يمكنهم أن يوقفوا سيارة ويهربوا. إنهم لا يستطيعون أن يكونوا واثقين في وجود نظام أمني فعال. كل هذه الأشياء يجب أن تكون متاحة، وكانت متاحة بالفعل لمجتمع "فرجينيا تك". إنها ضرورية لجميع ضحايا العنف العبيئي، وحقيقة أنها غير متاحة لضحايا العنف العبيئي من العرب تخبرنا بالكثير حول كيف أن التعاطف تكون له الأولوية في الولايات المتحدة.

أريد من الأمريكيين أن يتفهموا العنف الذي يعاني منه الضحايا العرب، بدلاً من التفكير فقط في كيف أن العنف الذي يعانيه العرب يؤثر على المصالح الأمريكية. أريد منهم أن يكون شاعرين بالأسف بسبب أن جنود الاحتلال الإسرائيلي أحياناً ما يطلقون النار على مدارس عربية مليئة بالأطفال الأبرياء. أريد منهم أن يفهموا أن ما حدث في "بلاكسبيرج" يحدث كل يوم في العراق - وأحياناً ثلاث أو أربع مرات في اليوم. وشعب العراق ليس لديه مهرب من هذا الرعب. في يوم السادس عشر من إبريل ٢٠٠٧، قُتل ١٩٢ مدنيًا عراقياً. ما حدث

فى "بلاكسبيرج" صادم ومروّع ومفجع. وهكذا يكون ما يحدث للتلاميذ والمدنيين الفلسطينيين والعراقيين، مع التكرار المُعذّب. بإمكاننا أن ندين مذبحه "بلاكسبيرج" دون ندم أو تكفير عن إثم. يمكننا أن نحزن دون إحساس بالذنب. لكن هذا لا يحدث فى الواقع فيما يخصّ العراق وفلسطين. إننا نُسْتَغَلّ فى مواقع العنف تلك كدافعى ضرائب أمريكيين. ونحن متورطون فيها بعدم مبالاة.

إذا لم تكن مذبحه "فرجينيا تك" قد جعلت تعاطفنا شاملاً العالم كله، عندئذ نكون فقط قد أدينا تطهراً قومياً فى الأسابيع التى تلت للمذبحه. المأسى تخفّ وطأتها عندما تُعلّمنا دروس التحمّل، إنها تتكرر عندما نتعامل معها بسطحية.

فى يوم الأحد التالى لجريمة القتل الجماعى التى نفّذها "تسو"، جاء والداى بسيارتهما إلى "بلاكسبيرج" من "بلوفيلد" لزيارة وتحيّة الحرم الجامعى. وكما أنه أراد أن يعلن تنوّه بمصيبة أو أن يقرّ بالرمزية، صار الطقس بارداً وغائماً فى الأسبوع السابق ليوم السادس عشر من إبريل. الصور الإخبارية ليوم السادس عشر من إبريل أظهرت ندف الثلج تتطلق هنا وهناك فى الريح الهائجة.

هذا اليوم، رغم ذلك، كان جميلاً، وسماؤه زرقاء صافية، ومنسماً إلى حد ما. البراعم كانت فى حالة إزهار جديد. والعشب نما إلى درجة الاكتمال الأخضر. هذا الطقس كان بالفعل رمزياً بشكل واضح.

فى صحبتها أنا و"ديانا"، قضى والداى ساعات قليلة فى الحرم الجامعى، معيدين التواصل مع طيف مائل باستمرار: كمهاجرين طموحين وشابّين، وكوالدين قلقين يتحركان جبهة وذهاباً فى انتظار مولودهما البكر، وكمصوّرين فوتوغرافيين فخورين ومتحمسين فى حفل التخرّج، وكحبيبين ناضجين يهتزان فرحاً بعودة أحد أبنائهما إلى البيت.

جموع من الزوار المحزونين، مرتدين اللونين البرتقالى والأحمر الداكن، كانوا يتجولون بتمهّل حول محيط ميدان التدريب، متوقّفين أمام الملتصقات العديدة

وعبارات الثناء والتقدير والتذكارات المعروضة فى مكان بارز، والكثير منها إهداءات من جامعات من مختلف أنحاء الدولة. يوجد هدوء مرغوب بشدة فى الحرم الجامعى بسبب موقفنا الجماعى المهيّب. كان هناك ارتياح لمعرفةنا، على الأقل فى هذا اليوم، أننا جميعاً معاً. لا أستطيع تحديد ذلك الأمر. فى ذلك اليوم كنا جميعاً معاً ببساطة. إنه نوع من الصداقة الحميمة، والتي أحب أن تكون سائدة. أنا أشعر بالذنب مثل أى شخص آخر على أنها لم تكن موجودة فى الماضى، وسأستمر فى حالة الإحساس بالذنب إن ظلت غائبة فى المستقبل.

كان والداى يدخلان فى المنطقة المجردة للمتقدمين فى العمر، أدركت ذلك. كانت أمى لا تزال جميلة، خاصة فى هذا اليوم، مع ضوء الشمس الذى يضىء جمالاً على بشرة بلون القرفة، والتي أصبحت شاحبة قليلاً نتيجة للعلاج الكيماوى. اللون الأسود السابق هجر شعر والدى الذى لا يزال كثيفاً، لكنه بدأ وقوراً فى مظهره الفضى. كنا يمشيان ببطء أكثر هذه الأيام. إنهما يتعثران دون أن يصطدما بأى شىء. ويستريحان لوقت أطول بعد المشى لمسافات أقصر. لكنهما يمشيان معاً وأيديهما متشابكة. كنا مصدومين بسبب المأساة. إلا أنهما لم يمنعا نفسيهما من أن يكونا سعيدين أيضاً. لا يوجد تناقض فى هذه المشاعر المختلطة : فالمأساة تولّد الاتحاد، والسعادة لا تنشأ سوى من أناس متحابين يلتقون معاً.

"ديانا" وأنا أمسكنا بأيدي بعضنا البعض بإحكام. وأمكنا أن نرى مسار حياتنا، ومستقبلاً واعداء، حيث ينبغى أن نوجّه طموحنا. نعلم جيداً أن حياتنا هذه لا يراد منا أن نعيشها وفقاً لمنطق الحكمة السائدة. فقد تكون هناك سعادة فى خوض المخاطرة العظيمة للبحث عن المألوف. إننا نطمح إلى إعادة تعريف الاحترام على أنه نتيجة لحب الواحد للآخر والبقاء معاً. مكان مثل جامعة " فرجينيا تك " يحدث نوعاً فريداً من الهدوء.

هؤلاء المنتسبون إلى جامعة "فرجينيا تك" والأماكن المشابهة، لا يريدون أن يمعنوا النظر فى أن العنف يمكن أن يعتدى بوقاحة على هدوتنا، ونكون مصدومين

بشكل مبرر عندما يفعل ذلك في الواقع. على كل حال، أماكننا تتواجد داخل مجتمعات عنيفة أكبر، والشباب المضطرب مضطر لأن ينظر إلى ما هو ليس أبعد من عقيدة الحق في الاستيلاء على الشيء قبل الآخرين، والتدخل بالقوة ليعلم الآخرين أن البندقية تظهر الانفعال بطريقة أقوى من الحوار أو الدبلوماسية .

الهدوء الذى يسمح لمكان مثل جامعة "فرجينيا تك" كى يكون مرغوبًا جدًا، يستحق القتال من أجل الحفاظ عليه. إنه يستحق الزيادة. إنه قبل، كل شيء، يستحق أن يُصنَّر. "ديانا" وأنا أصبحنا مضطربين مع المكان فى "بلاكسبيرج"، إنه واقع متعدد المعانى. إن والدى تأثرت عواطفهما بسببنا بقائنا هنا. فقد أصبحنا الامتداد لماضيها فى "فرجينيا تك". لم يستطع "تسو" تقويض هذه العلاقة. لقد ذكرنا - مقابل ثمن باهظ - بأن هدوءنا دائما ما يشارك فى جدلية مع أكثر أشكال الحياة همجية. علينا أن نحاول تذكير أنفسنا بهذه الجدلية من غير بدء المساة .

إننى مرتبط بذكرى تقديمى لطلب العمل إلى قسم اللغة الإنجليزية فى جامعة "فرجينيا" تك. فقد كنت مناسبًا بشكل مثالى لمواصفات الوظيفة، وأخلصت الولاء لمثل أعلى قبل الآن حول هذا المكان الذى وجهت إليه طلبى. تستخدم جامعة "فرجينيا تك" نظامًا إلكترونيًا لتقديم الطلبات. دَخَّنت ثلاث أو أربع سجانر أمام الكمبيوتر، وأنا أدرس وأعيد قراءة ملفات ال-PDF التى تحتوى سيرتى الذاتية وخطاب الغلاف. لم أستطع فى النهاية أن أضغط بسبابتى على "الفأرة" لتوجيه المحسّن إلى زرّ "قدّم الطلب". كنت متأكدًا من أننى سأحقق الأفضلية المذهلة، لكننى كنت عصبياً بسبب مكابرتى الزائفة. فحوارى الداخلى كان يطلب منى أن أؤمن بأشياء مجردة مثل الحظ والقدر، أشياء لست مستعدًا ذهنيًا لأن أفكر فيها بجدية .

خصّصت لزيارة الجامعة بعد ذلك بسنة شهور ساعات أطول مما خصّصته من قبل لأى مقابلة وظيفية. لم يعد القضاء والقدر أمرًا يشغلنى. فبمجرد أن يعطونى فرصة العمل، سأكافح لكى أنجح بفضل جدارتى الخاصة. كما أننى لست مهينًا عقليًا للفشل.

"ديانا" وأنا خططنا جيدًا للانتقال إلى "بلاكسبيرج". عندما قبلت رسميًا وظيفة أستاذ في جامعة "فرجينيا تك"، اتصلنا بوالديّ في جنوب "فرجينيا"، من أجل أن نربط الوقت في الحال بما هو مخصص له. بعد ذلك اتصلنا بوالديّ "ديانا" في شمال فرجينيا "من أجل أن نربط في الحال المكان بمهمته الزمنية. وعلى مدى الشهور القليلة التالية انتقلنا من "ويسكونسين" بسهولة. كنا عائدین إلى موطننا. وهذه الخطوة كانت مريحة.

لم يتخيل أحد منا أن عامنا الأول سوف يُمیز بجرائم قتل جماعي مختلفة. لا أحد منا، مع ذلك، عديم الخبرة إلى الحد الذي يمكن أن يصدق فيه أن العنف بدنيّ فقط. لقد فوجئنا، آنئذ، بمعنى الملاقاة من غير توقّع. العنف في حد ذاته هو شيء ما ينتشر في أرجاء الولايات المتحدة، حتى في الأماكن الخالية من الأسلحة النارية والعبقة بالإيمان بدلاً من ذلك.

كانت نوبة القتل في السادس عشر من إبريل ٢٠٠٧ شكلاً طموحاً من أشكال الإرهاب، لكنه ليس عنيفاً بشكل استثنائي. في جامعة "فرجينيا تك" واجه الإرهاب أنواعاً أخرى من الطموح، البعض متعاطفون مع المتشابهين معهم، والآخرين متعصبون لعرقيتهم. لقد حدث هذا من قبل، بطرق كثيرة جداً، في أماكن كثيرة جداً. وقد حدث مرة أخرى، في مكاناً ما، وبطريقة ما، حتى عندما توقفنا، والداي و"ديانا" وأنا عن الابتسام، في يوم ربيعيّ متألّق، وحلّلنا أصابعنا المتشابكة، ومشيئاً فوق دقات الدم الجافة الملتصقة برصيف قديم.

هل جاكاس لا يمكن تحريره ؟

واحد من الجوانب الأكثر روعة لكونك أستاذًا هو أن تمتلك الفرصة كي تشارك في المناقشة الشاملة مع الطلاب نافذى البصيرة والأذكىاء. والشئ الأكثر إمتاعًا في هذه المناقشات يتلخص في تصوير العرب في الثقافة الشعبية الأمريكية، والذي أعتقد أنه سلبي بشكل لا يمكن تيريره.

ليس صعبًا أن تأتي بمجموعة من الناس ذوى اتجاهات سياسية متنوعة، لكي يتفقوا على أن العرب لا يصورون بشكل إيجابى فى السينما وفى التلفزيون. إنها كلمة "بشكل غير مبرر" التى تسبب الجدل المثير. العديد من طلابي، عاكسين وجهة نظر معظم المعلقين المحترفين، يعتقدون أن العرب يُصوِّرون بشكل سلبي لأنهم يستحقون أن يصوِّروا بهذه الطريقة.

يمكننى أن أفهم الأساس المنطقى لوجهة النظر هذه، ولكننى مع ذلك أجدها مشكوكًا فيها. إن تصوير العرب على أنهم إرهابيون ومتعصبون أو مشبهون عاديون أمر غير مبرر، ليس لأن العرب لا يتصرفون أبدًا بشكل سلبي، ولكن لأن تلك هى الطريقة الوحيدة التى تصوِّر بها السينما والتلفزيون الأمريكان العرب. وفى حد ذاتها، الصور تلمح بشكل إجمالى إلى أن العرب غير قادرين على الإسهام بشئ فى المجتمع الأمريكى سوى العنف أو الغباء .

لذلك، عندما يقول لى أحد ما، "كيف للأفلام المتعلقة ب- 9/11 ألا تصوِّر العرب على أنهم إرهابيون؟"، فإننى أجيب موضحًا أن 9/11 ليس هو الخلفية الوحيدة التى يمكن أن تصوِّر عليها العرب. العرب يمكنهم أن يصوِّروا كأطباء وطلاب علم ورجال شرطة وعلماء وعمال بناء وآباء مخلصين ومواطنين ملتزمين بالقانون. فى الواقع، يوجد الكثيرون جدًا من هذه النوعية من العرب فى العالم أكثر من إرهابيى 9/11 الأربع والعشرين.

الهدف، بمعنى آخر، هو ليس أن نضع مختطفين إيرلنديين أو يابانيين في الطائرات في الأفلام السينمائية المنتجة حول ٩/١١. الهدف هو أن العرب ليسوا في حاجة إلى أن يُحصروا في هذه الطائرات، لأنها في النهاية أشياء خيالية تُوظف من خلال قصة لا يهتم ادعاؤهم كثيرًا بأنها واقعية.

ل- "هوليوود" تاريخ يشع في اختزال العرب إلى أغياء وأوغاد. الوسائل الحديث للعنصرية ضد العرب مثل أفلام : 24 , Hidalgo , Jag , Fahreheit 911 ، ومجموعة كبيرة من الإعلانات التجارية التي لها سابقاتها في تلك الكلاسيكات مثل: " Black Sunday , Sirroco , Follow That Camel ، ومعظم أعمال تشاك نوريس^(١).

شخصية العربي المخادع لها حضور في السينما الأمريكية منذ اختراع السينما.

حجة أن أعمال العنف العربي تثبت هذه الصور، هي حجة عرضية وغير وافية من الناحية الخطابية. إنها حجة مشكوك فيها أيضًا: الأمريكيون البيض يرتكبون الإرهاب، لكن الأمريكيين البيض يصورون دائمًا على أنهم مسالمون.

على العكس، فإن العرب يقضون كل يوم غير مرتكبين للإرهاب، لكنهم نادرًا ما يصورون على أنهم مسالمون.

على كل حال، نحن لا نتحدث عن حقائق جيوسياسية. نحن نتحدث عن التصوير، الذي ليس هو الشيء نفسه كما في الواقع. التصوير، مهما يكن، الذي غالبًا ما يخلط بالواقع، منتجًا ما يسميه المنظرّون الأدبيون الصورة الزائفة، وهي واقع زائف أو بديل. وفي واقع "هوليوود" الزائف لا يُسمح للعرب بأن يكونوا أي شيء غير إرهابيين، وهو وضع يجعلهم نماذج قاسية للعنف وفاعلين له ليس أكثر.

(١) تشاك نوريس (١٩٤٠ - ..) ممثل سينمائي وتلفزيوني أمريكي شهير (المترجم)

لذلك عندما يحتج الناس بأن ذلك كافٍ تمامًا لإعادة اختراع الإرهابى العربى باستمرار، فإنهم يوظفون حجة تعتمد على واقع زائف لمنطق معيب غامض: العرب يُعتبرون نماذج للعنف ليس بسبب أنهم يرتكبون الإرهاب بأعداد متفاوتة، وإنما لأنهم يُصوِّرون بشكل غير متناسب على أنهم إرهابيون. التصوير، بمعنى آخر، يصنع الواقع الزائف الذى يشير إليه الناس بعد ذلك على أنه حقيقى.

إننى دائماً ما أوحى للطلاب بأننى، العربى الأمريكى الذى لم يرتكب العنف مطلقاً، يجب أن أكون متيقناً من أن تصوير العرب بشكل مطلق على أنهم إرهابيون شىء غير مبرر أخلاقياً وعملياً على السواء. بهذه الطريقة، فإن طلابى الذين يصادفون على مدى حياتهم عرب الثقافة الشعبية فقط، يكون لديهم المدخل إلى واقع الحياة العربية الذى تم تعتيمة بواسطة التصوير السلبي.

أود أن أوضح أن هذه المواجهة بطريقة ما تخفف من عملية القولية الفظيعة للعرب والمسلمين فى الولايات المتحدة اليوم. بطريقة ما، أنا متأكد أنها تفعل ذلك. ولكن مرة أخرى إذن، لم أكن أبداً فى فيلم سينمائى.

نموذج بغيض لهذه القضايا يمكن أن يوجد فى "الغبى Jackass"، وهو سلسلة أفلام تليفزيونية تصور رجالاً يقومون بالأعمال البهلوانية، يعملون بأقصى جهد ليثبتوا أهليتهم باللقب الذى أطلقوه على أنفسهم. فىلما "جاكاس" الاثنان أبرزاء، كما هى صفة هذا النوع من الكتابة، مجموعة من الشباب يتزعمهم "جونى نوكسفيل"، وهم يمثلون أدوار بهلوانات عديدين أو يلقون بالنكات أحدهم على الآخر، مع الغرض الظاهر لإحداث ألم مقنن نوعاً ما. إن "جاكاس" خليع وفتح ومتنافر وسخيف وثقيل .

إننى أعتبر نفسى معجباً بالمسلسل.

أفهم أنه لأننى لست ولذا له إخوة، نمطى وغير مشوش، أو سنّى ثلاثة عشر عاماً ولا يفترض أن أستمتع بـ "جاكاس"، ولكن رغم الغرابة المنطقية، فقد

استمتعت به. إننى أستاذ جامعى يرتدى معطفًا رياضياً، به رقع كوع بيضاوية الشكل، ومجازفته الكبرى هى ركوب الدراجة مارًا بثلاث ساحات كبيرة حتى "ستارباكس" بدون خوذة، لذلك أتخيل على بعض المستويات أننى أجد شيئاً ما رائعاً، أو ربما مثيراً للحسد فيما يخص الناس الشجعان بما يكفى لأن يُخضعوا أنفسهم لألم خيالى ومخاطرة بدنية. (أحد المهرجين يورط ثلاثة " أغبياء jackasses" يقفون أشباه عراة أمام سلاح يطلق فى انفجار واحد وابلأ من الطلقات الفولاذية المغطاة بالمطاط. لقد فوجئوا ببقع أرجوانية اللون، بصلية الشكل على أرجلهم وبطنهم، فى الوقت نفسه أنا أرتعد من فكرة قطع الورق - الموضوع الذى، بالمصادفة، يخص مهرجاً آخر).

إعجابى بالمسلسل، مع ذلك، يذهب إلى ما هو أبعد من الحسد الضمنى أو اكتشاف أنانية "أنا" أخرى. وأعتقد كذلك أن "الغبى Jackass" قد حقق دون قصد مستوى من السخرية اللاذعة. هذه النقاط، لكى نكون متأكدين قليلة، وبعيدة عن بعضها البعض، لأن المسلسل يبقى عادة محصوراً فى السلوكيات الغريبة التى تشمل نوعاً ما من الإيلاج الشرجى، أو شكلاً آخر من اللواط المكبوت بالكاد. وإذا كان تصورى للسخرية اللاذعة العرضية كشيء غير مقصود يبدو غير كريم، فإن ذلك فقط بسبب أن طاقم مسلسل "Jackass" مهتم بتقويض التقاليد الاجتماعية، وليس مجرد السخرية اللاذعة. السخرية اللاذعة تحدث عندما يؤدى تقويض القيم الاجتماعية ليس فقط إلى العبث المادى ولكن أيضاً إلى نقد واضح للعبث بالتقاليد.

فى فيلم "الغبى Jackass" الأول، على سبيل المثال، اختبأ "توكسفيل" ورفاقه فى دغل من أشجار الصنوبر وأطلقوا نفيراً هوائياً - من النوع الذى يستخدم فى الأحداث الرياضية. مماثل للضوضاء التى تحدث عن معدة جرد ذات ثمانى عشرة عجلة - بينما يضرب لاعبو الجولف الأغنياء كرتهم بقوة. لاعبو الجولف، بشكل متوقّع يصبحون مغتاظين. وفى النهاية يقذف أحدهم "توكسفيل" الضاحك بعضا الجولف.

لن أناقش أن هذا المسلسل الهزلي هو سخريّة، ولكني أعتقد أنه يحتوي على عناصر ساخرة انتقادية إلى تلك الدرجة، لأنه يقوّض تمامًا كلمة "دمائة الخلق" المحفوظة بصرامة في ثقافة الجولف الخاصة بالطبقة العليا. "نوكسفيل" البربري (المدعى) ونظراؤه الوحشيون يقمّون أنفسهم في مكان استثنائي وكرهه. وبدورهم يظهرون اعتمادهم على تلك الاستثنائية من أجل الحفاظ على منزلة زائفة، كما تفعل كل المجتمعات المتحفظة على مدى التاريخ. يقصد من الاستثنائية الإعلان عن الهيبة، لكنها في الواقع تحجب وتصون فقط صورة ذاتية مضلّلة. السخريّة هي أنه بسبب المكاسب السينمائية من هؤلاء المهرجين (وبسبب بياضه الواضح) استطاع "نوكسفيل" بالفعل أن ينتهك الشخصية، ويحصل على حق الدخول المشروع إلى هذا المكان الحصري. وكونه اختار أن يدخله بشكل سرّي، فهذا يضيف بعدًا مركّبًا للملهاة.

هل يشير هذا المثال إلى أن هناك شيئًا ما يمكن إصلاحه فيما يتعلق بملهاة "جاكاس"؟ أشك في ذلك. إنه يعني ببساطة أن هناك شيئًا ما ممتعًا فيما يخصه، حتى من السكان المكونين من أناس وقورين وحذرين بشكل مفرط.

القصة الهزلية القصيرة البالغة ذروتها في "جاكاس رقم ٢" تجعل الفيلم من لحظة إلى لحظة مثالاً لقضايا التصوير النظير للعرب. تحت عنوان "تاكسي الإرهاب" تتضمن التمثيلية مزحة مزدوجة مستهدفة واحدًا من الأغبياء (jakasses)، "إهرين ماكجيهاي"، الذي يُخدع باعتقاده أنه يقوم بالتندر على أحد الأجانب.

"ماكجيهاي" يعتقد أنه سينفذ حيلة مثيرة على سائق تاكسي عابر بالصدفة والذي سوف ينقله إلى مطار "بيربانك". كان "ماكجيهاي" يخطط للتسلل إلى سائق التاكسي الذي هو على وشك أن يرتكب عملاً إرهابياً. سائق التاكسي، مع ذلك، هو ممثل، والمزحة ستكون على "ماكجيهاي".

القصة الهزلية هي سيناريو أكثر من كونها طرح عروض "جاكاس" النمطية، وتشتمل على قدر معقول من التخطيط. "ماكجيهاي"، قبل كل شيء، يحتاج إلى أن يبدو كإرهابي، وهي النقطة التي يبدأ عندها التقييم العرقي في العمل الدخول إلى حيز التنفيذ. ومن أجل إنجاز هذا الهدف، تم تزويده بـ "كوفية" حمراء، وصندل، وثوب أبيض فضفاض، وحزام ديناميت مقلد، ولحية مستعارة - هذا هو "جاكاس" مع كل ذلك - مصنوعة دون علمه من شعر عانات الأعضاء الآخرين بالفرقة. وهو أيضًا يستخدم طريقة نطق مصطنعة تبدو أكثر مثل حوار "هوليوود" الإنجليزي العربي المفتعل من كونها إنجليزية حقيقية مستعملة كلغة ثانية من قبل متحدثين من العالم العربي. هذه اللهجة مضاف إليها التشويق والترديد الفارغان اللذان يميزان الصوت العربي في وسائل الإعلام الأمريكية.

من البداية، هؤلاء المتورطون في التخطيط للمزحة يبدون متوافقين مع نوع الخيال الذي يوظفونه. "لا تخبر (سائق التاكسي) بأنك من أي بلد معين"، يحث عضو الفرقة "بريستون لاسي" "ماكجيهاي". وليس واضحًا لماذا يوجه "لاسي" هذا التحذير. ربما من أجل أن يقتصر شحنًا عنصرًا ممكنًا، أو ربما لكي يُشرب "ماكجيهاي" بدرجة أكبر بالتنبه للتدقيق المطلوب من أجل مهمته. ومهما كان السبب، فإن ذلك يدل على فهم للكلمات والأفكار بالغة الدقة. "إنه مصنوع بدون براعة، لكنه عظيم" قالها عضو آخر بالفريق، منغمًا صوته، وهو "بام مارجيرا". مرة أخرى فإنه غير واضح ما إذا كان "مارجيرا" يشير إلى حقيقة أن "الأغبياء jackasses" موثكون على أن يأكلوا لحم أحدهم بمزحة قذرة إلى أبعد الحدود، أو ما إذا كان يشير إلى نوع الخيال الذي تستخدمه المزحة. مهما يكن، العبارة تدل على وعي بالمادة بالغة الدقة مفتقد في الحيل الأخرى.

السبب في أن عبارات "لاسي" و"مارجيرا" ينبغي أن يتم فهمها على أنها أكثر من مجرد ملاحظات بلا فائدة، هو إنكار مواكب بيديه "مارجيرا" عندما يلبسون "ماكجيهاي" على أنه عربي. يشرح قائلًا: "إننا نجعلك تبدو مثل ما نعتقد أن هذا

الرجل (سائق التاكسي) يتوقع الإرهابى كيف يبدو. نحن لا نسخر من أى شخص. نحن فقط نحاول مجرد ترويع سائق التاكسي".

حجة "أنا لا نسخر من أى أحد" مشكوك فيها، وفي الوقت نفسه فيها مبالغة. "الأغبياء" يمثلون القصة الهزلية بدقة من أجل أن يسخروا من الناس. "لاسى" كان يلح إلى أن هدف المزحة ليس السخرية من العرب، أو حتى تكوين فكرة غير حقيقية عنهم". إن هدف المزحة بدلاً من ذلك هو جعل "ماكجيهاى" خائفاً بشدة، وإقناعه بأن يتقياً أمام الكاميرا عندما يكتشف أن لديه شعر عانة مؤلف من عناصر مختلفة ملتصق بوجهه. "الأغبياء" ينشرون صورة مهينة للعرب فقط كخلفية درامية لعقدة القصة الهزلية، والتي تسمح ل- "لاسى" بأن يعتقد أنهم لا يسخرون بالفعل من العرب، مع أنه، رغم كل شيء، ليبرالى أكثر مما ينبغى فى حكمه على نواياهم.

بالنسبة لدوره، فإن "ماكجيهاى" مناسب للدور بنشدته بالتصريحات البلهاء، مثل "أنا لا أحب هذا البلد، لكننى أحب النهود"، من الكرسى الخلفى لسيارة التاكسي، وتغيمه تلقائياً لكلمة "يوم" (1) كما لو كان مبرمجاً جينياً من أجل الإرهاب. هذا التصوير يلخص فى الغالب كيف يُوظف العربى فى السينما الأمريكية، على الأقل "جاكاس" يُسوّق ككوميديا، ولا يمتلك إطلاقاً أى ادعاء بالجودة أو عمق الرؤية، كما يفعل العديد من الأفلام التى تصور العرب تماماً كما يصورهم "تاكسي الإرهاب" (أفلام مثل: أكاذيب حقيقية True Lies والحصار The Siege).

فى الواقع، أنا لا أعتقد أن "الأغبياء" يحاولون بالفعل السخرية من العرب جميعاً، بوصفهم مجموعة عرقية أو ثقافية. فالمسلسل التليفزيونى ضد الجماعية بشكل عميق، فى الحقيقة، باعتماده على أفعال الشجاعة الفردية (أو الغباء) من أجل

(1) صوت دوى الانفجار. (المترجم)

إحداث التسلية المحايدة. "الأغبياء" يحاولون بوضوح أن يسخروا من صديقهم "ماكجيهاي"، لكن الحيل الغربية لهذه المحاولة النوعية احتاجت إلى وجود إرهابي مصطنع لكنه واقعي.

وهكذا يكون غرس الاتجاهات السياسية الثقافية في "جكاس".

من أجل عمل محاكاة لإرهابي حقيقي، اضطر "الأغبياء" لاستحداث مظهر مختلق. وقد استعملوا بدورهم جميع الملامح الملحوظة للسياة العربية مثلما كانت مشهورة في الثقافة الشعبية، وجاءت بشكل أكثر تأثيراً لكي تشير إلى وجود شخص إرهابي. هذه الملامح مناسبة لأي ادعاء بأن "هوليود" تصور بشكل غير مبرر العرب على أنهم إرهابيون، لأنها تكرر عينا أساسياً: الإرهابيون الحقيقيون والذين يكونون عرباً لا يرتدون ملابس مثل ملابس العرب: لأنهم ببساطة عرب. إن تلك الأفلام تحس بحاجتها إلى تصوير الزي الرمزي إلى وضع عرقي، لكي تبرز الاستعداد الثقافي الذي يجعل المشروع الكامل لمساواة العرب بالإرهاب عرضياً ومختلقاً في الأساس.

إنه بهذه الطريقة تسير الأمور: قل هذا بالنسبة لعيد "الهالوين" إنك تريد أن ترتدي زي الإرهابي. ما نوع التكر الذي ستطلبه؟ إذا أجبت بأنك ستطلب الزي الغريب الذي ربما يمثل باتقان قاعة اجتماعات مجلس الإدارة الرئيسية، فاعتبر نفسك مستتيراً، ولكن تماماً ضمن أقلية سياسية صغيرة جداً. اعتبر كذلك أن لا أحد من ضيوف الحفلة الآخرين سيعتبرك إرهابياً.

الجزء الأكثر إثارة للأسف في "تاكسي الإرهاب" هو أنه إلى حد ما "الأغبياء" على حق: فإذا أرادوا تعظيم إمكانية مزحة ناجحة باستخدام زي يقصد منه الرمز إلى إرهابي، عندئذ لن يكون أمامهم خيار باستثناء استحضار زي عربي نمطي. إن مناقشتنا الأخلاقية يجب ألا تركز فقط على استخدام الزي، ولكن أيضاً على إنتاج التمثيلية الهزلية ذاتها، لأن "الأغبياء" من الناحية الاستراتيجية

استجابوا ببساطة للقوانين الثقافية المألوفة لديهم. تلك القوانين الثقافية تملئ عليهم أن الإرهابيين خير من يمثلهم هم العرب، لأن العرب لديهم احتكار للإرهاب.

هذه الحقيقة هي انعكاس رديء جدًا ليس فقط لهوليوود ولكن أيضًا للسياسات الأمريكية الرامية لتصوير العرب بشكل إجمالي. فالخطاب الحكومي فيما يخص العرقية والإرهاب متورط بشكل أساسي في هذه السياسات. بهذه الطريقة يضرب "جاكاس" مثلاً لأمة ما عن طريق أشخاص رمزيين.

"تاكسي العرب" قد يكون أفضل كثيرًا كمزحة إذا لم يكن سائق التاكسي حاضرًا في التمثيلية الهزلية - بمعنى آخر إذا ارتدى "ماكجيهاي" ببساطة زيّ العربى لكي يخيف ضحية مجهولة. على افتراض الحساسية فيما يتعلق بالإرهاب فى الولايات المتحدة، فقد يبدو من المستحيل تقريبًا تنفيذ ذلك النوع من العمل البطولى المثير الذى يعتقد "ماكجيهاي" أنه يقوم بتنفيذه. من وجهة النظر هذه، فإن "الأغبياء" متورطون فى زيادة العنصرية ضد العرب من خلال مساواة الصورة الشرق الأوسطية بالإرهاب، لأنهم استطاعوا أن يؤدوا جميع الدعايات المقززة ضد "ماكجيهاي" بدون استخدام تلك الصورة. باستخدام الإرهاب كملح رئيسى للمزحة فإن "الأغبياء" يكونون قد سلموا أنفسهم للحاجة إلى الصورة العنصرية، كمنتج إضافى لقوانين ثقافية معينة، حتى لو لم تكن المزحة بالضرورة تقرأ بأخلاقية تلك القوانين.

حتى لو استمر "جاكاس"، وبالتالي أعاد إنتاج هذه القوانين الثقافية، فإنه سيكون المؤسسة الترفيهية الوحيدة التى أعرف أنها تعترف بأنها تنشر الآراء الشائعة، وتفصل نفسها بوعى عن هذه الآراء الشائعة، المتزامنة مع نشرها لها. وهكذا فإن "الأغبياء" السياسيين وغير الناضجين بشكل واضح أكثر حساسية تجاه العنصرية ضد العرب من نماذج المجتمع الراقى، المفترض كونها سامية المبادئ مثل "جبرى بروكهايمر" و"جويل سيرنو" و"آن هندبرج" و"أرنولد شوارزينجر" و"أهارون سوركين". ومما يثير الاهتمام، ما يوضحه "تيم جون سمرلنج" فى كتابه

الممتاز "الشر"، العرب في السينما الشعبية الأمريكية: الخوف الشرقي"، فإن كياناً ثقافياً شعبياً آخر مشكوكٌ في صدق تعليقاته التصويرية المبتذلة، هو المسلسل التلفزيوني الداعر المماثل، "ساوث بارك" "South Park".

كون مسلسلي "جاكاس" و"ساوث بارك" المنحطين ثقافياً يبدوان على وعى بمدى سخافة الرمز العرقي كمرجع سياسي، فهذا يخبرنا بشيء ما حول قدرة الفن الذي يسمى نفسه ثقافة راقية على أن يوجّه رقبته الخاص من أجل أن ينشر العنصرية المتوطنة .

أعتقد أنه، كمنهجية، مسلسل "جاكاس" له ما يبرره. في أي سياق، رغم ذلك، يمكن أن يكون مبرراً؟

إنه مبرر لأنه له حقّ في أن يذاع على الهواء. إنه مبرر لأنه على الرغم من أنه مبتذل وصيباني، فإنه قلماً يكون عدوانياً. (الشيء نفسه لا يمكن قوله فيما يتعلّق بالعديد من نظرائه الأكثر تهذيباً على الشاشة الكبيرة). إنه مبرر لأنه يسدّ فجوة في سوق الثقافة الشعبية.

وكذلك، نعم، إنه مبرر من ناحية القيمة الترفيهية. فمسلسل "جاكاس" مضحك بشكل عجيب.

السؤال الأكثر إثارة يتعلّق بمحتوى المسلسل: هل التمثيلية الهزلية "تاكسي الإرهاب" "Terror Taxi" كانت مبررة؟

إنني أعتبر نفسي متأثراً بانتشار الصورة السلبية سواء كانت بشكل ماكر أو بصراحة في الأفلام السينمائية وعلى شاشة التلفزيون. مع وضع هذا التوصيف في الاعتبار، أودّ أن أضيف ملاحظة وهي إنني لا أرى أن "تاكسي الرعب" عدوانياً بشكل خاص. (هذه الملاحظة ينبغي ألا يُساء فهمها من أجل الادعاء بأن "تاكسي الإرهاب" غير مسيء للعرب الأمريكيين). إنني بالفعل أرى التمثيلية الهزلية

مزعجة بشكل واضح، لكننى ألقى بمعظم اللوم على النماذج الثقافية الموجودة والتي تأثر بها "الأغبياء" Jakasses " فقط لا غير.

على أرض الواقع، فإن المساواة الدرامية للعرب بالإرهاب مألوفة جدًا لدرجة أن الأغلبية الساحقة من مشاهدي الجزء الثاني من مسلسل "جاكاس" من المحتمل ألا يفكروا حتى في الظروف التي يمكن أن يحدث فيها التهديد الإرهابي. إن "تاكسي الإرهاب" بالتالي ذو دلالة على الأدوات السينمائية والسياسية التي من خلالها يُستغل الإرهاب على نحو واسع من خلال الرموز العرقية التي تحاكي الثقافة العربية.

إن هذا كافٍ لأن يجعلنى أفكر مليًا بطريقة أكثر مباشرة.

ربما ينبغي أن أترك عادة الكتابة هذه وأذهب للاستماع إلى ومشاهدة بعض الأفلام. فيلم "جاكاس" يبدو أنه يحتاج إلى قليل من التدريب الدرامي. وإننى متأكد إنه واحد من التراخيص السينمائية القليلة التي لا تتورط في التفرقة العنصرية. سوف أراهن على أن "جونى نوكسيفيل" قد يكون متأثرًا فقط بشخص رياضى منتهور يرتدى معطف قتاليًا ويقود دراجته أحيانًا دون أن يضع خوذة على رأسه .

مخاطر ومكاسب أداء عمل مقارن

لقد دُرِّبَتْ أكاديميًا كمتخصص في الثقافة القومية الأمريكية، وهو مصطلح أجده غير جذاب، وعلى الرغم من أن المصطلح ليس له تأثير كبير هذه الأيام في مجال الدراسات القومية الأمريكية (أو في الأسماء العديدة الأخرى التي تتأثر بها الدراسات الأمريكية أو تكون مرتبطة بها: الدراسات الأمريكية الهندية، الدراسات القومية، الدراسات الخاصة بأهل البلاد الأصليين، الدراسات المقارنة الخاصة بأهل البلاد الأصليين، دراسات العالم الرابع). أجد المصطلح غير جذاب لأنه يشير إلى نوع من الملكية التي ليس لدى أى باحث حق في ادعائها إما فكريًا أو أخلاقيًا. الأشخاص المنتمون في الدراسات الخاصة بأهل البلاد الأصليين، كما أفضل أن أسميها، يميلون إلى التطابق مع الرؤى الشاملة للعالم والحياة، بدلاً من مواقع السلطة الفعلية أو المؤسسية. المجال يحتاج بحق إلى هذا النوع من التوجيه هذه الأيام.

الشيء الأكثر جاذبية فيما يتعلّق بالعمل في مجال الدراسات الخاصة بأهل البلاد الأصليين هو القدرة على التفاعل مع الشعوب الأصلية في كل مكان، الناس الذين ينتمون إلى مجموعات عرقية وثقافية لا حصر لها، والذين برغم ذلك يلتقون حول مجموعة من الطموحات العادية ووعى عام معتاد على العدالة الشاملة. إنه مجال متركز ليس على الوضع بل على العلاقات. وهناك استثناءات، بالطبع، وهناك النطاق العادي للذوق والأسلوب الفرديين والجغرافيين. إننى أتحدث عن الروح المميزة للمجال، التي تطورت إلى وضع للاختصاصات المتعددة موجه من قبل المجتمع بحماس. فى مايو ٢٠٠٧، وانتنى فرصة الحضور بجامعة " أوكلاهوما " للملتقى الأول للباحثين المهتمين بتكوين رابطة علمية للدراسات الخاصة بأهل البلاد الأصليين. كان الاجتماع مفعماً بالنشاط وغطى بتفصيل شديد هذا المفهوم الخاص بتوجيه المجتمع. معاً وفى آن واحد، لم يستغرق الاجتماع وقتاً

طويلاً فيما يتعلق بالسكان الأمريكيين الأصليين والماوريين (١) وأهل البلاد الأصليين، وسكان هاواي، وشعب الإسكيمو للتعبير عن نظام أخلاقي للمسئولية إزاء دراسة الشعوب الأصلية .

خاصية أخرى جذابة في العمل بالدراسات الخاصة بالسكان الأصليين هي الحضور المنهجي لتلك الأخلاقيات. كثير من الناس - "ليندا توهيواي سميث"، "أليس تى بونجا سومرفيل"، "توينوى سيلفا"، "يل تيرنر"، "أتريا سميث"، وآخرون كثيرون - يفكرون ويستفيدون، بتنوع مفعم بالحيوية، من الابتكارات المنهجية المرتبطة بالطرق التقليدية للمعرفة والوجود. قسم كبير من هذه الابتكارات يدور حول اعتباره المقصود من تصريف العمل من خلال وبواسطة المنهجيات الجماعية والمقاومة للاستعمار. مهما يكن الأسلوب أو الحجة التي يقدمها كل كاتب أو منظر، فإن منظومة المبادئ الأخلاقية المستنتجة من خلال مجال البحث هي أن الدراسة الفردية أو المستقلة لن تقدم شيئاً للدراسات الخاصة بالسكان الأصليين. هذه المنظومة الأخلاقية تمثل تطوراً مثيراً في الميدان الأكاديمي لأنها تعمل ضد منظومة قيم تكافئ الشهرة الأدائية، وتحرم الاستقصاء من المجتمعات، مما يحول دون أى مسئولية باقية لها فيما وراء مجموعة الأخلاقيات التي تحكم البحث المعنى بالبشر، والذي يحاول حماية الناس من أن يتم استغلالهم. إن حماية الناس من الاستغلال لا تشبه بالضرورة ممارسة مسئولية جماعية.

بدأت عزوتي للعمل المقارن، مثلما يجب أن تبدأ جميع تلك الغزوات، بنزهة خلوية. تصورت أنني إذا أردت أن أدرس الأدب القومي فمن الأفضل أن آخذ نفسي إلى إقليم الهنود الحمر، وهو مكان كنت محظوظاً أن أقمت فيه لمدة سبع سنوات. ولأننى عدت إلى منطقة في "فرجينيا" لا تشبه تماماً إقليم الهنود الحمر، تمكنت من أن أعيد زيارة أماكن السكان الأصليين لمرات قليلة. وكلما أفعل ذلك، كنت أعامل بحفاوة أكثر، مع اندهاش أقل بحسن الضيافة والكرم الهائلين اللذين

(١) هم سكان نيوزيلندا الأصليون. (المترجم)

ألقاهما. إقليم الهنود الحمر هو بمثابة مرجع مثالي، يشير إلى كل من الجغرافيا والرؤية الشاملة للعالم والحياة الإنسانية على حد سواء، لكن لا ينبغي أن ننسى أبداً أنه أيضاً موطن مادي ملموس يمتد اتساعه في أمريكا الشمالية والجنوبية. هناك شيء ما حقيقى بشكل مذهل فيما يتعلق بإقليم الهنود الحمر الذى يندمج واقعه مع الروح والمعرفة. إقليم الهنود الحمر، بمعنى آخر، لا يمثل وجود السكان الأصليين فقط. بل يمثل أيضاً استمرارية الأسلاف.

عندما بدأت عملى المقارن، كان التفكير فى طرق لوضع إقليم الهنود الحمر فى حالة انتقال عملاً طموحاً. لقد واجهت التحديات ذاتها عندما فكرت فى أفضل طريقة لتقديم رحالى فلسطين. (فلسطين، بالمناسبة، تحتل موقعاً جغرافياً وفكرياً مشابهاً لإقليم الهنود الحمر، إنه مكان رمزى تماماً وواقعى موجود فى كل مكان على حد سواء). لقد شغفت بالتواصل مع هذين المكانين منذ ١٩٩٧، عندما دخلت بشكل رسمى إلى مجال الدراسات الأمريكية القومية للسكان الأصليين. أتذكر أننى وجدت شيئاً ما مفعماً بالحيوية ومألوفاً فيما يتعلق بمشاهد الأدب القومى وأسلوب ومغزى النقد الناشئ عندئذ والمصاحب له. فى السنوات العشر منذ ذلك الحين، أصبحت دراسة السكان الأصليين شيئاً عالمياً، وصارت الأكثر حداثة فى العالم.

أردت أن أقدم إقليم الهنود الحمر ورحالى فلسطين لأننى اكتشفت أن شيئاً ما يربطهما بالحاجة نفسها إلى الحركة. بدأت فى إنتاج تحليل للاستعمار فى العالم الجديد والأرض المقدسة. هذا المحور أدى إلى الكتاب الأول الذى ألفته، والذى كان الثانى الذى أنشره، "الأرض المقدسة فى حالة انتقال". إن افتراض المقارنة أمر بسيط: استعمار فلسطين من قبل اليهود الأوروبيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين الماضيين لم يكن ليحدث إذا لم تكن أمريكا الشمالية خاضعة لاستعمار أوربى سابق. استعمار أمريكا الشمالية، على أية حال، لم يكن ليحدث دون وجود أرض مقدسة أسطورية. السكان الأصليون فى أمريكا الشمالية والفلسطينيون، بالتالى، كانوا ضحايا ل- وفاعلين فى مجموعة أساطير متماثلة. لقد فعلت

الأساطير الكثير من الأشياء، ولكن ميزتها الرئيسية كانت منح الشرعية المقدسة على أعمال غير أخلاقية إلى أبعد الحدود. الأساطير، بمعنى آخر، ألهمت وسوّغت في أن واحد الاستعمار الاستيطاني بالتوسل بإرادة الربّ أو بنشر الكتاب المقدس كصكّ واعد بذلك. في هذه الأساطير البشر نشطون فيما يتعلّق بأمور الربّ، والتي تحوله بالتالى إلى إله ضعيف .

عندما بدأت في إنتاج هذا العمل، كنت مندهشاً من أن كثيرين من الكتاب والباحثين لم يكونوا يبحثون في قوّة تلك الأساطير. "هيلتون أوبنزينجر"، "تورمان فينكلشتاين"، "روبرت واريور"، و"سالكاف بيركوفيتش" استكشفوا بدرجات مختلفة خرافة الميل المؤقت لأسطورة الأرض المقدسة. كتاب آخرون - "كاتلين كريستيسون"، "جاس ويفر"، "لويس أوينز"، "يوري أفينري" - وضعوا السكان الأصليين والفلسطينيين جنباً إلى جنب إمّا على عَجَلٍ أو بوضوح، ولكن لا أحد فعل ذلك بطريقة منهجية. كنت أعتقد أن الفلسطينيين على وجه التحديد سيكونون مهتمين بتأمل تواريخ السكان الأصليين في سياق ما يحدث لهم من نزع ملكيتهم. إسرائيل أصبحت مستعمرهم، ولكن الولايات المتحدة هي الراعى لإسرائيل - بشكل مطرد، ومعنوياً، ومالياً. هذه الحقيقة وحدها تُحدث صلة مع السكان الأصليين حتى إذا لم تقدم كنتاج خاص بها، الأساس للمقارنة العلمية. لا يزال الفلسطينيون يقاسون من الواقع البغيض للاستعمار العسكرى، ولذلك هم لديهم مصلحة استراتيجية في كسب حلفاء، بالإضافة إلى تحقيق فهم أفضل لأكثر الميول تجرّداً والتي تحفز إسرائيل والولايات المتحدة.

مقارنة خطاب الاستعمار في أمريكا الشمالية وفلسطين بشكل مبدئي تبدو بسيطة: وصل "التطهريون" (١) إلى ما يسمى الآن "نيوانجلاند" ملأى بالحماس المسيحيّ. وفي الحال تصادموا الهنود الحمر وعلى الفور اعتبروهم كنعانيين

(١) حركة دينية ظهرت في إنجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت تدعو إلى المزيد من الطهارة في العبادة والعقيدة .

وعماليق وحيثيين وقبائل العهد القديم الأخرى، متصورين أنفسهم أنهم إسرائيل في التيه وأنهم مُخِجُوا الأرض مع ثروة متخيلة من اللبن والعسل. فى القرون التالية غلب على الأمريكيين ما سماه "أوبنزنجر" "هوس الأرض المقدسة" الذى انتشر فى اللاهوت والأدب والسياسة، مؤثراً بشكل جوهري فى تشكيل هوية قومية حديثة. القصة ذاتها سافرت مرة أخرى عبر الأطلنطى: اليهود الأوروبيون نشرُوا قصصاً عن الانتماء المتوارث كأساس أخلاقى للصهيونية، وبالتالي اختزلُوا علاقة أسطورية بأرض مقدسة أسطورية، أرض العودة الموعودون بها. الزعماء الصهيونيون بما فيهم "ديفيد بن جوريون"، اتجهوا ناحية استعمار أمريكا الشمالية من أجل الإلهام عندما بدأوا فى نزح المستنقعات وتذليل برارى بدائية مسكونة بشكل متشتت بهمج متخلفين والذين تحت ولايتهم عانت الأرض من الإهمال. فى العقود التالية أصبحت إسرائيل قلعة أمريكية فى العالم العربى، متلقية معظم معونتها الخارجية بالإضافة إلى دعمها المعنوى والعسكرى.

من هذه النقطة الأساسية والحاسمة كذلك، تكون المقارنة عادلة، لأن المبدأ الفيلسفى للاستعمار من قبل الأوروبيين والصهيونيين مشابه وبطريقة ما مساوٍ له. لكن المقارنة المنهجية ليست بسيطة جداً اعتماداً على الاستقصاء المتعمق، خاصة عندما نضع فى الاعتبار الصعوبة المتأصلة فى العمل المقارن الجاد من أى نوع. فى حالة السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين، والذين كلاهما شعوب مستعمرة، نحن بحاجة إلى توجيه النشاط البحثى - أخلاقياً ومنهجياً - نحو رؤى خاصة بالسكان الأصليين، وعندما نقوم بذلك التوجيه ستنشأ مضاعفات معينة. هذه المضاعفات خاصة بهذه الشعوب وعامة بالنسبة للعمل المقارن عادة. المضاعفات علاوة على ذلك ضرورية إذا أريد لأى مقارنة أن تصل إلى نضج مقبول، ولذلك ينبغى أن يُرحَّب بها. لكنها ليست سهلة التصنيف.

إحدى هذه المضاعفات واضحة: وهو أنها فى الواقع ليست متشابهة إلى حد كبير فيما يخص السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين. فى الواقع لا يوجد

هناك أشياء متشابهة كثيرًا فيما يخص السكان الأمريكيين الأصليين أنفسهم، عندما ننظر إليهم بدقة على أساس أنهم مئات من الأمم المتميزة والتي تشغل أجزاء مختلفة من أمريكا الشمالية والجنوبية. "السكان الأصليون"، "الهنود الحمر"، و"الأمريكيون الأصليون" هي محددات فضفاضة للهوية واختزالية على عكس التجربة التاريخية الفعلية، وهي تصنع أساسًا للتصنيف القانوني والدراسة الأكاديمية، لكنها لا تفيد كثيرًا في توضيح التمايز القومي والتنوع في إقليم الهنود الحمر. إضافة الفلسطينيين إلى هذا الخليط يضخم عملية الاختزال، لأن تلك الإضافة تمنح بالضرورة ميزة لأساس المقارنة، وبالتالي تطمس الظواهر الأخرى المتساوية في الأهمية في أمريكا الأصلية. هذه المضاعفة عامة مع ذلك: المقارنة بطبيعتها يجب أن تكون دقيقة، مفردات الدقة تحقق الميزة لأن وضع شيئين معًا هو طريقة لإلقاء الضوء عليهما وإعطائهما أهمية خاصة.

في مقارنة السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين، يجب على أن أمنح ميزةً للغة القوى الاستعمارية وهكذا انتهت، على الرغم من كرهى لذلك، بإعطاء مزايا للقوى. بمعنى من المعانى، يقارن عملى بين الولايات المتحدة وإسرائيل أكثر مما يفعل فيما يتعلق بالسكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين. إلا أنتى عملت بكل قوتى، مع الالتزام بأخلاقيات الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، لتأكد من أن دراستى سخرت نفسها من أجل الرؤى الفكرية للسكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين. هذا الأسلوب ثنائى القطب يبرز مدى تعقيد أداء العمل المقارن. من الصعب أن تحتفى بـمكان شعب ما عندما يرتبط هذا المكان بأماكن أخرى، مهما كانا متعادلين. عندما نقرّ بأنه لا يوجد تشابه كبير فيما يتعلق بأناس مختلفين فإننا نضيق النطاق المنهجى فى اللحظة نفسها التى نتوهم فيها أننا نوسّعها.

هذه العوامل تثير سلسلة من الأسئلة حول أداء العمل المقارن، والذى أريد أن أثيرها وأستكشفها فى إطار استعمار السكان الأمريكيين الأصليين والفلسطينيين. هل العمل المقارن ينتهك بشكل أساسى أخلاقيات الاستثمار العام فى مجال

الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين؟ هل الاعتراف بالاختلاف بين الشعوب يدين أساليب المقارنة، أو هل هو يزيد من حدة وضوحها؟ ما الذى نحصل عليه من الناحيتين الأخلاقية والفكرية عندما نجرى مقارنة تحويلية بين ثقافات مختلفة؟ أى احتمالات نضحى بها؟ كيف نتحد دون التطرق إلى أو تثبيت التجانس؟

كل هذه الأسئلة تشارك فى جدلية مع سؤال أكثر أهمية، أريد أن أبحثه هنا: إلى أى أهداف ينبغي أن نوجه العمل المقارن؟

أريد أن أبدأ هذا البحث بتبنيه: أنا منزعج قليلاً من كلمة "ينبغي". اعتماداً على كيفية استعمالها، فإنه يمكنها أن تلمح إلى تنازل. يمكنها أيضاً أن تستخدم بعدوانية على أنها فرض. علاوة على ذلك، أنا منزعج من قطعيتها الضمنية (رغم أنه أحياناً تكون القطعية الخطابية مبررة). مع ذلك أقدمتها فى السؤال السابق بدلاً من "يمكن" أو "ربما"، لأننى أمل أننا سوف نصوغ بوضوح برنامجاً أخلاقياً وسياسياً للدراسة المقارنة، والذى لن يمكن تنفيذه بطريقة فريدة.

يجب أن نواكب العمل المقارن حتى أقصى حالات ثورانه وعودته إلى وضعه السابق. أفضل تبرير للعمل المقارن أيضاً هو حصيلته المرغوبة إلى أبعد حد: إننا لا يمكننا تقويض الأنظمة الاستعمارية وإرجاع أفضل السبل للحياة فى عزلة. العمل المقارن فى مجال الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، عندئذ، يكون بالضرورة يكون ناشطاً ومحفزاً. إنه "ينبغي" أن يستخدم فى مشروعات بناء الأمة، ليس كقضية تحذيرية، بل كنموذج أخلاقى. وقد صاغت الدراسات الخاصة بالشعوب الأصلية بفصاحة ملحوظة سلسلة من البدائل للانطباع التقليدى (والراسخ) عن الباحث الموضوعى والحر. هذه البدائل تتخطى الحدود بالضرورة. إنها لا تملك خياراً آخر، على أية حال، لأنها تقلل من أهمية الحدود ونظريات المعرفة الناشئة عن العواصم الاستعمارية. للعمل المقارن دافع رئيسى هو أن يبسر توجيه التحليل والتطبيق العملى نحو أماكن السكان الأصليين. هذا النوع الأهمية يسمح له بأن يتكامل مع مشروع التمكين الثقافى والسياسى.

لكي أقدم مثالا شخصيا موجزا : إنني لا أريد لعملى الآ يساهم بطريقة أو بأخرى فى مشروع تقويض إسرائيل. حتى إذا لم يغير عملى أى شىء بالفعل على الأرض فى فلسطين فإننى أودّ أن يُستفاد منى هناك كمادة للضرورة المنهجية. الهدف الضمنىّ من عملى، بمعنى آخر، ليس تعزيز الفهم العلمى، بل تعزيز قدرتنا على فهم التورط العلمى فى العنصرية والاستعمار. العمل عندئذ، بشكل واقعى بدلاً من الطريقة المخادعة، يمكنه أن ينتج نماذج للمسؤولية العلمىة. إنه يمكنه فعل ذلك، على أية حال، فقط من خلال التفكير المثمر فى الأمور على ضوء المواقف التى تحدث فيها. كيف يمكننا أن نفهم إسرائيل كما ينبغى إذا لم نكن نفهم الولايات المتحدة كما ينبغى؟ إننا لا يمكننا أن نفهم الولايات المتحدة كما ينبغى، إذا تجاهلنا منشأها الذى قام على الإبادة الجماعىة. المقارنة، فى هذه الحالة، تنشأ من وتعود إلى الصلات المشتركة بين القوة الاستعمارىة والخطابات المثالىة عن اختيار الأفضل وحب الغير.

المقارنة يمكن أن تكون مثمرة لأسباب أخرى. الباحثون المقارنون خارج الولايات المتحدة يخشون من تناقص عدد الشعوب الأصلىة لما يتصادف على أية حال أن يكون الأساس للمقارنة، فى حالة السكان الأمريكىين الأصليين والفلسطينيين تتمثل تجربتهم فى كونهم مستعمرين. السكان الأمريكىون الأصليون والفلسطينيون على حدّ سواء، مع ذلك، هم أكثر من كونهم ضحايا للغدر الاستعمارى. لقد كانوا يعيشون بخير قبل هجوم الاستعمار، واستمروا يعيشون بعيدا عن متناوله وتأثيره. لقد تشارك السكان الأمريكىون الأصليون بعمق فى تجارب روحىة واجتماعىة وثقافىة خصبة، وقد فعلوا ذلك منذ بداية وجودهم. وقد استقر الفلسطينيون فى الأراضى المقدّسة منذ الوقت الذى كانت فيه المنطقة لم تستغل بعد من قبل قدسىة نصىة. إنهم عاشوا كذلك قبل وبعد وجود إسرائيل .

أن تجرى تحليلاً مقارناً للاستعمار فى أمريكا الشمالىة وفلسطين، إذن، هو أن تصنّف السكان الأمريكىين الأصليين والفلسطينيين فى قاموس الاستعمار

الأجنبي، تمامًا مثل المكان الذي هم غالبًا محصورون فيه سياسياً. هذا الواقع صعب البتّ فيه، لأنه يحدد ارتباطاً بظواهر تاريخية وثقافية لا حصر لها. الموازنة، على أية حال، في النهاية تجعل التحديد أمراً جديراً بالاهتمام. إذا اخترنا أن نتخلى عن التحديد، فإننا في الوقت نفسه نتخلى عن العمل المقارن على وجه العموم، لأن الدقّة التي يسعى وراءها الباحثون المقارنون حتماً تؤدي إلى التحديد .

على أية حال، فالعلم، مثل الكتابة بصفة عامة، دائماً ما يستلزم الموازنات. العقلاء لا يكتبون لكي ينهوا الخلاف أو ليمنعوا التعقيد. المتمكّنون منا يكتبون لكي يحولوا الواضح إلى لغز ولكي يسقطوا عديم الضرر. ثمّة شيء ما يتمّ تبادله دون تغيير، جماليّ أو خطابيّ عندما نبدأ في إنتاج المعنى من خلال فعل الكتابة. إذا حاولنا أن نقارن، فعندئذ نحن نتبادل القدرة على أن نكون واسعي الإدراك بالقدر الكافي. وإذا حاولنا أن نكون واسعي الإدراك بالقدر الكافي، فعندئذ نقوم بتبادل القدرة على أن نكون مقارنين بشكل فعال .

من خلال المقارنة، ربما نكتشف فائدة معرفة أشياء عن أنفسنا. بغموض أقل، أريد أن أقول إن الناس يبررون المقارنة على أنها أسلوب للتواصل والفهم بشكل أفضل للثقافات والتقاليد والجغرافيات الأخرى. هذا التبرير سبب جيد لمواصلة العمل المقارن، وتوسيع معرفة المرء عن الناس والأماكن طموح معقول. يمكننا أيضاً أن ننظر إلى المقارنة على أنها مشروع تنقيف ذاتي. لا أقصد أن أقترح مشروعاً يكون أنانياً بطريقة واضحة أو ضمنية. إنني أقترح بدلاً من ذلك أن هناك شيئاً ما ذو قيمة على نحو رائع فيما يتعلّق بالتفكير في محيط جماعي. أن نأخذ في الاعتبار ما يعنيه انتماؤنا إلى جماعة معينة لها ممارسات ثقافية وقصص تاريخية وتدخلات جيوسياسية، هو شيء مثير إلى حد بعيد عندما نرحب بالآخرين إلى العملية. على سبيل المثال، في مارس ٢٠٠٧، في برنامج "الديمقراطية الآن" Democracy Now، كشفت "إيلي بينتيد كرو"، وهي من إحدى قبائل السكان الأمريكيين الأصليين، وقد خدمت برتبة رقيب في الجيش أثناء الحرب على

العراق، أن مسئولى الجيش الأمريكى كانوا يسيرون إلى أرض العدو بأنها "إقليم الهنود الحمر". هذا الكشف، والذي أعلن أيضاً أثناء غزو "فيتنام"، مثير للاشمئزاز فى دلالاته الأيديولوجية، ويربط بوضوح بين الماضى الاستعمارى والحاضر. استطاعت "بينتيد كرو" أن تضع الحرب على العراق فى سياقها عن طريق فهم أوسع للاستعمار، وهذا الفهم أصبح تثقيفاً ذاتياً لأنه وسّع مجال تحليلها.

هذا المثال يوضح خاصية مفيدة أخرى للمقارنة، وهى القدرة التى تعطىها لنا لإنتاج نماذج ثقافية جديدة. المشاركون فى مؤتمر جامعة أوكلاهوما درسوا مع نتائج عديدة هذه الخاصية المحتملة للدراسة الخاصة بالجماعات العرقية والثقافية. ومن المتفق عليه بصفة عامة هو ضرورة العمل خارج نطاق الحدود الطبيعية والمفاهيمية، الموروثة من المنظومات المعرفية الأوربية (بل قُل: الاستعمارية). إن فكرة عمل وضع مهنيّ للدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، فى حد ذاتها، فكرة متخطية للحدود القومية بشكل أساسى. النموذج الجديد للاهتمام الأساسى هو قومىّ منهجياً، والذي قد يبدو أنه ينفى التأكيدات المقارنة. فى سياق الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، على أية حال، تصوّر المنهجية القومية توجيهها أخلاقياً وفكرياً أكثر من أى شىء آخر فى الدول المكوّنة من جماعات عرقية وثقافية، وبطريقة مماثلة، تصور تحولاً بعيداً عن النظريات المعرفية الموضوعية والوضعية. إن الإقرار بهوية قومية هو فى الوقت نفسه الالتزام أخلاقياً تجاه مجموعة من المجتمعات العالمية بدلاً من أى دولة قومية. هذه المجتمعات، أحياناً ما يشار إليها إجمالاً بالعالم الرابع، تعترف بقواسم مشتركة كشعوب الأصلية.

نتيجة مهمة لهذا الاشتراك ربما تكون إمكانية استخدام العمل المقارن لعمل قاعدة للاتحاد السياسى، حتى لو بقى هذا التحالف افتراضياً. فكرة استخدام البحث العلمى لتشكيل العمل السياسى تمثل فى حد ذاتها تحولاً مهماً عن الروح الأكاديمية التقليدية، التى تحافظ على خرافة الحياد القديمة. هذه الخرافة مزعجة، وذلك لأربع أسباب رئيسية: (١) إنها توحى بأن الأكاديميين المتميزين يمكنهم إحراز مكانة

عالية تسمح لهم بتجنّب السياسة، (٢) إنها تفترض أن تجنّب السياسة أمر مفيد، (٣) إنها تجعل صفة "سياسي" كلمة مرمرّة يمكن أن تبيّن للنخبة أى شيء يفهم على أنه مهذّب أو غير مرغوب، و(٤) إنها تخلّد الكذبة القائلة بأن الملوتين فقط هم سياسيون أو على العكس، الكذبة القائلة بأن الأساتذة البيض ينقلون المعرفة الموضوعية فقط. فى الواقع، التأكيد على توجيهه غير سياسى هو عمل سياسى إلى حد كبير - إننى أستخدّم كلمة "سياسى" هنا لكى أظهر الطريقة المستكبرة التى يستخدم بها غير السياسيين الكلمة ظاهرياً.

تطوير العمل السياسى من خلال الدراسة العلمية ينبغى ألا ينظر إليه على أنه عمل هاوٍ أو تعليمى. فى الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين تم دمج الاحتياجات الناشطة والجماعية - بمعنى الأمور "السياسية" - فى التحليل العلمى بتعقيد كبير. (انظر أعمال "روبرت وارپور"، و"وينونا لاديوك"، و"فاين ديلوريا"، و"جى آر"، و"إنيز هيرنانديز أفيل"، و"جى كيهاولانى كوانوى"، و"مايلى بلاكويل"، أو مجرد أى شخص آخر منحاى للدراسات الخاصة بالأمريكيين الأصليين والسكان الأصليين). باستكشاف الاندماجات العرقية والمتخطية للحدود القومية، فإن المتقف والناشط سيكونان امتداداً عادياً لأى اعتقاد بأن البحث يجب استغلاله بشكل مشترك. يمكننا الآن أن نرى اندماجات مثيرة للانتباه تظهر فيما بين أمم المحيط الهادىء، وبشكل أكثر شمولاً من خلال الحوار فيما بين دول نصف الكرة الأرضية. فى عصر الاتصال الجماهيرى هذا، من السهل - يستطيع أن يقول واحدٌ: من الضرورى - الانتقال عن قصد بعيداً عن النظريات المعرفية الاستعمارية، وبدلاً من ذلك دعم، من خلال الدراسة العلمية، إحياء قومية السكان الأصليين الكاملة.

علينا أن نفكر ملياً فى الدافع إلى العمل المقارن ضمن مفهوم السيطرة، حتى إذا جعلنا ذلك نبدو أننا انتقاديين أكثر مما ربما نكون عليه. من الذى يستفيد من المبدأ القائل بأن الدراسة العلمية يجب أن تظل مستقلة؟ المستفيدون هم بالطبع الذين

يستفيدون من الدراسة العلمية المفترض أن تكون مستقلة (ومن المواطنين المستقلين جميعًا على وجه العموم). الشعوب الأصلية من جميع الجنسيات تشترك في رغبة أساسية في المطالبة بحق الملكية في منظوماتهم الأخلاقية الخاصة بهم. وتتسع الرغبة إلى ضرورة دمج هذه المنظومات الأخلاقية في الطريقة الذي تدير وتقدم بها هذه المنظومات البحث العلمي.

إنني أؤيد العمل المقارن بحماس شديد فيما يتعلق بالإمكانية التي يتيحها للتعاون السياسي، على الرغم من أن التعاون الفكري أكثر جاذبية ولا ينفصل عن التعاون السياسي. هذه الأنواع، على أية حال، لا تضيف كثيرًا وتبقى فقط على استخدامها المؤسس على نموذجها التصنيفي الغربي، المستيس بالتأكيد، وإن يُفترض كونه محايدًا. في هذا التصنيف، يصبح العمل السياسي أى شيء يهدد الوضع الراهن. لهذا السبب أعتبر العمل السياسي في الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين مثله في الأهمية مثل العمل الفكري المفيد. لا أريد أن أشجع على الاحتفاظ بالثنائيات، ولكن لا توجد طريقة لتطوير الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين بشكل مقبول دون تهديد الوضع الأكاديمي الراهن. الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين سوف توسم باستمرار بعلامة العمل السياسي أينما تظهر للوجود، وحيثما توجد. الشعوب الأصلية لديها القوة في رؤيتها الفكرية، مهما يكن، وهي تمتلك القوة السكانية على نحو متزايد. إذا أمكن لظهور العمل المقارن أن يربط المجتمعات المختلفة بمجموعة عامة من الطموحات، عندئذ ستكون واحدة من الحالات النادرة التي تؤدي فيها الدراسة العلمية دورًا حيويًا في العالم وتؤثر في ما يزيد عن أربعة وعشرين شعبًا .

لا توجد طرق سهلة لجمع المجتمعات المختلفة معًا والتعبير عن مجموعة عامة من الطموحات، لذلك أنا غير راغب في أن أصبح متفائلًا جدًا، لكن الناس غالبًا ما يخلطون بين جدوى هدف ما وقيمه الأخلاقية، والتي تبدو بالنسبة لي طريقة لوضع العربة أمام الحصان. فقط بسبب إنه قد يكون أمرًا صعبًا - ومن

المحتمل أن يكون مستحيلاً - فإنه لكي نفعل هذه الأشياء لا يعنى أننا لا يجب أن نستحضر الهدف لكي يوجّه أخلاقيّاتنا المنهجية. حتى كمبدأ منهجى، فإن العمل المقارن يقع فى مشكلة الاختزال، ولذلك من المهم توجيه نقد أمين حول كيف أن مجتمعات السكان الأصليين تعوّض ما تضحّى به، ولماذا (إن وجد) الثقافات العابرة جديرة بوعدها. التحدى الاستثنائى، هو أن تجعل مجتمعات السكان الأصليين قابلة للحركة، مع السماح لها بأن تظل قائمة بذاتها بكبرياء .

الآن قد يكون وقتاً مناسباً لتغيير الاتجاه للحظة. من المؤكّد أن أى شخص يقرأ هذا المقال سيتساءل: "من هو المواطن الأصلي؟" من الذى يتحدث عنه "سالايتا" فى هذا المقال؟. هذا سؤال مهم، يحتاج إلى أن يجاب عليه، ولكنه سؤال محيّر بشكل ملحوظ. إذا كان الهدف هو جمع الشعوب الأصلية من خلال الدراسة العلمية المقارنة والنشاط السياسى المتعدد العرقيات، ومن خلال اتحاد مهنى، عندئذ، لكي نفسر "تى بانجا سومرفيل" ⁽¹⁾، من الذى يجب أن يكون فى قائمة الضيوف؟ أريد أن أضيف الآتى إلى مجاز "تى بانجا سومرفيل": من الذى يملك أن يعدّ ويوزّع قائمة الضيوف؟ المشكلة الأولى التى نواجهها عند التفكير فى هذه الأسئلة هى معلومة أن أخلاقيات الدراسات الخاصة بالسكان الأصليين قد ترفض العرقية أو الأصالة المعيارية. من المفترض أنه لا ينبغى لأحد أن يكون فى موقع من يعدّ قائمة الضيوف، وكذلك من المفترض أنه لا ينبغى لأحد أن يمتلك الحق الأخلاقى فى أن يستبعد أناساً منها.

إلا أنه بعيداً عن المفترض فإن "تى بانجا سومرفيل" محقة بلا ريب. فالناس يحتاجون بالفعل إلى أن يُدعوا بالتأكيد تماماً مثلما يحتاج الآخرون إلى أن يستبعدوا. هذه الحاجة، مع ذلك، هى الأساس الكامل للانفصال عن الاتحادات المهنية المجودة وتكوين واحد عن طريق ومن أجل الشعوب الأصلية. وبالمثل،

(1) باحثة مهتمة بالدراسات الخاصة بالسكان الأصليين، ولدت ونشأت فى نيوزيلندا، وتعمل أستاذة فى جامعة فيكتوريا أوف ويلينجتون بأستراليا. (المترجم)

فإننا لا يمكن أن نفكر ملياً بشكل مفيد في العمل المقارن بدون أن نحدد ضمناً على الأقل من الجدير بالمقارنة. هذا الموقف جرى أكثر منه مفارقة، إنه أشبه ما يكون بأداة فلسفية تقدم تحليلاتها المتنوعة توجيهاتٍ ضمنية.

أريد أن أستحضر روح كتاب "روبرت واريور" "أسرار قبلية Tribal Secrets"، حيث يشجعنا على تجنب الأسئلة المرهقة حول الهوية والانتماء. إنها ليست فكرة جيدة أبداً أن تقضى كثيراً من الوقت في مناقشة أسئلة مطلقة، حتى إذا بدت تلك الأسئلة ذات أهمية قصوى. إن نقل المناقشة إلى موضوعات أكثر واقعية ليس هو نفسه بالضرورة التهرب من تلك الأسئلة الصعبة. بالطبع، إنه قرار منهجي أن نكون واثقين في أهمية التأكيد على الأصالة كهوية سياسية ودستورية، وأن نعترف بأن أسئلة الحق والأصالة لا يمكن أن يجاب عنها بشكل مرضٍ، الاستشهاد بها مراراً وتكراراً سينتهي بها في صالح الثقافة المسيطرة ذاتها، التي منحناها الأهمية في المقام الأول. مبدأ أخلاقي مختصر فيما يخص قائمة الضيوف يمكن أن يظهر فقط أن مجتمع السكان الأصليين هو مجتمع يحدد هويته بذاته، وأنه مجتمع مقبول بحد ذاته من قبل أشقائه.

إنى أدرك أن هذه الإجابة غير مرضية وأنها لا تعبر على نحو كافٍ عن تأكيدي الخاص على أن الناس في حاجة إلى أن يُقبلوا وأن يُستبعدوا. أريد أن أضيف أن الأصالة شيء معنوي بطبيعته وبالضرورة ولذلك لا يمكن تعريفها، حتى كمعنى شامل، باستخدام الأساليب المنطقية للدراسة العلمية الغربية، أو حتى من خلال الاتصال اللغوي الأساسي. إنها تُعرّف بالطريقة التي يعرف الناس بها أنفسهم، وعائلاتهم، ومجتمعاتهم، وكيف تكون علاقاتهم بالبشر الآخرين في العالم، ونوع الاهتمام الذي يولونه للكائنات الحية، والطريقة التي يختارونها للوفاء بما عليهم، وكيف أن الإحساس بالعالم والحياة يورث وينقل. الأصالة، بمعنى آخر، هي هوية ممارسة، إنها ليست تصنيفاً سياسياً يمكن أن يُعدّ من أجل معايير واضحة. الناس ينتمون إلى الطبقة عن طريق المشاركة في مجتمعات أصلية بالنسبة للأماكن

العالمية التي تفعل الأصالة. إنني أتحدث في هذه المقالة، إذن، عن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أصليين دون أن يضعوا في الاعتبار دائماً مجموعة من المعايير تحدد هذه الهوية.

عملية الدمج والاستبعاد بكاملها تحتاج إلى أن تكون ذاتية التنظيم. وحتى إذا حدث عيب في هذا الخيار، فإنه سيكون أقل أخطاءً من بدائله، والتي جميعها حتمية إلى حد ما .

إنني أستطيع أيضاً أن أجيب عن سؤال الدمج والاستبعاد من خلال مناقشة مثال معين : هل الفلسطينيون سكان أصليون؟ لقد أثرت هذا السؤال في كتابي "The Holy Land in Transit" واستنتجت أنه، نعم، فحتى الآن لأن الفلسطينيين يتألفون من شعب غُرسَ في مكان معين، فهم مواطنون أصليون. إنني أبين أن الفلسطينيين مواطنون أصليون من الناحية السياسية حتى الآن ، لأننا نستخدم المصطلح لكي نشير إلى شعب محتل أو مجرد من ملكيته، والذي له حق مشروع في الأرض التي اغتصبت من قبل محتلاً أجنبياً. إن التوصل الجغرافي وتجربة الاستعمار كلاهما وثيق الصلة بالهوية الخاصة بالسكان الأصليين، لكنهما ليسا الشئين الوحيدين اللذين يصنعان أو يحددان هوية. داخل المجتمع الفلسطيني ذاته، على سبيل المثال، توجد مجتمعات - بشكل أساسي، بدو صحراء النقب - يمكن تصنيفها على أنها مجتمعات سكان أصليين مختلفين عن بقية المجتمع الفلسطيني. إنهم يصنفون على أنهم مجتمع سكان أصليين قائم في الدرجة الأولى على نمط حياتهم التقليدي ومظاهره المصاحبة له: السكن، التنقل، الزي، الإحساس بالعالم والحياة، بنية العائلة، واللهجة. في الغالب، رغم ذلك، فإن البدو معروفون بأنهم سكان أصليون لأنهم يمارسون حياة من الأصالة. عندما نضيف إسرائيل مرة أخرى إلى المعادلة، فذلك يجعل بقية المجتمع الفلسطيني سكاناً أصليين، وهنا يكون الفلسطينيون ملزمين بالمجاهرة بموقف معادل يربط الأرض المقدسة بوجودهم التاريخي والثقافي. مثل هذه المجاهرة بالرأى هو تعبير أساسي عن الأصالة.

لنرجع قليلاً من حيث أتينا: نعم، لقد اعتقدت أن الفلسطينيين يقعون في قائمة الضيوف، رغم أنهم ليسوا خياراً مائلاً للعيان، كالعراقيين والشعوب القبلية أو البدوية الكثيرة في العالم العربي التي شرّدت من قبل الدولة لأسباب عديدة (لتغتصب الأرض الزراعية، ولتستبيح الموارد مثل البترول أو المياه، ولتشيّد مشروعات الأشغال العامة مثل السدود، إلى آخره). قائمة الضيوف يجب أن تشمل كذلك جميع المجتمعات حول العالم التي صنّعت هويتها بـ واسطة أماكن معيّنة وربّطت بها، وأصبحت هذه الأماكن أكثر قداسةً أيضاً إزاء الاعتداءات الشاملة بالتواطؤ مع الدولة. هذه الشعوب تعيش في جنوب ووسط آسيا، وأمريكا اللاتينية، وجنوب الصحراء الأفريقية، وأوروبا الشرقية، وجنوب المحيط الهادى - فى كل مكان، فى الواقع، حيثما توجد مصالح مشتركة لا يمكن تحقيقها سوى من خلال الإبادة الثقافية والبيئية. إذن فالقوة التى تربطنا معاً : الشعوب الأصلية هى التى ترفض بثبات وحماس شديدين الحداثة الشاملة، ولكن مع ذلك يمكنها أن تحاكي نجاح هذه الحداثة بشكل غير مباشر - ويمكنها أن تختار توقّفها مباشرة.

إذا لم تستطع الدراسة العلمية الخاصة بالسكان الأصليين أو لم تُرد المساهمة فى هذا المشروع، فعندئذ لا حاجة لتسميتها بـ "الخاصة بالسكان الأصليين". بدون هذه الرسالة، فإنها لن تجد فى الواقع ما تقدمه للمجتمعات التى تلتصق نفسها بها. وبدون الاستفادة من التراث الثقافى والعادات والتقاليد لكى تنتج مدلولاً علمياً، فإن العمل سيفقد الخصوصية المنهجية والأخلاقية التى تمكّنه من أن يكون متعلقاً بالسكان الأصليين. الدراسات العلمية الخاصة بالسكان الأصليين، بسبب ذلك، تحريضية بشكل أساسى، ومقارنة فى حد ذاتها. نعم توجد مخاطر فى أداء هذا النوع من الأعمال - ولكن ما نستجيب له، معاً، عن طريق الرؤية المختلفة، أكثر خطورة إلى حد بعيد.

عن أى شيء يتحدث مايكل ليرنر فى الواقع ؟

بسبب ثقله بين الليبراليين الأمريكيين، وصل "رابى مايكل ليرنر"، مؤسس "Tikkun Community" ورئيس تحرير مطبوعتها "Tikkun Magazine"^(١)، إلى عدد من المنافذ الليبرالية اليسارية البارزة. فى الواقع، ليس سوى الأمريكيين العرب أو المسلمين الذين يتصلون من الإسلام والثقافة العربية من خلال الإعجاب بإسرائيل (مثل إرشاد منجى، وفواد عجمى، ونونى درويش) هم الذين لديهم حرية الوصول إلى جمهور عريض تمامًا مثلما لدى "ليرنر".

هذه الحقيقة ليست مصادفة. ف وراء المنابر فيما قد يسمى باليسار الصارم hard left، الأصوات العربية غائبة فى أغلب الأحيان عن وسائل الإعلام غير العربية. إننا نقدّم غير مرئيين كممثلين لحكاياتنا الخاصة، لأن الناس يتكلمون بالفعل لمصلحتنا: الصهيونيون التقدميون والليبراليون، الذين جاءوا ليمتّلوا الموقف المضاد لإسرائيل فى مواجهة المعلقين المؤيدين لإسرائيل (بدءًا من نوعية هؤلاء الذين لم يعترفوا مطلقًا بالاعتداءات الإسرائيلية، مثل "ألان ديرشويتز" و"تشارلز كروتهايمر" و"دانييل بايبس"، إلى آخره).

قبل كل شيء، ينبغى أن نلاحظ أن هذه الفئات المؤيدة لإسرائيل والمضادة لإسرائيل حمقاء. إنها غير مفهومة حتى كإشارات موجزة وفى الواقع ضارة ضمنيًا، لأنها تساوى بين متابعة العدالة (بمعنى: إدانة إسرائيل) ب- / واللاعقلانية أو الكراهية العمياء، إن كلمة الوصف "مضاد لإسرائيل" تؤكد على وجود كراهية متأصلة أو موروثية، وتلمح إلى أن الشخص يعارض إسرائيل بقوة القانون، بدلاً من أن يعارض إسرائيل بسبب سلوكها المرفوض، والأخير موقف رائع بلا جدال. قد

(١) مجلة نصف شهرية تعنى بشئون السياسة والثقافة والدين فى أمريكا وإسرائيل من منظور يهودى يسارى تقدمى (المترجم)

يكون الأمر أكثر إفادة إذا تم تصنيف الناس طبقاً لمواقفهم الأخلاقية - على سبيل المثال، "دعماً لحقوق الإنسان"، في مقابل، ربما، "مدافع عن التطهير العرقي الإسرائيلي".

الفئات ضارة بوضوح أيضاً لأنها كوّنت بتلك الطريقة التي استُبعد بها العرب منها بصورة كاملة تقريباً. في الصراع الطويل الذي حرّض اليهود الإسرائيليين ضد الفلسطينيين العرب، قد يرى المرء أن المناقشات حول الصراع ينبغي أن تشمل كلاً من اليهود والفلسطينيين. وبدلاً من ذلك، حلّ محلّ الفلسطينيين الصهيونيون التقدميون والليبراليون الذين، مثل خصومهم المزعومين، رفضوا مساءلة الأدبيات المدعّمة للأسس المقدسة لإسرائيل، ونادراً ما يتحركون أبعد من الانتقادات الليبرالية الواهية لنشأة الدولة والوحشية التي تلتها (والمستمرة). لذلك فإن هؤلاء الصهيونيين التقدميين والليبراليين لا يمثلون بالفعل الفلسطينيين الذين يزعمون الحديث لصالحهم. إنهم يؤدون أفضل وظائف الجهل، وفي بعض الأحيان المعرفة، ممثلين لمصالح إسرائيل أكثر من إبداء أى اهتمام بالسلام والعدل.

الشيء نفسه حقيقي، بالمصادفة، فيما يتعلق بالليبراليين البيض الذين على صلة بكل المجموعات العرقية حول العالم التي تواجه بعض أشكال الظلم. العينة الاختبارية الأكثر وضوحاً لهذا التأكيد هو العلاقة بين الليبراليين البيض والشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية. الليبراليون البيض، بأعداد ساحقة مؤسفة، يتجاهلون أو يقبلون بشكل إلزامي التواريخ العديدة للإبادة الجماعية التي تحملها السكان الأصليون أثناء العملية الطويلة لتكوين الأمة في الولايات المتحدة. التجاهل والقبول كلاهما ممقوت في حد ذاته، لكنهما يصيران ممقوتين بكل معنى الكلمة فقط عندما ندرك تورط الليبراليين البيض الحاليين في أشكال مستمرة لتشريد السكان الأصليين، ونزع الملكية، والإبادة الجماعية الثقافية من خلال الانتهاك الشامل للجغرافيا المقدسة والنقض المستمر للاتفاقيات العديدة.

الليبراليون البيض، إذن، لديهم سجلّ ردىء فى مجال تأييد الاستقلال عن المستعمر. فى الواقع، الاستعمار لن يستمر لمدة ربع ساعة فى أى مكان بالعالم إن لم يكن بسبب القبول من الليبراليين فى العواصم الاستعمارية. (انظر الغزو الأمريكى للعراق سنة ٢٠٠٣ كمثال جيد).

لهذا السبب، فإن الصهيونيين التقدميين والليبراليين ليسوا جبناء سياسياً فحسب. سيكون أمرًا غير حكيم بالنسبة للفلسطينيين إذا أنقذوهم من الموقف الصعب، باعتبارهم طبيى القلب لكن سدّج قليلاً. إنهم يلعبون دورًا رئيسياً فى قدرة المستعمرين على اختراع الأساس المنطقى للبربرية التى لا تغتفر، عن طريق التطيع من خلال القبول المنطقى لأدوات الدولة التى تسبق وتعتمد على قمع قومية السكان الأصليين، فيما عدا اللحظات التى يمكن تخصيص لغرض إضفاء الشرعية على وجود استعمارى أجنبى. إنهم يلعبون دورًا أكثر حسماً لصالح إسرائيل عن طريق منع الفلسطينيين من دخول أماكن النقاش العام حيث تلائم وجهات نظرهم وقصصهم عن استحقاق - التى تُخشى بحق من قبل الصهيونيين التقدميين والليبراليين، الذين لا يستطيعون تخيّل أى نوع من التمكين العربى، والذى لا يمكن أن يعمل وفق الحدود السياسية الواهية التى أقاموها بدقة شديدة. نتيجة لذلك، أصبح الصراع الإسرائيلى الفلسطينى شأنًا يهوديًا يهوديًا مجردًا من أى مشاركة عربية، وبهذه الطريقة يؤيد النماذج العنصرية التى تمنح اليهود امتيازًا على أنهم الحراس الشرعيون للأرض المقدسة بالإضافة إلى الأمور العديدة التى تتخلّل ذلك.

فلنعد إلى "مايكل ليرنر"، الصهيونى التقدمى بلا منازع والمعلق المعتمد عليه من قبل وسائل الإعلام الليبرالية الباحثة عن صوت معارض. إنه يؤدى وظيفة ضرورية لوسائل الإعلام هذه - بما فيها صحيفة "نيويورك تايمز" - لأنه يوفر عليهم عناء إظهار معلق فلسطينى قد يصف بدقة بشاعة ماضى إسرائيل وحاضرها.

يفضل "ليرنر" إلقاء الضوء على ما يعتبره لأخلاقية إسرائيلية وفلسطينية على حد سواء، ويناقش كلا الفريقين كما لو كان هناك تكافؤ سياسي وتاريخي بين أفعالهما، وهو يقبل بكل ثقة أيضاً وحشية إنشاء إسرائيل، ويصوغ نقده الأخلاقي في إطار يقلل من شأن المعاناة الفلسطينية، عن طريق إلقاء الضوء على ما يتصوره أنه إرهابهم المفرط.

على سبيل المثال، في تعليقه على تدمير إسرائيل للبنان، والذي يسميه "دورة عنف لا معنى لها" و"حلقة من مسلسل اللاعقلانية"، يكتب "ليرنر":

في سياق اللوم، هناك ما يكفي لنذهب هنا وهناك. ويعتمد ذلك على من أين تبدأ القصة. اعتماداً على فقدان الذاكرة التاريخية، يختار المناصرون في كل جانب المكان الذي يلائمهم بشكل أفضل في قصة هم فيها "الضحايا الطيبين" أما الآخرون فهم المعتدون الأشرار. يحب الفلسطينيون أن يبدأوا قصتهم في سنة ١٩٤٨ مع طرد مئات الآلاف من الفلسطينيين من بيوتهم أثناء الحرب على إسرائيل المعلنة عليها من قبل الدول العربية المجاورة، ورفض الحكومة الإسرائيلية السماح لهؤلاء الناس بالعودة حالما تتوقف الاعتداءات. الإسرائيليون يفضلون أن يبدأوا القصة عندما كان اليهود يبحثون في يأس عن مهرب من من الإبادة الجماعية التي يواجهونها في أوروبا، وقيادة عربية كارهة للبشر أقتعت الجيش البريطاني أن يقف إلى جانب الفلسطينيين المحليين الذين سعوا لمنع هؤلاء اللاجئين اليهود من اللحاق بأمثالهم من اليهود المقيمين في فلسطين في ذلك الوقت.

يحكى "ليرنر" القصة ذاتها في كتابه "Healing Israel / Palestine"، ويحب أن يعيدها في المقالات وفرص الظهور العلني. القصة حقيرة ليس فقط بسبب عدم صحتها التاريخية واختزالها الاستعمار العسكري إلى مجرد سوء تفاهم فاشل، ولكن لأنه أيضاً يلقي باللوم على أصل النزاع، وليس على القائمين بالتطهير العرقي من اليهود، ولكن على ضحاياهم الفلسطينيين. إنه ينهي هذا الانقلاب بإدانة الفلسطينيين على عدم فتح بلدهم للاستيطان اليهودي، ناسياً، بالطبع، أن الفلسطينيين لا شأن لهم

بالهولوكوست وأن الصهيونية تلك، التي تتوق دائماً إلى تطهير الأرض من الفلسطينيين، هي ظاهرة موجودة قبل "هتلر".

(لام "ليرنر" بشكل عرضي، "إدوارد سعيد" - بعد موت "سعيد"، وهو ما يتفق مع شجاعة "ليرنر" الأخلاقية - لعدم تعاطفه بالشكل المناسب مع اليهود الأوروبيين العائدين إلى "وطنهم القديم").

يمتلك "ليرنر" تاريخاً طويلاً من إدانة إسرائيل عن طريق لوم الفلسطينيين على أنانيتهم. في مقال رأى نشره عام ٢٠٠٢ في مجلة "The Nation"، على سبيل المثال، يلوم "الجماعات المؤيدة للفلسطينيين التي تزعم أن الفلسطينيين يتعرضون لإبادة جماعية شبيهة بالنازية على أيدي الشعب اليهودي"، ويدعو إلى "المصالحة بين شعبين يتقاسمان بالتساوى اللوم على المأزق الراهن". الجزء الأكثر إثارة للأسف في هذا الرأي، بعيداً عن التكرار الذي يعيده به، هو نزعه صفة الإنسانية عن الفلسطينيين باختزاله مقاومتهم الطويلة والشجاعة إلى الدرجة ذاتها من اللاأخلاقية الملازمة لمائة عام من التطهير العرقي الصهيوني.

عند اعتداء إسرائيل على لبنان، أدان "ليرنر" إسرائيل "ظاهرياً بدون أن ينتقدها فعلاً. لقد جمع ثلاثة وخمسين موقعاً على إعلان نُشرَ في "لوس أنجليس تايمز" و"نيويورك تايمز". الشرط الأول للسلام الذي يتحدث عنه "ليرنر" يشمل "الاعتراف الكامل والمطلق من قبل الفلسطينيين والدولة الفلسطينية وجميع الدول العربية المحيطة بحق إسرائيل في الوجود كدولة يهودية". بالنسبة لـ "ليرنر"، السلام متساوٍ في الأهمية مع الحفاظ على أكثرية إسرائيل اليهودية - بمعنى، حقها في أن تكون عنصرية بشكل مؤسسي، ببقائها دولة عرقية بشكل قانوني. بدلاً من الدعوة إلى حق العودة، كشرط أساسي لأي سلام دائم، يدعو "ليرنر" إلى "تعويضات سخية"، وبالتالي ضمان الحرمان المستمر من الحقوق المدنية لملايين اللاجئين، وتقديم حب الغير اللبيرالي، ذلك الذي جعل الفلسطينيين وجميع الشعوب

المستعمرة الأخرى التي لا تحصى تعاني لما يزيد عن مائة عام. الإعلان بكامله لم يرتفع أبدًا عن مستوى خواء التفاهات الليبرالية.

من الجدير بالملاحظة أنه من بين الموقعين الثلاثة والخمسين على إعلان "ليرنر"، اثنان فقط يبدو أنهما مسلمان، أحدهما عربي (عراقي). ولم يمثل لبناني أو فلسطيني. هذه الإحصائيات المخجلة تتفق مع خطاب آخر تم توزيعه على نطاق واسع كتب عنوانه "توأم تشومسكي" ووقعه ثمانية عشر من النجوم المشاهير، ولا أحد منهم عربي أو مسلم. خشية أن يُكره دافع عنصرى المرء ليتساءل عما إذا كان الكتاب العرب المشهورون قد أغفلوا لأنه لا يوجد أحد منهم هناك، فإنه من الصعب أن نتخيل أن لا أحد لديه بعد النظر، ليتصل ب- "نعومي شهاب ناى"، "أهداف سويف"، "ليلي أحمد"، "توال السعداوى"، "محمود درويش"، "أدونيس"، "تاتالى حنضل"، "بيتيل عدنان"، "سلمى خضراء جيوسى"، "أمين معلوف"، أو "حنان الشيخ".

ربما يكون خيرًا أن "ليرنر" نشر إعلانًا حول إسرائيل ولبنان وفلسطين أغفل اللبنانيين والفلسطينيين، وذلك لأن تلك الأصوات لا تتلاءم معه، فهم سيكونون أكثر إفادة إذا تخلصوا من عبء وصمة التردد الأخلاقي الذي لدى "ليرنر". إنه لم يفعل أكثر من الانشغال بتوافه الأمور وجند كثيرًا من الناس المشهورين الذين يجب أن يعرفوا أكثر، لكنهم وقفوا بجانبه لأنهم أقرروا بنزعتهم إلى عمل الخير، أو لأن "ليرنر" لجأ إلى صورتهم الذاتية المستقيمة أخلاقياً، دون إدخالهم فى أى مشكلة حقيقية، مثلما قد يفعل الارتباط الحميم بالفلسطينيين بكل تأكيد.

بحسب المرء فى كتابات "ليرنر" قتالاً صهيونياً أيديولوجياً مخلصاً، بالإضافة إلى الأيديولوجيا المهذبة للتعايش المتعدد الثقافات، شخصية المتعدد الثقافات فى "ليرنر" تتجج فى صنع بريق من التسامح، لكن القراءة الدقيقة لأعماله دائماً ما تكشف المتعصب العرقى.

يتوهم "ليرنر" أيضاً أنه زعيم للفلسطينيين. هذا الوهم واضح في مقالة رأى بمجلة "Nation" في عام ٢٠٠٢، حيث يشجع قراءه أن "يقوموا بمطالبة المؤسسات اليهودية والعربية بأن تتبنى مساراً إلى مبدأ اللاعنف". وددت أن أحت "ليرنر" على أن يقوم بأى مطالبات يرغبها من اليهود، ولكنى أبلغه بأنه ليس له حق فى أى مطالب من الفلسطينيين. وإذا كان القراء الذين يخاطبهم من الصهيونيين التقدميين أيضاً (أو أى نوع من الصهيونيين)، عندئذ هم بالمثل ليس لهم حق فى أن يفعلوا أى شيء إزاء الفلسطينيين سوى تنظيف بيوتهم من النتن بدلاً من نقل الرائحة المنتنة إلى بيوت الآخرين.

يرمز " ليرنر " إلى فشل الليبراليين البيض المتورطين فى أنشطة استعمارية بالطريقة ذاتها، مثل شخصية "سوزان بارتون" فى التأمل الإبداعي الرائع فى رواية "Foe" ل- "جيه. إم. كويتزى"، حول الفصل العنصرى بجنوب أفريقيا. بالتفكير فى " فرايداي "، العبد الذى يعاد تخيله فى رواية "Foe" كرجل أسود قطع لسانه افتراضياً، لم تستطع " سوزان " تجنب لحظة قصيرة من الوضوح:

" أقول لنفسى إننى أتحدث إلى " فرايداي " كى أعلمه بعيداً عن الظلام والصمت. ولكن هل هذه هى الحقيقة؟ هناك أوقات تهجرنى فيها النزعة إلى عمل الخير وأستخدم الكلمات فقط كأقصر الطرق لإخضاعه لإرادتى. فى تلك الأوقات أفهم لماذا كان يفضل كروسو" ألا أعكر صمته، إننى أفهم، ما معناه، لماذا يفضل الإنسان أن يكون مالكا لعبد. هل صغرت فى نظرك بسبب هذا الاعتراف؟

بهذا المشهد، يقوم "كويتزى" بمناورة خطابية مدهشة. إن " سوزان " إما أن تأمل أو تتخيل أن صدقها اللحظى قد برر التعاطف، كما تميل تصرفات الصدق إلى فعل ذلك مع هؤلاء الذين يتطوعون بها. إلا أن هذا الصدق العارض يشير ضمناً إلى "سوزان" على أنها فاسدة أخلاقياً، على عكس الصورة الذاتية المحبة للخير التى عملت بجدّ لتهديبها وتسليط الضوء عليها، من خلال حديثها المكتوب .

إن "ليرنر" مثل "سوزان بارتون" تماماً، لكن دون أى لحظات من الوضوح أو الصدق العارض.

إننى أؤكد على حق "ليرنر" فى حديثه، بغضّ النظر عن كونه خطيراً بشكل غادر. يجب على "ليرنر"، بأى حال من الأحوال، ألا يدعى أنه يمثّل وجهات نظر أو مصالح الفلسطينيين. فهو لا يفعل ذلك. بتبرئة تأسيس إسرائيل، والدعوة المتكررة للمحافظة على دولة عرقية عنصرية، وتصور نفسه صهيونياً، يمثّل "ليرنر" فى النهاية مركزاً للقوة، والذي لن يرغب فى أن يتنازل عنه أبداً.

من الحكمة بالنسبة للفلسطينيين وأولئك الذين الذين يهتمون حقاً بصالحهم أن ينصرفوا عن "مايكل ليرنر" بناءً على ذلك.

المهاجرون ليسوا متجانسي التكوين

لقد كنت في مرحلة ساذجة آنذاك، سن الخامسة عشرة، كنت طويلاً وهزياً وعظام ركبتى بارزة قليلاً، مع شعر جسدى الجديد الداكن الذى يغطى بشرة سمراء مصفرة، مع تسريحة شعر سوداء كثيفة، تزيد طولى أربع بوصات، مكملاً كل ذلك بنظارة بلاستيكية معرقة الألوان كالرخام .

كان ذلك في وقت مبكر من سنة ١٩٩١. أشجار القيقب الكبيرة فى الفناء الخلفى الواسع لبيتنا "الأبالاشى" كانت عارية من الأوراق، تحولت بسبب الشتاء إلى عيدان مفككة، تفرقع فى بعضها البعض فى الريح الموسمية الكثيفة الهانجة. الحقل الذى كان مخضراً منذ وقت قريب اتخذ مظهرًا متلبداً، أشبه ما يكون بـ "الشميانيا" فى مظهرها العام، ولكن دون أى من نغماتها الترددية الاحتفالية. مربى ماشيتنا المبنى من الطوب الأحمر، الذى تم توسعته بمساحة إضافية جديدة، لم يكن بالضرورة دافئاً لكنه كان آمناً، السخانات الكهربائية المثبتة فى الجدران كانت تبعث بالدفء مع ضوضاء متواصلة .

كنا نحب أن نتجمع حول التلفزيون فى ليالى الشتاء، فى حجرة تكفى لخمسة أفراد بالضبط، وثيرة بما يكفى للإيحاء بالحميمية الحقيقية، ولكن مع فراغ يسمح للفرد بأن يتمدد فى جلسته. فى تلك الأيام كان الشيء الوحيد الممكن مشاهدته هو الاجتياح الأمريكى البادئ للتوّ فى العراق، أول حرب على الهواء بالصوت والصورة. لدرجة أننا كنا نشاهد بثّ ال- CNN فى القسم الثانى من حصة الجبر وأنشاء فترة مذاكرة وقت الغداء .

جميعنا كان يعرف أن صدام حسين كان يُصوّر بشكل شرير، فمه المتكّلف الابتسام رمزاً لحدّة الطبع العربى، شاربه الكثيف ليس زينة شخصية أكثر من كونه رمزاً للمتحدّر الفظ فى الخيال الغربى. كان ذلك قبل أن يتدلّى من حبل المشنقة فى "اليوتيوب YouTube" بستّة عشر عاماً. كان يمكن أن يبقى على قيد الحياة فى هذه الحرب. لكن ملايين من الشعب العراقى لن يكون بإمكانها ذلك .

كان زملائي في المدرسة يتعاملون مع هذه الحرب كأنها لعبة فيديو video game، كانوا يهّلون ويصفرون عندما كانت محطات التلفزيون تعيد بغطرسة تشغيل رسوم جرافيك متطورة، توضح الصواريخ وهي تضرب أهدافها، مربعات باللون البيج مع حرف (X) كبير مغروس فوقها، قبل أن تحولها الخطوط الرمادية الملطخة بألوان مختلفة إلى سحب من الدخان. لا أحد منا كان يعتقد أبدًا - أو حتى دُفِعَ إلى الاعتقاد - في أن أناسًا، بشرًا حقيقيين لديهم أصابع يدين وأصابع قدمين، يسكنون تلك المربعات الرمادية المبهمة. في البيت، كان والداي أقل اهتمامًا بالأمر، كانا يهزان رأسيهما ببطء، وأحيانًا ما يصدران صوتًا قصيرًا منخفضًا من خلال الشفاه المزمومة.

لم أكن متدمرًا بصخب على وجه التحديد، لكنني كنت مرافقًا فضوليًا رزينًا. كنت أحب الكتب وأقضى معظم وقتي، داخل وخارج الفصل، في قراءة أي شيء يقع تحت يدي، في أي مجال. كنت أسعد بكل من كوميديات "أرتشي" وأعمال "تشارلز ديكنز"، معتبرًا الاثنين أنهما أفضل من صور العلاقات الإنسانية الأساسية بلا منافس. لم أكن أولعت بالكتابة بعد، لكن ذلك كان بداية لتنمية موهبة تمييز الأعمال الجيدة. كان عقلي غير منتبه للدراسات العلمية، ولكنه كان نشطًا. لم أكن مستهترًا بشكل نمطي، ومرافقًا هرمونيًا.

وقد أدركت أن لدى اهتمامًا عميقًا مختلفًا نوعًا ما عن زملائي الأبالاشيين بالحرب. بمعنى، عرفت أنني لست أمريكيًا فحسب. بل عربي، تمامًا مثل العراقيين. مثل صدام حسين.

هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن زملائي في الفصل، الذين أخذوا يطالبون بشكل روتيني بأن أعيد تأكيد ولائي للولايات المتحدة. أفضل طريقة للتعبير عن إعادة ذلك التأكيد، كانت مدّ كفي للضرب بها على كف شخص آخر، تعبيرًا عن الابتهاج، عندما تدمر الطائرات الحربية الأمريكية الأشياء. إنها غريزة حب البقاء على الرغم من ذلك. أحسست بطريقة ما أنني خائن في مثل تلك اللحظات، رغم

أننى أفهم الآن أن أفعالى لم تكن خائنة، ولكن لأخلاقية، وهو شيء لم أفكر فيه آنذاك.

لكن كان من الصعب الانشغال بالحرب فى وسائل الإعلام مع أى نوع من التأكيد على الأخلاقيات. إذا لم يرغب الإنسان فى أن يفكر بطريقة عملية فى موت العراقيين نتيجة الضربات الجوية، فعليه إذن ألا يفكر فيهم. لقد كانوا غائبين تمامًا عن رسوم الجرافيك الخيالية وعن تحليل الخبر. لم أشعر أننا نشاهد شيئًا خطيرًا، كالحرب، كان لدينا إحساس مجرد، بدلاً من ذلك، بأننا نشاهد فيلمًا سينمائيًا متواصلًا. كان صدام هو الوغد المنتشر فى كل مكان فى وقت واحد .

كان زملائى فى الفصل يقولون إننى أشبه صدام. فكلانا لديه شعر أسود وله لون البشرة نفسه، شيء ما مثل اللون الزيتونى المركز، هذان العاملان - لم يكونا أوجه شبه بالضرورة - كانا كافيين لمعظم الناس لأن يتخيلونا متماثلين، أو قريبين فى الشكل بما يكفى. لقد كان الأمر أصعب وأصعب أن أتجاهل ما يُرمز إليه بهذا التشابه المزعوم، وهى أننى عربى، حقيقة يفهمها زملائى فى الفصل، عبّر عنها أحدهم ببساطة، لأن الأمريكيين معتادون على فعل ذلك، من خلال التعليق على المظهر .

كانت هناك شائعات حول مشروع قانون. سمعتها لأول مرة من والدة صديقى، حيث كانت تشتعل غيظًا بسبب أن زوجها المصاب بالعرج، والذى كان محاربًا قديمًا فى حرب فيتنام، سيتم استدعاؤه للقتال مرة أخرى. طلاب صف التخرج فى المدرسة ناقشوا أيضًا إمكانية إذا كان خطاب القبول يمكن أن يؤهلهم للإعفاء، كان الجنود أكثر انفعالاً، بينما هم يتفخرون، من أجل، "تضرب مؤخراتهم وتأخذ بترولهم" "kick their ass and take their gas". بالتأكيد، نحن كنا نضرب صدام، ولكن لا أحد كان يعلم متى ستنتهى الحرب. كان بنى وبين حصولى على حق التصويت على مشروع القرار أقل من ثلاث سنوات. ماذا كان سيحدث لو أننى، كعربى، أُجبرت على الذهاب إلى الشرق الأوسط لقتل عرب آخرين؟

بالنظر إلى الورا، أدرك أن أزمى لم تكن ضرورية، والى كانت مبنية على افتراض ميلودرامى. فى حينها، أبرزت هذه الأزمة، مع ذلك، مآزقا أخلاقيا لم أجد له مخرجًا بالفعل، وهو واحد من مآزق المهاجرين العديدة منقطعة النظير، الخاصة بالولايات المتحدة. ذات مساء، بينما استمرت الحرب الإعلامية، بحسب البهجة البادية على وجوه المذيعين، قررت أن أسأل والدى عن رأيهما.

ردت والدى دون تردد: "أنت مواطن أمريكى. إذا دعيت للقتال من أجل وطنك فستفعل ذلك، لا يهم ضد من أو أين".

أجاب والدى: "هراء".

الخطر والتهديد في كولومبيا، أو يوم دُعِيَ محمود أحمدى نجاد إلى العالم الأكاديمي ومثل الإرهاب مباشرة

فى سبتمبر ٢٠٠٧، سافر الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد إلى جامعة كولومبيا ليلقى خطابًا كضيف على كلية الشؤون العامة والدولية. وقد أدى كل من الدعوة وما تلاها من مظاهر إلى جدل متوقع. كانت تصريحات أحمدى نجاد المثيرة للاستهجان وسياساته الداخلية المريبة فقط هى الأساس الظاهرى لهذا الجدل، رغم ذلك. كثير من الجامعات الأمريكية، على كل حال، تستضيف الطغاة والحكام الديكتاتوريين والأنماط الكريهة الأخرى، وتعاملهم كضيوف شرف فى أوقات خالية من أى شىء ما عدا الجدل الهامشى (الملك عبد الله، برويز مشرف، هنرى كيسنجر، بنيامين نتيناهو، وجورج دابليو بوش، هم من أتذكرهم الآن). الجدل حول أحمدى نجاد، إذن، يكون له معنى فى سياق جيوسياسى معين فقط، الادعاءات حول تصرفاته المريبة انتقائية جدًا لدرجة أنها لا يمكن أن تؤخذ على محمل الجد مثل أى شىء آخر فيما عدا تبرير الجدل. أدت زيارة أحمدى نجاد إلى جامعة كولومبيا إلى الاحتجاج بسبب ما استخدمه من صفات مجازية، خاصة إشارته إلى إنكار الهولوكوست وإلى الإرهاب (بشكل أكثر شمولاً بينما تزداد الدعوات لغزو إيران). الكثيرون من هؤلاء الذين احتجوا يبحثون باستمرار عن مبرر للداعين إلى التدخل العسكرى المباشر ولا يفوتون أى فرصة للتذمر. كانت زيارة أحمدى نجاد نعمة لأولئك الذين يبدو أنهم يعرفون أنهم لا يفعلون شيئاً آخر سوى التهليل للحرب.

إن هدفى ليست تبرئة أحمدى نجاد من إخفاقاته فى القيادة، التى وثقتها وسائل الإعلام الأمريكية بدقة (وبالغنى فى ذلك). هدفى هو أن أطلب من القراء أن يفكروا فى الظروف التى يمكن فيها لشخصية ممقوتة أن تسبب الهيستيريا، وتصل

إلى أن تمثل العنف غير المبرر، بينما الشخصيات الممقوتة المماثلة ترمز فقط إلى الفتور أو اللامبالاة. الخطوة الأكثر إمتاعاً هي التفكير في الظروف التي وصلت فيها شخصيات ممقوتة إلى أن تدفع إلى الاحترام (رونالد ريجان، حسنى مبارك، وشيمون بيريز، الذين الذين أتذكرهم). إن إدانة أحمدى نجاد والسياح بغضب من شره هو المعادل الفكرى للقرع بملعقة على مقلاة، والمعادل الأخلاقى لضخ البترول إلى دبابه من طراز "أبرام". إذا رمزت زيارته بالنسبة الأمريكيين إلى خلاصة الخسة، وأثارت جدلاً حول قوانين محلية مثل حرية الرأى، عندئذ تستحق هذه الزيارة أن تدرس بشكل تحليلى. التحليل الأساسى يوضح أن خطاب أحمدى نجاد فى جامعة كولومبيا حرك، أكثر من أى شىء آخر، عاطفة الوطنية المتطرفة الكامنة، التى تشكل أساس الحركة الإنسانية الأمريكية. إن أحمدى نجاد سيظل مهماً فقط ما دام الأمريكيون يحتاجون شخصاً يجسد مخاوف سياسية خارجية. كعنصر بشرى أو كمشارك فى صنع السياسات العالمية فإن أحمدى نجاد شخص خارج عن السياق تقريباً، إنه مفيد أكثر للأمريكيين كاختراع لنزعتهم العنصرية الخاصة.

لكن هذا المقال لا يسعى فى الواقع ليكون عن محمود أحمدى نجاد (تماماً) مثما لم تكن زيارة محمود أحمدى نجاد لكولومبيا فى الواقع حول محمود أحمدى نجاد). إنه سيكون حول العوامل الرمزية الضمنية فى دعوة أحمدى نجاد، والمعاملة السيئة اللاحقة من قبل رئيس جامعة كولومبيا "لى بولينجر" ووسائل الإعلام الأمريكية الرئيسية. إن "بولينجر" يتصور نفسه الدرع لحرية الرأى والمدافع عن الحقوق، لكن أفعاله خيبت التصور. إن رفضه الحديث عام ٢٠٠٦ دفاعاً عن أعضاء هيئة التدريس الذين تعرضوا لهجوم من قبل صهيونيين رأسماليين كان دالاً على الجبن أكثر منه على الشرف. عندما استغل مناسبة الخطاب لى يلوم أحمدى نجاد فيما يتعلق بالحقوق المدنية وخطابه بالجامعة، حول نفسه منافقاً متبجحاً. لسنا بحاجة إلى استحضار دفاع "بولينجر" المزعوم عن حرية الرأى لنقدم هذا التعليق، فإنه يمكن أن يُقدّم بأن نلفت انتباهنا إلى رئيس "بولينجر"

نفسه، الذي لم يوتّخه "بولينجر" أبداً. لم يدل أحمدى نجاد أبداً بأي تصريح مثير للاعتراض أو يقيم بأي عمل غير إنساني، إلا وكانت كلمات "بوش" وأفعالها متفوقة عليه. في الواقع، إذا تجاهلنا ميدان الحديث (والذي يعتبر مهماً، ولكن ليس كأهمية الفعل) وركزنا بدلاً من ذلك على الفعل، عندئذ يكون "بوش" رئيساً أكثر خطورة إلى حد كبير من أحمدى نجاد. وإلى أن يكون هناك شيء لدى "بولينجر" ليقوله لـ "بوش" - ليس عنه فقط، ولكن له علانيةً - يصبح انتقاده لـ "أحمدى نجاد" لا شيء سوى مجرد تأثير في نفوس المشاهدين.

وشمل سياق هذا التأثير في نفوس المشاهدين الخوف المرصّي من الأجنبي ومن الإسلام. على المنصة في كولومبيا، دخل "أحمدى نجاد" إلى مكان مقدّس كالدخيل الأجنبي، وكرمز داكن البشرية للغريبة غير القابلة للتعبير. إنه من خلال الاختلاف الراسخ أمكن للأمريكيين أن يتجنبوا، وهم معتدين بأنفسهم، رؤية خطاب "بولينجر" على المنصة إلى أحمدى نجاد، كإسقاط يدل على فسادهم الأخلاقي. لقد اعتاد الأمريكيون منذ عام 1979 على منع الإيرانيين من مستوى الإنسانية ذاته، الذي خصصوه لأنفسهم. هذه المعاملة متفاوتة، ويمكن أن تكون ذكية بارعة، أو صريحة فجّة. مثال لذكائها المعتاد يتجلى من خلال مذيعة نشرة الأخبار المسائية في "محطة CBS" "كيتي كوريك"، والتي، طبقاً لكاتب العمود في صحيفة "نيويورك تايمز" "ماورين دوود"، تتذكر كيف تنطق اسم أحمدى نجاد بالطريقة المساعدة على التذكر لـ "I'm a dinner jacket"⁽¹⁾. هذه الاستراتيجية الحمقاء، المبنية على الخطأ في النطق، لا تتمّ على العنصرية مباشرة، ولكنها تشير إلى فقدان الجدية الثقافية المتنوعة، وهو سلوك يسمح للعنصرية بأن تنتشر بين من هم غير عنصريين. لم تُجرَ محاولة - لا محاولة في حاجة لأن تجرى - لاستكشاف التاريخ والثقافة واللغة الإيرانيين، خارج نطاق استخدامهم ككيانات ظلّ في العقائد الأمريكية للتدخل في شؤون الدول الأخرى.

(1) تسمية تهكمية تطلق في الغرب على الرئيس الإيراني محمود أحمدى نجاد .

إذا أخضعنا وضع أحمدى نجاد المعقد لإطار تحليلي يفسر الظواهر المجازية المهمة، فإننا سنكتشف بعض الأشياء المهمة حول الفائدة من الآخر المسلم في المفهوم الأمريكي المعاصر للقوة الفردية والسيادة الوطنية. ثلاثة أشياء بوجه خاص تتجلى في خطاب اللباقة الأمريكية، والتي تعد استثنائية وعنصرية بشكل مستتر في أن واحد (في تلك الحالات التي لا تكون فيها عنصريتها واضحة): (١) العرب والمسلمون لا يعرفون سوى العنف كطريقة للتعامل وأغبياء تمامًا فيما يتعلق بمسائل التقدم والتنوير، (٢) الاتهام بغياب الحقوق الإنسانية والمدنية في العالم الإسلامي يزيد باستمرار ويتعالى في اتساق مباشر مع تآكل الحقوق الإنسانية والمدنية في الولايات المتحدة، و(٣) العملية المعقدة لصناعة الرمز في الولايات المتحدة تستغل ما ينبغي أن يكون بطريقة أخرى أشياء مرئية طبيعية أو عادية في الثقافة العربية عن طريق مفاهيم شريرة. فلننظر عن قرب إلى كل من هذه الملاحظات.

مفهوم أن العرب والمسلمين لا يمكن أن يجادلوا باستخدام الأساليب التقليدية للحوار، وأنه يجب بناء على ذلك أن يُرغموا من خلال العنف على أن يكونوا في مواقف خاضعة، قد حازت على شعبية. لقد تواجد المفهوم لوقت ما في القاموس الأمريكي، لكنه أصبح سائدًا مع بداية الانتفاضة الفلسطينية الثانية، في سبتمبر ٢٠٠٠. والدافع لشعبيتها هو النظرية الملائمة القائلة بأن إسرائيل يجب أن تخضع الفلسطينيين بالقوة لسببين رئيسيين: لتعلمهم أن العنف سيعود عليهم بالعنف ولتدخل إلى المفاوضات معهم من موقف القوة. هذه النظرية قد شجعت بتعصب شديد من قبل مدير منتدى الشرق الأوسط "دانييل بايس". بالضبط قبل أن يصبح مستشارًا للحملة الرئاسية لـ "رودي جيلياني" ^(١)، علق "بايس" أنه:

(١) ولد سنة ١٩٤٤، ينتمي للحزب الجمهوري، ترشح عن الحزب في الانتخابات الرئاسية الأمريكية ٢٠٠٨، ثم انسحب. (المترجم)

دعا إلى قطع الإمدادات والخدمات العامة عن السلطة الفلسطينية بالإضافة إلى مجموعة من الإجراءات الأخرى مثل عدم انتقال الناس أو البضائع إلى السلطة الفلسطينية فيما عدا الضرورات الأساسية، بما يحقق عقوبة الموت ضد القتلة، وتدمير القرى التي تنطلق منها الهجمات . عندئذ وكما الآن، ردود الفعل هذه لها فائدتان: أولاً، أنها ترسل رسالة رادعة قوية، 'ادفعا إلى الخلف، ندفعك إلى الخلف بشدة أكثر'، بذلك ينقص عدد الهجمات على المدى القصير. ثانياً : أنها تجبر الفلسطينيين بالإرادة الإسرائيلية في البقاء، وبالتالي يجيء قبولهم النهائي بالدولة اليهودية.

وكما يشير "بايبس"، فإنه يعلن عن بعض التغيير في جداله على مدى سنين عديدة. قد يكون من الخطأ أن نقصر استخدام هذا المفهوم على "بايبس" وأمثاله من المحافظين الجدد، معلقون آخرون يعيدون استخدام أدواته الفلسفية في مجموعة متنوعة من السياقات، غالباً باستخدام لغة أقل عدائية وأكثر إنسانية.

وقد أصبح تداول هذا المفهوم ملحوظاً عند حضور أحمدى نجاد إلى كولومبيا. عبرت الكاتبة في ال- "واشنطن بوست" "آن أبلبيوم" عن الحريات الأمريكية في قصة عن الجهل والحرمان الإيرانيين: "بدلاً من التجادل حول حرية الرأي في إيران، ها نحن أولاء مرة أخرى نتحدث عن حرية الرأي في أمريكا، وهو موضوع نعرف عنه الكثير". في البديهيات الأخلاقية ل- "أبلبيوم"، الولايات المتحدة غير مرتبطة تاريخياً بتطور السياسات الإيرانية، ولذلك فالدليل الحاضر لديمقراطية إيران العملية وتعرضها للتدخل الأمريكي العلني والسري تم إسقاطه، وبالتالي يصبح غير ذي صلة بالأمر. بدوره، يكون القارئ مدفوعاً ليسأل عما إذا كان الإيرانيون مؤهلين بما يكفي لحرية شاملة دون مساعدة أمريكية (والتي لا يبدو أنها تمنع في التدخل العسكري). يشير أسلوب "أبلبيوم" إلى أن حالة الرضا الأمريكي عن النفس نُشرت بأفضل شكل بالتزامن مع البكاء على الجهل الشرقي. هذه الخطوة تمنع المعلق من دراسة الحالة الفعلية للحريات الأمريكية المزعومة حالياً، وفي الوقت ذاته تقود الإيرانيين إلى ميراث أخلاقي، يؤدي إلى حراسة دولية

مضفى عليها القداسة ومؤمن عليها من قبل أساطير أمريكية سابقة. قد يكون من الصعب تحديد المقدار، لكنه من المعقول التأمل فى أن الإيرانيين يتناقشون حول حرية الرأى على الأقل فى أعداد معادلة لهم من الأمريكيين - وبالتأكيد هم يثيرون هذه المناقشات باختلاف فى المضمون أكثر مما يفعل أصحاب موضوعات الرأى الأمريكيين. (من المفيد أن نتذكر أن "أبليباوم" غير المتحدثة بالفارسية تزعم زعماً ليس لديها أهلية تقديم الدليل عليه).

"جونا جولدبرج" قدمت شكلاً مختلفاً لمنطق "أبليباوم" فى تعليق لمجلة "ناشيونال ريفيو أونلاين"، مفترضة أنه إذا تم توزيع تسجيل فيديو لخطاب "بولينجر" على مستوى الشرق الأوسط عموماً وإيران خصوصاً، فإنه يمكن أن يكون له تأثير إيجابى جذاً. والأيام ستخبرنا". هذا الافتراض مشابه لمنطق "أبليباوم" لأن كلتا المؤلفتين لا تبدوان فقط أنهما تقرّان بإخلاص الولايات المتحدة فى حوارها مع إيران، ولكن لأنهما تعتقدان بإخلاص أن الإيرانيين يحتاجون إلى هذا الحوار إذا أرادوا فى أى وقت التغلب على تخلفهم. المثال الأكثر فجاجة لهذا الرأى يتجلى فى إطار مختلف عن طريق الناقد الثقافى الليبرالى "كارلين رومانو" الذى نشر فى صيف عام ٢٠٠٧ عموده المعتاد فى دورية "Chronicle of Higher Education Review" تحت عنوان "إذا لم نطلق نخاطبهم بأسمائهم الشنيعة، فسيفوز الإرهابيون". مناقشة "رومانو" صريحة، الدعوة إلى حكم أشدّ حزماً، معبر عنه بقوة أشدّ، إنه يحث السياسيين والمعلقين إلى أن يثيروا إلى "الإرهابيين" - وهى تسمية مبهمة بشكل نمطى، وبالتالى عنصرية - "كأبناء زنا ومنحطين وجبناء وحثالة". والاختيارات الأخرى تشمل "أشرار" و"همج".

إن مناقشة "رومانو" مسيئة لأسباب عديدة، ولكن بشكل رئيسى لأن فهمه السياقى للقضايا الجيوسياسية، مثل الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين والغزو الأمريكى للعراق قصير النظر بشكل مرضى، ولأنه يفشل فى عمل تمييز كاف بين الإرهابيين المزعومين وجميع المسلمين. إذا تم متابعتها، فإن توصيتها ستصل إلى

تصنيف واسع الانتشار للمسلمين جميعًا على أنهم "أبناء زنا، ومنحطين، وجبناء، وحثالة"، وهي ظاهرة واضحة الآن على أية حال. (وإن لم تكن كذلك، فكيف لـ "رومانو" أن يكتب مقالته من الأساس؟ ثم كيف أمكن نشرها في جريدة خاصة بتدوين وقائع التعليم العالي؟). يقترح "رومانو" تنظيمًا خطابيًا للتصنيفات "المانوية" (١) التي تبرر الإمبريالية الأمريكية، والتي تخضع المسلمين لصور عنيفة بشكل واضح من إدخالهم ثقافيًا في الحداثة. ولكن هذه المشكلات ليست النقاط الأجدر بالملاحظة في مناقشة "رومانو". هذا الفارق يلائم الأساس المنطقي للمخاطبة بالاسم. "ماذا يمكن أن نناقش فيما يتعلق بمزايا مناداة الإرهابيين بأسمائهم البشعة؟"، يسأل هو:

دعونا نذكر هدفًا رئيسيًا واحدًا فقط: تعليم الشباب المسلمين في العالم. فبدلاً من الاستماع إلى الإشادة الأخلاقية بالإرهاب والتشجيع عليه من قبل الجهاديين، والذي اختلط في عقولهم بالحديث الانتهازي والممتنع عن إصدار أحكام شخصية عن المسؤولين الغربيين ووسائل الإعلام الغربية، يجب أن يستوعبوا اتجاهًا ثابتًا من الإهانات لذكاء وأخلاقيات وسلوكيات ومنطق الإرهابيين، الشباب المسلم يجب أن يعتادوا الاستماع إلى أبطال الجهاد الموصوفين بأنهم متوحشون وحثالة وفاشلون همجيون إلى جانب المبررات لماذا. من الممكن أن يرغمهم ذلك فكريًا على، أكثر بكثير من إرغامهم اليوم، على الاختيار بين روتينين للعالم.

هذه الاستراتيجية منافية للعقل لأنها تختزل العوامل الاقتصادية والسياسية الاجتماعية المعقدة التي تؤثر في الإرهاب - بأشكاله المتعددة - إلى رؤية أخلاقية ازدواجية معبر عنها بسذاجة باستخدام تسمية رمزية. يعتقد "رومانو" أن إحداث تغيير في مفردات اللغة من أجل الجمهور الأمريكي، سوف يجعل المسلمين يتأسنوا فجأة في وحشيتهم، وبعد ذلك يصلوا بشكل طبيعي لأن يدركوا أن إخضاع أنفسهم لهيمنة الجيش الأمريكي والليبراليين الجد سوف يحل جميع مشاكلهم. (سوف لا يكونون، بالطبع، أذكاء بما يكفي ليدركوا أن توصية "رومانو" سوف تحل

(١) نسبة إلى المانوية، وهي ديانة وضعية فارسية قديمة ظهرت بعد المسيحية. (المترجم)

المشكلات الأمريكية فقط التي تنشأ بشكل غير ملائم عن الرغبة في تشجيع الحماس الاستعماري). كذلك تتسبب الاستراتيجية ضمنياً وحشية مستمرة للمسلمين. وإن لم تكن تفعل ذلك، فإنه سوف لا يكون لدى "رومانو" أى أساس ليتصور أن الشباب المسلم جبان وغبي جداً، لدرجة أنه بمجرد سماعه بأن نظرائه المسلمين تطلق عليهم أسماء شنيعة ومجرّدة من الصفات الإنسانية، سيحوّله ذلك إلى جبهة هؤلاء المعادين لهم بشدة.

إن مناقشة "رومانو" هي صيغة منطرفة لموقف واضح، يشاركه فيه كل من "أبليباوم" و"جولديريج": العرب والمسلمون، المغرمون بالعنف، يجب أن يتمّ تدميرهم بالإكراه.

هذه الأساليب مفيدة لأولئك العاشقين للباقة الأمريكية، لأنهم يحصرون المسلمين في اللاعقلانية المتخلفة. إنهم يحصلون على استفادة إضافية بتحويل الانتباه عن تعبيرات الوحشية الأمريكية: الاستعمار، التعذيب، اغتصاب وقتل المدنيين في العراق، الحقوق المدنية المتآكلة، حقوق الإنسان المهملّة. الحقوق الإنسانية والمدنية المتناقصة لها أهمية خاصة. بإثارة هذه الأهمية، لا أريد أن ألمح إلى أن ذلك جديد في الولايات المتحدة. لم توجد لحظة في التاريخ الأمريكي حدث وأن مورست الحقوق الإنسانية والمدنية وحُميت بشكل شامل، فإنه دائماً ما يحرم منها شخص ما في كل لحظة تاريخية، والناس كانوا ضحايا باستمرار لأسلوب الإنكار من خلال النفاق denial-through-sanctimony المناظر. التناقص الحالي في الحقوق الإنسانية والمدنية جدير بالملاحظة بسبب بعض المظاهر المميزة. في المقام الأول، اعترف مسؤولو الحكومة الأمريكية باستخدام التعذيب، وقيدوا بفخر ما كان يوماً حريات الخصوصية المحميّة قانوناً، والحقوق في توكيل محامين. علاوة على ذلك، فإن خطاب التبرير هذه الأيام يُستغلّ عادة في موائيق أمنية خاصة. وتؤكد هذه الموائيق على حماية الأفراد الأمريكيين من الإرهاب، لكنها تتطلق من وتعود إلى حفظ سلطة الدولة. الحاجة إلى الحماية، مهما تكن، غالباً ما تقدم على أنها التزام ديني.

تماشيًا مع هذه الاحتياجات من المفيد أن نلوم أحمدي نجاد على سجله السيئ المفترض في مجال الحقوق الإنسانية والمدنية. (أحمدي نجاد ليس محاربًا من أجل للعدالة - انظر مواقفه حول المثلية والتنمية الاقتصادية - ولكن إذا حدث وكان سيئًا تمامًا مثلما يصور بشكل زائف، عندئذ سيكون منحطًا ومعتوهًا بشكل غير قابل للإصلاح، بالأحرى، مثل جورج دابليو بوش في الواقع). هذا اللوم يؤكد مرة ثانية على التزام أمريكي زائف تجاه الحقوق المدنية والإنسانية، والذي يؤدي في الواقع على مستوى التأكيد فقط، وبذلك ينجز وظيفته الأساسية. في هذا السيناريو، أحمدي نجاد هو أداة مساعدة فظيعة، و"بعبع" ضروري، مجهز بالمواسفات الجسدية والعاطفية الناشئة عن هوس إنكار الأفكار المؤلمة غير المكبوح بشكل كامل. هذا النوع من الاحتفاليات الخطابية قد يكون مضحكًا نوعًا ما إن لم يكن أيضًا فيه غل، كذلك: بهذه الطريقة القاسية جدًا للوم أداة مساعدة بشعة مثل أحمدي نجاد، فإن المعلقين والمفكرين الذين اخترعون رأيًا عامًا، لم يتجاهلوا انتهاكات الحقوق المدنية والإنسانية فقط، بل دعموا هذه الانتهاكات وأجازوها بتجنب التفكير في الإدانة المناقفة للأجنبي الجيوسياسي (بمعنى: الأخلاقي). إن نزع الإنسانية عن الأجنبي لم يمكن المعلقين الأمريكيين من إنكار البربرية الأمريكية فقط، بل مكّنهم من تهيئة الأجواء للبربرية الأمريكية، من خلال استخدام اللغة التي تجعل الغريب رمزًا للعالم الإسلامي بأكمله.

طريقة واحدة يتم بها هذا الإجمال، وذلك من خلال الانتباه المتواصل إلى أخطار الوحشية الإسلامية المتأصلة. ولكن كيف نصل إلى أن ندرك وجود تهديد إسلامي بشكل محدد؟ في العالم الذي يعيش فيه المسلمون البشر، تكون دراسة الرموز الإسلامية معقدة ومتناقضة على حد سواء. هناك أشياء قليلة يمكن أن تمثل الإسلام بدقة في مجملها. فلا توجد سمات عرقية مميزة مؤهلة لتفعل الشيء نفسه. ومع ذلك، ففي العالم الذي يصور فيه المسلمون من قبل أولئك المتورطين في الإمبريالية، يمكن اختزال الإرهاب إلى التعبير برموز بصرية تشير إلى الوجود

الإسلامى المهتد. هذه الرموز البصرية تشمل عادة اللحي والكوفيات وسُبْح الصلاة والزى المميّز (تأمل الجلابيب ذات اللون البيج القذرة والصنادل الجلدية المتربة).

لا أريد أن أركّز على هذه الدلالات النمطية، لأن الرموز المرئية الأخرى جاءت لتتوب عن المسلمين الخطرين، وهذه الرموز البصرية تشير إلى شكل أكثر إيذاءً من أشكال العنصرية والاختزال. الشيء الأكثر إيذاءً في هذه الرموز هو إطار النصية القرآنية، النص العربى (بطرق مختلفة يمكننا أن نرى تخصيص اللغة العربية بكاملها للرمزية العنصرية، لفظيًا وسماعيًا على السواء). لقد وصلنا إلى درجة أنه في المعايير المنطقية الأمريكية جميع أشكال التعبير عن الثقافة الإسلامية تدل على العنف، بالإضافة إلى الكتابة العربية التي تعبر بوضوح أكثر عن الثقافة الإسلامية العنيفة. في حالة الكتابة العربية، لدينا شيء لغوى، أو رمز صوتي، يعبر شكلاً عن دلالة ثقافية معينة، والقائمون على أمور الثقافة الشعبية يحيطون الكتابة العربية بمدلولات خبيثة، مثيرين شيئاً ما من الحماسة السيميوطيقية.

حالة "ديبي المنتصر" مثال بارز لهذه الظاهرة. مهاجرة يمنية ومديرة سابقة لأكاديمية خليل جبر: إن الدولية العامة في مدينة نيويورك، وهي مدرسة ثانوية للغة والثقافة العربية، أثارت "المنتصر" الجدل عندما سئلت من أحد الصحفيين عن عبارة "انتفاضة NYC" "Intifada NYC"، التي تضعها بعض العضوات على ملابسهن في منظمة "النساء العربيات الناشطات في الفنون والإعلام"، في أحد الأحداث التي كان تحت رعايتها. الحدث والمنظمة لا علاقة لهما بأكاديمية جبران، وتصادف أن تكون "المنتصر" من بين الحضور. شرحت "المنتصر" للصحفي أن الشعار ليس موافقة على العنف، ثم علقت قائلة: "الكلمة تعنى أساساً: الاهتزاز". على الرغم من أن الكلمة أصبحت تشير ضمناً إلى "التفجير الانتحاري" في معظم وسائل الإعلام الأمريكية، فإنه في الواقع كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى تُعرف بمقاومتها السلمية الشجاعة، والانتفاضة الثانية كانت مليئة بالأعمال السلمية المنظمة التي لم تنقلها وسائل الإعلام. تعرضت "المنتصر" لهجمات قاسية، غير

مبررة في الواقع، من قبل وسائل إعلام ومعلّقي المحافظين الجدد مثل "دانييل بايبس"، الذي نشر مقالات عنونها بـ "A Madrassa Grows in Brooklyn" "مدرسة تنشأ في بروكلين" و "Stop the NYC Madrassa" "أوقفوا مدرسة مدينة نيويورك" (في اللغة العربية تعني madrassa كلمة school في الإنجليزية). وقد لقيت جريدة "نيويورك بوست" "المنتصر" بـ "مديرة الانفاضة" وخصصت افتتاحية تحت عنوان "ما المقابل العربي لكلمة Shut It Down أغلقوها؟". وفي وسط الضجة، متمهلاً ومهيجاً، اتخذ "راندي وينجارتين"، رئيس الاتحاد الذي يشرف على "المنتصر" الفيدرالية المتحدة للمعلمين، موقفاً عاماً ضد "المنتصر"، والتي استقالت فيما بعد واستبدلت بغير الناطق بالعربية "دانييل سالزبرج"، وهو "صهيوني شديد التعصب يفكر في الارتحال إلى إسرائيل" وفقاً لجريدة الـ "بوست".

هناك العديد من الدروس التي تُستخلص من هذه الأحداث، ومنها العلم بأنه في لحظات الأزمة سيحلّ الخوف والاشمئزاز من العرب محلّ الحاجة إلى ممارسة المسؤولية المدنية الأساسية. الرسالة الواضحة الموجهة إلى المجتمع العربي الأمريكي هي أنه لا يمكنه أن يباشر أي شأن من شؤونه الخاصة دون التدقيق الحكومي العام والرقابة البيروقراطية الخارجية، وأنه في أي لحظة يمكن أن توجه إليه الإهانة الشديدة بوقوعه مرة أخرى تحت سلطة مشرفين صهيونيين. (أود أن أوضح أن انتساب "سالزبرج" للصهيونية، إن كان صحيحاً، هو شيء مستحق للاستهجان أكثر من أي شيء فعلته "المنتصر"). على عكس عملية التعليق على قميص "تي شيرت"، فالصهيونية عبارة عن موافقة واضحة على العنف. في هذه الحالة، إنها موافقة على العنف ضد الطلاب أنفسهم الواقعين تحت إشراف "سالزبرج". ربما يكون الدرس الأكثر إزعاجاً هو الحقيقة المؤسفة بأن حرية التعبير الفكرى والثقافى في الولايات المتحدة ستكون، في الوقت الحاضر، خاضعة لمصالح أولئك الذين يدعمون عدوانية دولة استعمارية عسكرية في شرق البحر المتوسط.

بعيدًا عن هذه الدروس يمكننا أن نحدد ظاهرة أكثر إثارة، هي حماقة السيميوطيقية التي أشرت إليها سابقًا. فالكلمات العربية العادية السلمية أصبحت توصم بدلالات نزاعة للقتل، وإن كانت من قبيل الهراء. أى شىء دال على الثقافة العربية - والوجود المصاحب للعرب أنفسهم - يمكن بهذه الطريقة أن يُنظر إليه على أنه رامت لوجود مغرم بالعنف. لا يمكن للعرب والمسلمين أن يعبروا عن أى نوع من الوجود الثقافى فى الولايات المتحدة بدون احتمالية العدوانية المجنونة المصاحبة، والتي تكون عادة فى شكل الإرهاب غير المعنى بالسياسة. الأمثلة الأخرى التي تؤيد هذه الملاحظة: تهمة "جهادى" الشائعة التي وجهت إلى النشطاء والأكاديميين المؤيدين للعدالة المستقلة غير الاستعمارية (بمعنى: تحرر الفلسطينيين)، الذين لم يتحدثوا مطلقًا باسم الجهاد، ومضايقة ركاب الطائرات الذين يحملون المصاحف أو الذين يظهرن أى نوع من الكتابة العربية (عبارة: "لن نسكت"، على سبيل المثال)، والمساواة المعتادة للإسلام بالفاشية، واختزال جميع أشكال المقاومة الفلسطينية فى الإرهاب، وتصوّر الحجاب كرمز للعجز والاضطهاد.

ربما تكون هذه الأمثلة قد ضُربت جميعًا من قبل الطلاب المصوّرين فى الملمصق، الذى وجد مزخرفًا بالألوان الزاهية فوق مبنى جامعة جورج واشنطن ذات صباح، فى بداية "أسبوع الوعى بالفاشية الإسلامية"، الذى أقيم تحت رعاية "ديفيد هورويتز". مصوّرًا ما يبدو أنه شخص عربى مرتديًا حزامًا ناسفًا ومشهرًا الكلاشينكوف، ويصف الملمصق الشخص بأنه "المسلم النموذجى". من المحتمل أن تكون هذه الصورة قد دخلت عقول أناس كثيرين عندما خطأ محمود أحمدى نجاد أمام الميكروفون فى جامعة كولومبيا الأرسقراطية. فى آخر الأمر، اعترفت مجموعة مكونة من سبعة طلاب من جامعة جورج واشنطن بتوزيعهم الإعلانات مع آخرين، والتي تقول: "هل تكره المسلمين؟ ونحن كذلك!!!". مدّعين أن الرسائل قصد منها أن تكون تهكمية. هذا الاعتراف الذى لا يوجد لنا مبرر للشك فيه، تم

التغاضى عنه بشكل عام من قبل المجموعات الكثيرة والمعلقين الذين استكروا الملصقات، على ما يبدو لأن إقرارهم بغرضه التهكمي قد يكون مقوِّضاً للهدف من إثارة الانتباه إلى وإدانة ظاهرة الإسلاموفوبيا ذاتها، المنتشرة كالوباء فى الجامعات وفى الولايات المتحدة بشكل أشمل.

يمكننا أن نحقق هذه الأهداف بشكل أكثر فعالية باستكشاف الموقف بكامله، لأنه حتى لو كانت الملصقات تهكماً، فهى لا تغيّر أو تهدم العوامل المجازية التى تنتج لها أن تكون مؤثرة بطريقة ساخرة - بمعنى أن تكون مفهومة على أنها تصوير لوجهة نظر محددة، جسّدت برمزية خاصة. أريد أن أشير إلى أن الملصقات يمكنها أن تكشف الصورة السلبية للإسلاموفوبيا، بطريقة أشد عمقا، على أنها سخرية أكثر منها على أنها بيان رسمى حرفى. كيف يكون هذا ممكناً؟ يجب أن نتذكر أن الملصقات لم تكن فى الواقع مفهومة على أنها سخرية، وهذه حقيقة واضحة. إن مصداقيتها على الرغم من عنصريتها المفرطة وتصويرها الكاريكاتورى لعدو متعوذ منه، تتمّ عن انتشار واسع لظاهرة الإسلاموفوبيا، التى تمكّن تصوراتها عن العنف الإسلامى من أن تكون معتادة بالتقادىم. إنه بالضبط بسبب وجود الإسلاموفوبيا فى الولايات المتحدة، يمكن أن يقرأ الناس هذه الصورة المبالغ فيها على أنها حقيقية تماماً. إن السخرية لم تتجح رغم ثقل وطأتها لأنها لم تكن قادرة على أن تعزل نفسها بشكل كاف عما حاولت أن تسخر منه.

يمكننى أن أرتدى قميصاً يعلن، باللغة العربية : "أنا أحب أمريكا"، أو أى عاطفة وطنية أخرى بقوة، وينتهى بى الأمر إلى السجن. بكل أسف، أنا لا أبالغ. مثل هذا القميص يمكنه حرفياً أن يذهب بى إلى السجن. هذه السخرية قد تكون مضحكة - تماماً مثلما قد تكون سخرية طلاب جامعة جورج واشنطن مضحكة - إن لم تكن بسبب حقيقة أنها ترمز إلى نوع مختلف من الواقع السياسى: أمة مريضة بالإحجام عن مناقشة العقائد المصوّرة الناتجة عن رغبة إمبريالية، أمة ليس لديها القدرة على التعبير عن شكل واحد فقط للعاطفة الوطنية ليس عنصرياً

بشكل ضمنى أيضاً. أريد أن أمثل هذه النقطة بأن أصبح وطنياً مهتداً، ولكن ليس لدى الرغبة فى إغراء المرض القومى لىظهر على جسدى السليم. علاوة على ذلك، مثل محمود أحمدى نجاد هذه النقطة سابقاً عن غير قصد من أجلنا جميعاً.

أين تبدأ هذه العملية؟ فى أى ظروف، بمعنى آخر، هل الرمز العرقى يتطور ثم يصبح بعد ذلك تصويراً سلبياً مقبولاً على نطاق واسع؟

من الصعب الإجابة على هذه الأسئلة بدقة لأن نشر الصورة العرقية عملية معقدة وليست مستقرة تماماً. الصورة تنتشر من خلال مستويات مختلفة، وأحياناً متنافسة، من المجتمع وتتطور باستمرار مبنية على مصادمات مع أشكال مختلفة من القوة. إلا أن المواصفات المجازية للإسلام كعامل مساعد للعنف المتخيل متشابهة إلى حد كبير لدى كل من اليسار واليمين فى الولايات المتحدة. ونحن نعلم بالفعل أن العملية ليست عشوائية أو صدفة. أو، بمعنى آخر، لو أصبح أحمدى نجاد الشاه القمعى لإيران بدلاً من الرئيس القمعى لبلاد عدو، فإنه سيُرحبُ به بكل تَأَلُّق من قبل وسائل الإعلام المشتركة، ومن قبل "لى بولنجر". كان "بولنجر" يودى نوعاً مختلفاً من التأثير فى نفوس المشاهدين فقط، وكان هذا الأمر مسرفاً بصورة لا تعرف الخجل، لكنه أدى خدمة للهدف الصحيح ذاته.

متعصبو العقيدة السرية

إن الإلحاد متناقض ظاهرياً بطبيعته. عملية وصف الكفر عقائدية في الأساس. بمعنى، في تجسيده الأكثر صراحة، فإن الكفر أمر شخصي إلى حد بعيد، ولكن عندما يُميز الكفر ويُصنّف يصبح عامًا إلى حد ما. هذه هي الخاصية التي يواجه بها الإلحاد المشكلات، عندما يتطور من كونه وجهة نظر شخصية إلى فكرة عامة.

الإلحاد الصريح غير ثابت أيضاً، لأن تفسير الإلحاد يحتاج إلى أن يعلن الملحد إلحاده. الإلحاد، بمعنى آخر، يعمل بشكل أفضل كرؤية شاملة للكون والحياة الإنسانية، أو كفلسفة تستعصى على التحديد. لا يؤمن الملحدون بوجود الله، ويعارضون بصفة عامة الأديان التي تنشأ من الرغبة في العبادة. أشياء كثيرة تثير الإعجاب بالناس الراغبين في مناقشة الدين والمقدس، والذين يفترض أنهما محصنان من الاستهزاء أو الإهانة، وهو مبدأ غير ملائم، يسوغ بيرر إعادة النظر في الأمر. المشكلة هي أن الإلحاد في حالات معينة يتبنى الأسلوب نفسه الذي ينتقده عن استحقاق في الدين.

لا يحتاج الإلحاد إلى أن يوصف على أنه كفر فقط. إنه إيمان بعدم وجود الله، على الرغم من صعوبة التعبير عن الإيمان بنقيضه. بالإضافة إلى المسألة الأساسية حول الله، مع ذلك، يلتزم الملحدون بصور مختلفة من الإيمان، بعضها لاهوتي وجميعها سياسي. أولئك الذين لا يؤمنون بوجود الله متنوعون بشكل ملحوظ في الرؤية الشاملة للكون والحياة، أخلاقياً وفلسفياً. إنهم ينبغي ألا يتحولوا إلى مجرد نزاعين إلى الشك .

إن هدفي في هذا المقال ليس استقرار صحة أو خطأ افتراض أنه لا يوجد إله. بمعنى، أنني لا أهتم بذلك كثيراً. الإيمان أو الكفر بالله شأن شخصي - على

الأقل ينبغي أن يكون كذلك. بالنسبة لى، على أية حال، هو شأن شخصى، وهو مسألة لا أجد لها ذات أهمية معينة فيما يخص التفكير فى دقائق الكون. دعونى أصوغها هكذا : إذا استطعنا فى هذه اللحظة إثبات أو نفى وجود الله (ونحن لا نستطيع ولن نستطيع أبداً)، فإننى سأفضل فى رؤية كيف ستكون حالة العالم الراهنة قد تغيرت إلى الأبد. سيظل الناس جوعى، لأن الإله الموجود أو غير الموجود، من حسن الحظ، ليس لديه النية فى مشاركتهم ثروتهم المتفاوتة. سيظل الناس يشنون الحروب لأنه فى النهاية سيمكن للإله أن يبرر حرباً أو يحركها، ولكن بعض الحروب تُشن فى الواقع بسبب آلهة متنافسة - إنها تُشن بسبب الأرض، والسلطة، والموارد وأشياء أخرى من جشع الطبقة العليا. بدون الإله، سيكون الناس حمقى تماماً مثلما يدعى الملحدون أن الدين يصنعنا.

الكثير من الملحدين يعتبرون الإيمان بالله مسئولاً عن خلق الأوضاع التى تمكّن أو تنشئ الأعمال الوحشية - مثل نزع الملكية والإبادة الجماعية. إنهم على حق إلى حد ما، ولكن ليسوا على حق تماماً لأنهم متفائلون أكثر من اللازم. فى الواقع، إن لم يكن الله موجوداً لتبرير المشاركة البشرية فى الظلم، فإن الناس لن يضيعوا وقتاً حتى يجدوا البديل المناسب.

بافتراض عدم اهتمامى بالمسألة الأساسية حول الله، أنا لا أريد أن أدخل فى مناقشة لاهوتية أو فلسفية حول الله، كحقيقة مادية أو كتجريد ميتافيزيقى. أنا لست مؤهلاً لهذا النوع من المناقشة ولست مهتماً به على حد سواء. إننى مهتم أكثر بالمعنى الثقافية بالزيادة المفاجئة التى حدثت مؤخراً للإعلانات الإلحادية، التى شابته الكتاب فى طولها، خاصة فيما يتعلق ببعض القضايا الملحة الأخرى فى الولايات المتحدة. نحن نرى الآن ما يمكن تسميته حركة إلحادية. فى أى أحوال نشأت هذه الحركة؟ وما الشئ، كما هو مصور عن طريق أحدث الكتب التى تلقى الضوء على الإلحاد، الذى تتشغل به الحركة الإلحادية اليوم أخلاقياً وسياسياً؟

إننى أتأمل بشكل خاص فى ثلاثة كتب: كتاب "سام هاريس": "رسالة إلى أمة مسيحية"، وكتاب "ريتشارد داوكينز": "وهم الإله"، وكتاب "كريستوفر هيتشينز": "الرب ليس عظيماً". جميع الكتب الثلاثة فى قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، وتم تأليفها بواسطة أناس مشهورين فى مجالات أخرى - بمعنى، بواسطة أناس مؤهلاتهم الفكرية شاملة ومتنوعة. لا أحد من هؤلاء المؤلفين هاجم أو كاتبٌ مثير للجدل. جميعهم، على أية، برعوا فى تأليف كتبٍ قذرة ومثيرة للاشمئزاز .

هذه الكتب، التى لا تظهر بوضوح الحركة الإلحادية الجديدة ولكن تمثلها بالتأكيد، هى سمات رديئة لعصرها. إذا كان الدين، كما يزعم المؤلفون، قد أدخل إلى العالم اللاعقلانية والتعصب الكاملين، عندئذ يثبت المؤلفون ذلك دون قصد بقيامهم بهذا الزعم. إنهم يستخدمون فن الخطابة بدقة لضرب أمثلة لما يدينونه. (هاريس: "هناك ملايين - وربما عشرات الملايين - من المسلمين الذين يرغبون فى أن يموتوا قبل لأن يسمحوا لك بتفسير رغبتك فى أن تحصل على موطنٍ قدم فى الجزيرة العربية" (٨٨)، "فى كل مكان من أوروبا المجتمعات الإسلامية، غالباً ما تبدى ميلاً لاكتساب القيم الدنيوية والمدنية للدول المستضيفة لها، وعلاوة على ذلك يستغلون هذه القيم إلى أقصى حد، طالبين التسامح مع كراهيتهم للنساء، ومعاداتهم للسامية، وكراهيتهم الدينية التى يدعون لها فى مساجدهم" (٨٤)، "المشكلة فى الدين - كما فى النازية والستالينية أو أى أساطير شمولية - هى مشكلة العقيدة نفسها" (٤٣). "القيمة الحقيقية الوحيدة لكتب" رسالة إلى أمة مسيحية " و"وهم الإله"، و"الرب ليس عظيماً" هى تفسيرها المتعصب لكيف أن كونك متديناً يكون أحياناً لا صلة له بالدين. إنها تفسر أيضاً حقيقة أن التزمّت غير منفصل عن الإخلاص، أو أن الإخلاص ليس مقصوراً على الانتماءات الدينية.

إننى مؤيد بشدة للانتقادات المثمرة ضد الغشّ الدينى، والذى يتوافر منه الكثير حول العالم، هذا التوافر المؤسف هو الخاصية العالمية الحقيقية الوحيدة للدين. الدين المنظم ينتج أو يكون متورطاً فى جميع أنواع الأشياء المرعبة،

ويشارك بنصيبه العادل من البلاهة في العالم، ولكنني أجد أنه بالمثل من البلاهة أن نهاجم الدين بتكرار نزعاته الاستبدادية. أعظم فائدة لانتقاد الدين ليست الجراءة بإنكار وجود الإله، ولكن مدلول تجنب الإذعان والانقياد، ونشر مبادئ الاستقلال التحليلي. إن تحدّي الدين مفيد على الأكثر عندما يشجعنا على أن نفكر من أجل أنفسنا، بدلاً من تكرار ما تقرّر سلطة النصوص أن نفكر فيه، إن تجنب التكرار هذا يجعلنا عرضة للاستخدام بشكل أقل كعوامل اجتماعية وسياسية. معتمدين على وقاحته الخطابية، يبدو أن "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" يريدون أن يستبدلوا بالدين تنويرهم العقليّ الخاص، وهو بديل غير معنن لكنه واضح، للسلطة.

يفخر "داوكينز"، على سبيل المثال، قائلاً: "أن تكون ملحدًا فهذا شيء لا يعتذر عنه". على العكس، إنه شيء يجلب الفخر به، والوقوف عاليًا لمطاوله الأفق البعيد، لأن الإلحاد يدل تقريبًا على استقلال سليم للعقل، وعلى عقل سليم في الواقع" (٣). يختار "هيتشينز" هذا الرأي موضحًا "نحن الملحدون لا نحتاج إلى أي قساوسة، أو أي سلطة كهنوتية علينا لتحرس عقيدتنا". القرابين والطقوس مكروهة عندنا، مثلها مثل الخرائب المقدسة وعبادة أي صور أو أي شيء من الأشياء (حتى لو شملت ما كان في شكل أكثر اختراعات الإنسان فائدة : الكتاب المجلّد) (٦). يتحدث "هاريس" مباشرة إلى قارئه المفترض: "أود أن أقر بأنه يوجد العديد من النقاط التي نتفق عليها أنت وأنا. نحن نتفق، على سبيل المثال، على أنه إذا كان أحدنا مصيبًا، فالثاني مخطئ" (٣).

هذه الآراء متعالية وسطحية بشكل نمطي. فهي تمثّل موضوعًا شائعًا في الكتب الثلاثة : الملحدون أكثر نكاه وأكثر صحة وأكثر تكيفًا من المتدينين. إلا أن هذه النقطة نوقشت بطريقة سيئة للغاية لدرجة أن حمقى المتدينين يمكنهم أن يكشفوا سفاهتها. افتراض أن الملحدون غالبًا ما يكونون أكثر سلامة من الناحية العقلية، يمكن إقامة الدليل عليه تمامًا مثل فكرة أن التعليم يجعل الناس أفضل من الناحية الأخلاقية. بالنسبة لـ "هيتشينز"، فإنه لم يفعل أكثر من تقديم عرض للقضية دون

استنتاج منطقي. إنني مسيحي أرثوذكسي، ثقافياً على الأقل. لا أريد من أي شخص أن يحرس عقيدتي، أيضاً. ولا هي قضية أن القرايين والطقوس تؤدَّى بالضرورة عبادة للرب. معظم الطقوس، أودَّ أن أحمَن، تؤدَّى لهدف ما آخر. من الصعب الردَّ بجديَّة على فقرة "هاريس". فهو يستخدم كتابه كلَّه محاولاً أن يبرهن بحماس أن افتراضه صحيح تماماً، ولكن مع ذلك كان لديه الأريحيَّة بأن يعرض خيارين: أن توافقه على كل شيء يقوله، وإلَّا تكون مخطئاً. ربما كان "داوكينز" واضحاً "هاريس" في حسبانته دون وعي منه عندما جاء بعبارة "وهم الإله".

إنني لست مهتماً بالرد على الملحدِّين الجدد بمجرد الطعن في دوافعهم، لأنهم انكشفوا من خلال بدائل خطابية عديدة. قد يكون أكثر إفادة أن يتم التآريخ لهذا الإلحاد الجديد. إنها ليست مصادفة، على سبيل المثال، أن ظهور الإلحاد في السوق الأدبي والفكري يأتي في فترة إسلاموفوبيا صريحة في الغرب. إن "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" يقدحون في جميع الأديان: إنهم ثابتون في اعتقادهم بأن الدين، بحكم طبيعة الحال، يحتمل النقاش والجدل ومن الأفضل إبطاله. وقد أثرت الإسلاموفوبيا، على كل حال، في السوق بما جعل كتبهم تصبح الأكثر مبيعاً. وإنه بمناسبة الإسلاموفوبيا أصبح الإلحاد أكثر إغراء وإقناعاً.

المؤلفون ليسوا محايدين تماماً في إدانتهم للدين، فهم يستشهدون بالإسلام في اللحظات التي يُفترض أن تكون مهمة خطابياً. فقد ركَّز "هيتشينز"، مشهراً، على ما اعتبره تخلفاً إسلامياً، وفي كتاب "وهم الإله" يقول "داوكينز": "أحد أكثر المناظر تعاسة، والتي يمكن أن نراها في شوارعنا اليوم، هو صورة امرأة متشحة بالسواد الذي لا ملامح له من الرأس إلى أصابع القدمين، وهي تنظر إلى الدنيا من خلال فتحة صغيرة جداً. إن البرقع ليس مجرد أداة اضطهاد للنساء وقمع ديني لحريتهن وجمالهن، وليس مجرد رمز للقسوة الذكورية الفظيعة والخضوع الأنثوي المذعور بشكل مأساوي" (٣٦٢). فتحة البرقع التي يستمر "داوكينز" في التنظير لها هي الرمز الاستعاري للحرية التي يبشِّر بها الإلحاد. "هاريس"، من ناحيته، يصف الإسلام بأنه الدين "الأكثر حدة".

قد يكون ليس من العدل أن نحاول إثبات أن الحركة الإلحادية الجديدة هي منتج جانبي للإسلاموفوبيا، لكن الإسلاموفوبيا توفر الكثير من الأرضية المضمونة للكتب وللتقافة التي تستجيب لهذه الكتب. الإلحاد الجديد إذن معتمد جزئياً على الإسلاموفوبيا، التي تنشأ في الأصل من ثنائية استعمارية للحدثة وما قبل الحدثة، وهي بنية زمنية يكررها كل من "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" من أجل جعل الإلحاد متحضراً بشكل قياسي. يصبح الإسلام هو الآخر النموذجي في مقابل الإلحاد. إذا حدث وحول أي شيء الغربيين عن الثقة في الدين، فيسكون الإسلام الغريب والعنيف المقدم لهم باستمرار في التحليل الثقافي والجيوسياسي، وهي ملاحظة يحاول "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" إثباتها ثم استغلالها بعد ذلك.

إليك هذا المثال من "هاريس"، الذي يشرح قيمة الإسلاموفوبيا لقارئه المسيحي المفترض:

لماذا لا تزعم كثيراً حول ما إذا كنت ستؤمن بالإسلام أم لا؟ هل يمكنك أن تثبت أن الله ليس هو الإله الحقيقي الواحد؟ هل يمكنك أن تثبت أن رئيس الملائكة جبريل لم يزر محمداً في كهفه؟ بالطبع لا. لكنك لن تحتاج إلى أن تثبت أيًا من هذه الأمور، كي ترفض معتقدات المسلمين على أنها منافية للعقل. إن عليهم عبء إثبات أن معتقداتهم حول الله ومحمد صحيحة. لم يفعلوا ذلك. ولا يمكنهم فعل ذلك. إن المسلمين ببساطة لا يقدمون مزاعم حول حقيقة يمكن إثباتها. هذا واضح تماماً لأي واحد لم يخذل نفسه بعقيدة الإسلام.

الحقيقة هي، أنت تعرف بالضبط ما ستكون عليه بكونك ملحدًا فيما يخص معتقدات المسلمين. أليس من الواضح أن المسلمين يمدعون أنفسهم؟ أليس من الواضح أن أي واحد يعتقد أن القرآن هو الكلمة المثالية لخالق الكون، لم يقرأ الكتاب بشكل نقدي؟ أليس من الواضح أن تعاليم الإسلام تمثل مانعاً شبه كامل أمام البحث النزيه؟ نعم، هذه الأمور واضحة. (٧)

تماشياً مع الموضوع: الإلحاد الجديد، كما يقدمه مفكروه البارزون، ينتمي إلى عالم الغطرسة الذكورية البيضاء. نموذج الإلحاد الذي يشجعه "هاريس"

و"داوكينز" و"هيتشينز"، معتدًا بنفسه وأوربي النزعة بشكل واضح. (يريد "داوكينز" أن يُطلق على الملحدّين "أذكفاء"، وهي فكرة يعترف "هيتشينز" بأنها مغرورة). إن منطق إلحادهم هو بشكل أساسي عبارة عن مبادئ تنويرية مستعادة، تم إعدادها للنماذج المعاصرة في مواجهة الظروف الجيوسياسية الحديثة. لا أحد من الكتاب يستكشف بصورة جيدة أصالة الإلحاد التاريخيّة الخاصة، مما يؤدي إلى فراغ منهجي فاضح. المنهجية التي يستخدمونها في الواقع ساذجة بشكل واضح وتتجاهل وفرة التحليل الفلسفي للدين، الناشئ من مجتمعات شرقية وأصلية مستعمرة سابقاً. في غياب التدقيق الكافي في هذه المصادر والتراثات، يظهر "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" واحداً من أخطائهم الخطابية الرئيسية : الثقة المفرطة في صحة قومية التنوير الغربي. (هناك استطلاع أكثر إقناعاً حول السياسة والدين يمكن أن تجده في كتاب "ديفيد هارست توماس "حروب العقل").

ليست مفاجأة، أن الإلحاد في هذا الإطار غالباً ما يقوم مقام العنصرية الضمنيّة - أو على الأقل، تلحق العنصرية نفسها ضمناً بأداة فكرية متيّمّة بمعتقداتها الموضوعية المفترضة. الهدف هو أن سبق "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" يعتمد على الأفضلية التي لا تنازع للعلم الغربي وتنزهه الأخلاقي المزعوم عن أي خطأ. الكتاب الثلاثة جميعهم يسردون بابتهاج تورط الدين في الظلم، لكنهم يتجاهلون أتمام العلم الغربي التي تشمل المشاركة في هولوكوست النازية وتبرير استعباد البشر طبقاً لشكل الجمجمة، وقرناً من الاضطهاد للهنود الحمر. العلم الغربي، وليس الدين، اخترع وأباح العنصرية الحديثة، رغم أن الدين متورط بعمق. يسقط المؤلفون الطرق التقليدية للمعرفة من الاعتبار - التي تميل لأن تكون "دينية" بشكل مجرد، مع أنها ليست كذلك تماماً في الاستخدام الغربي - باعتبارها خرافة عديمة الجدوى. إنهم يردون التاريخ الحافل للاهوت الإسلامي إلى عالم المجانين. إنهم يرفضون بتعالٍ العلاقة المتبادلة والمعقدة للرقابة الدينية مع الفقر والظلم. هناك ما يزيد عن ستة ملايين من الشعوب ذات الدين في العالم، كل

من هذه الشعوب له علاقة فريدة بإله أو مجموعة من الآلهة، وكل منها يلتزم بمستوى مختلف من العبادة. وطبقاً لـ "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز"، مع ذلك، جميع الشعوب ذات الدين متماثلة بشكل أساسى. لا يُحتمل أن يكون كتاب مقدس مسبباً لهذا الاختزال .

بإمكان المرء، إلى حد ما، أن يتخيل كل مؤلف وهو يتأمل فوق سحابة من المغالاة المخملية، واضعاً سبأته تحت ذقنه، وتجاعيد عمودية تفصل بين حاجبيه المغضنين، مرتدياً الأثواب البيضاء الفخمة للكمال الفكرى، واضعاً اللمسات الأخيرة على بحثه العلمى العظيم : العلم الغربى، الصالح. الدين، الفاسد .

كل مؤلف متأكد من أن العلم هو عملية تغوّط مجازى لا تصدر نتناً. لكن لنكن صرحاء: لقد أكد العلم فقط كثيراً مما قاله القرآن سابقاً حول سير العالم الطبيعى، وفى أمريكا الشمالية كان العلم متأخراً عدّة آلاف من السنين عمّا عرفه السكان الأصليون بالفعل، من خلال منظومات دينية، حول تشريح جسم الإنسان ونظم الحفاظ على البيئة المحلية. كيف يتصرف العلم فيما يخص البيئة هذه الأيام، بالمناسبة؟

هناك ما لا يحصى من الأشياء الجيدة يمكن أن تقال عن العلم، فيه نكتشف جميع أنواع الحلول المهمة للمشاكل الخطيرة. المجتمع الذى يعلى قيمة الدين والعقيدة فوق العلم هو مجتمع متّجه إلى أن يصبح قمعيّاً. الدين لا يجب أن يصنع سياسة، العلم الجيد هو الذى يجب أن يفعل ذلك. إن هدفى هو ألا يحطّ أحد من قدر العلم. هدفى هو أنه بإمكان المرء اختزال العلم بالضبط إلى ما يختزل "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" الدين إليه، باستخدام المنهجية نفسها. من هنا فإن الشئ الأكثر إثارة للاعتراض فيما يتعلّق بمنهجياتهم هو حقيقة أنهم ينتقون الدليل انتقاءً ليدعموا فرضيةً اختزاليةً متوحشة. الجانب الأكثر إزعاجاً فى هذه الفرضية هو استخدامها لخطابات عقائدية وعنصرية تجعل الأداة الفلسفية للإلحاد ذات حدود مشتركة مع مقومات الدين، التى تعارضه بتعصّب شديد.

لا توجد سابقة على الإطلاق ترى أن الانصراف عن الدين وإخلاص الولاء للعلم سوف يجعل الناس غير ميّالين مرة أخرى لارتكاب الظلم أو التصرف بلا عقلانية. "هيتشيز" المؤيد للحرب بتعصب، والذي يستمر في الدفاع عن الغزو الأمريكي المشنوم للعراق، هو دليل واضح على هذه الحقيقة. وإذا كان الإلحاد يجعل الناس أكثر عقلانية، إذن فكيف يمكن أن يكون "هيتشيز" أحد المتحدثين الرسميين باسمه؟ إن مواقفه السياسية تقوّض صميم فرضيته حول الدين.

هناك الكثير من الأدلة، في الواقع، تبيّن أن الارتباط بمعتقدات السكان الأصليين التراثية ينتج في الغالب إنساناً أكثر تحملاً للمسئولية. إنها تشير، على أية حال، إلى أن بعضاً من أبغض أنظمة الحكم في العالم أصبحت علمانية اسماً (إن لم تكن لا دينية بالكامل): بريطانيا في فترة الإمبراطورية، وإسرائيل، وفرنسا الاستعمارية، وألمانيا النازية، وأمريكا الاتحادية.

ملح مزعج آخر في هذا الإلحاد الجديد موجود في كتاب "وهم الإله". يتساءل "داوكينز" لماذا لدى الملحدين هذا العدد الضخم والتأثير السياسي الضعيف جداً: "إن وضع الملحدين في أمريكا اليوم مساوٍ لوضع المثليين منذ خمسين عاماً" (٤). وهو يستنتج أنه بسبب أن الملحدين مستقلون فكرياً جداً ومتمردون، من الصعب تنظيمهم: "في الواقع، أصبح تنظيم الملحدين شبيهاً برغى قطع من القسط، لأنهم يميلون إلى التفكير باستقلالية ولن يتوافقوا مع السلطة" (٤). أود أن أبين أن رَغَى قطع الملحدين صعب لأن الإلحاد لا يَكَيْف نفسه مع نوع التنظيم السياسي الذي تصوّره "داوكينز". إنه يريد من الملحدين أن يتجمعوا ككتلة سياسية إلى جانب مجموعة من المصالح، ولكن في اللحظة التي قدم فيها هذا الاقتراح كان الإلحاد قد أصبح من الصعب تمييزه عن الجماعات البروتستانتية واليهودية على هضبة مبنى "الكابيتول". لقد أصبح جماعة دبر الإله دخولها في الحراك السياسي. إن نسخة "داوكينز" من الإلحاد هي مجرد دين آخر.

في موضوع واحد يبشّر "داوكينز" بمعتقده الجديد، دون لمحة سخرية: "إذا عمل هذا الكتاب كما أقصد، فالقراء المتدينون الذين يفتحونه سيكوّنون ملحدين حالما ينتهون من قراءته" (٥).

في مقدمة كتاب "الرب ليس عظيماً"، يوضح "هيتشينز" أن أحد الاعتراضات الإلحادية الأربعة الرئيسية على الدين هو أنه "يتمكن من الربط بين أعلى درجات الخنوع وأعلى درجات حب النفس" (٤). أنا أتفق مع جوهر رأى "هيتشينز". يجب أن نهاجم أى شيء يشجع على الخمول أو اللامبالاة فى الناس، وغالبًا ما يكون الدين مدانًا بتشجيعه كليهما. (بترك الأمور "فى يدى الإله"، على سبيل المثال، يمكن للمؤمنين أن يبادروا إلى إلغاء جميع أنواع الظلم التى تعتبر قابلة للتصحيح البشرى). ومع ذلك، لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يبذل الدين بالإلحاد على أنه علاج قابل للتطبيق. جميع المؤسسات العلمانية تدفع إلى الخمول واللامبالاة السياسية: وسائل الإعلام المشتركة، التعليم الثانوى وما بعد الثانوى، الترفيه، الرياضة، وطبقًا لزميل "هيتشينز" المشوّش "ريتشارد داوكينز"، الإلحاد. مشكلة الالتزام ليست دينية محضة بشكل كامل، إنها مشكلة شاملة تتطلب اهتمامًا جادًا أكثر بكثير مما يخصصه لها "هيتشينز".

مشكلة أخيرة للإلحاد مسلط عليها الضوء فى كتاب "رسالة إلى أمة مسيحية". فى بداية الكتاب، يلاحظ "هاريس": "رغم أن الليبراليين [المسيحيين] والاعتداليين لا ينقضون بالطائرات على المباني أو يؤسسون حياتهم على نبوة خاصة بسيفر الرؤيا، فإنهم من النادر أن يسألوا عن مشروعية تربية طفلة على أن تؤمن بأنها مسيحية أو مسلمة أو يهودية" (ix). إن "هاريس" مهوم بالتربية، مكرراً هذا الاحتجاج فى نهاية الكتاب: "فقط [يعد اكتشاف طبيعة الواقع] عادة تربية أطفالنا على أن يؤمنوا بأنهم مسيحيون، أو مسلمون أو يهود، ستُدرَك بشكل عام على أنها قذارة سخيفة" (٨٨). هنا يجعل "هاريس" الدين مرتبطاً بالكتب المقدسة بشكل

حصري، وهو فهم ضيق بشكل عجيب للمسيحية والإسلام واليهودية، وللدين عموماً. إنه يتجاهل الدين كأداة ثقافية، لا يمكن ببساطة تجاهلها أو التغلب عليها.

هناك الكثير من اليهود لم يضعوا قدماً أبداً في المعبد لكنهم فخورون بكونهم يهوداً ثقافياً. أن نطلب من الآباء اليهود ألا يربّوا أطفالهم على أنهم يهود مثلما أن نطلب من الآباء الأمريكيين الأفارقة ألا يربّوا أطفالهم سوداً. إنني مسيحي أصليّ بالثقافة، وحتى لو لم أرسل أطفالى إلى الكنيسة، فإننى سوف أشرح لهم ما يعنيه أن يكون لديهم صلة بمحدّد الهوية هذا. إنه هو الذى سيربطهم بثقافة أجدادهم ويصنع علاقات بأولئك الذين سبقوهم. البيض المتعصبون لأوروبا والأوروبيين مثل "هاريس" ليس لديهم أبسط فهم لما يعنيه أن تنتمى إلى شىء ذا معنى جماعى وجميل ثقافياً، شىء ما يسخر نفسه للرؤية الشاملة للعالم والحياة الإنسانية ولغة الجماعة، للصوت والعلاقة، لجوهر من نحن فى أبسط حالاتنا وأعقدها، شىء ما لا يمكن سوى أن يُجرّب لأنه لا يمكن وصفه بدقة إذا فصل عن ممارسته اليومية. إننى أتحدث عن حيوية وبراعة تاريخ جماعى مشترك يجعلنى كل شىء أكونه أو أريد أن أكونه. كل الناس المتأصلين فى التواريخ القديمة الحقيقية غير الغربية يعرفون بالضبط ما أقصده، قليل منهم قد يحلم بمقايضة" من يكونون هم " بأى شىء سمح ومتعصب كالإلحاد الغربى. يعتمد "هاريس" على منطق فاتر، فى غياب الوجود الوجدانى المفعم بالعاطفة. إذا زعم "هاريس" فيما عدا ذلك وجوداً عادياً مألوفاً ونشطاً، فإنه يفشل فى توضيحه فى أى مكان من كتابه .

وينظر "هاريس" كذلك إلى التعليم الدينى بسطحية. التعليم الدينى، على سبيل المثال، هو حجر الزاوية لثقافات السكان الأصليين، الظاهرة الحقيقية التى تجعلهم متميزين. مطلب عن ثقافتهم، وهو شىء يفعله "هاريس" بالإصرار على أن الناس يهجرون جميع أشكال الدين والعبادة، قد ثبت مرة بعد أخرى أنه فكرة مفزعة، فكرة أقرّ جميع الباحثين وصناع السياسة تقريباً بأنها غير أخلاقية إلى حدّ بعيد. ولا أحد يمكنه بحق أن يلقى بنبعة شرور العالم على الشعوب الأصلية. إذا حدث ونجح

"هاريس" فى أن يحول الهنود الحمر إلى ملحدين عاديين، فإنهم سيزولون سريعاً بعد ذلك. يؤيد "هاريس" بشكل أساسى التطهير العرقى التطوعى ضد أولئك الذين لديهم ممارسة الدين شىء غير منفصل عن إنسانيتهم .

إن عرض "هاريس" للإلحاد مبتذل بشكل كامل، ولكن ليست هذه مشكلته الأكبر، فالطريقة التى يريد بها "هاريس" للإلحاد أن يُمارس، صارخة بشكل ضمنى.

يعانى "داوكينز" و"هيتشينز" من الضمور الأخلاقى نفسه. إذا حدث ومارسنا الإلحاد طبقاً لمخططهم (وهم لا يتركون لنا خياراً آخر)، عندئذ سنصبح جميعاً أشخاصاً بيضاً مفعمين بالغرور، مع شعور متطرف بالامتياز، ينتحبون على التمييز الذى نعانى منه. أما إذا احتفظنا بهويّاتنا الخاصة كبشر متدينين أو روحانيين، إلى أى درجة، فسنكون مخطئين. جميعنا. لأن الدين، بالطبع، جامد وقطعى.

رغم أن "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" فشلوا إلى أبعد حد فى محاولاتهم، فقد يكون مفيداً لشخص ما أن يكتب كتاباً معاصراً رصيناً عن الإلحاد. على أية حال، فأنا لست متأكداً تماماً أنها فكرة جيدة. كلما أصبح الإلحاد قائماً أكثر على النصوص كلما تشابه أكثر مع الدين. إن تفرده وقيّمته تكمن فى الغياب الطبيعى لانتظامه، وليس فى قابليته لأن يقدم بشكل متماسك. عدم الإيمان بالإله قضية معقولة تماماً، وبإمكان المرء أن يتبنى هذه القضية من أجل حياة سعيدة ومثمرة. لكن المشكلة ليست الإله ذاته، المشكلة فى جعل الإله ماثلاً فى منظومات دينية ونصوصية واجتماعية وسياسية. إذا جعلنا عدم وجود الإله حاضراً فى تلك الأنظمة، عندئذ سوف لا نتجنب مشكلة الدين، بل سنوجدنا ثانياً.

يمثل "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز" نسخاً قليلة من الإلحاد، وليس الإلحاد نفسه، الذى هو مفيد لكل من الملحد والمؤمنين معاً. فى النهاية فإن كتبهم تشتمل على مجادلات مقبضة للنفس موجهة من خلال خطابة مضللة. إذا كان المنطق

الذى يعرضونه ينتظرنا، إذن، فأنا لست آملاً للغاية فى ذلك اليوم المجيد عندما يُظن أن الدين أصبح مهجوراً، ومستبدلاً بأشياء تدعى أنها أكثر عقلانية وعاطفة. إن مسألة وجود أو عدم وجود الإله، لا تهتم كثيراً الآن، لأنه، كما أوضح "هاريس" و"داوكينز" و"هيتشينز"، فى عالم بدون الإله، ستظل البلاهة حيّة وبخير.

خاتمة

إننا نعيش في عالم فيه يمكن لواحدة متزينة من المؤيدات لحقوق المرأة، من اليسار الأمريكي، أن تصور " المقاومة العراقية " - كما لو أنها شيء واحد - على أنها مجموعة لا تتغير من المجرمين المتوحشين. إنها تصف المقاومة العراقية بصفة المفرد لأن استعمالها للألفاظ يجعلها ذات ارتباط بجميع أفراد الشعب العراقي. ردًا على رأى من "ألكساندر كوكبيرن" بأن التقدميين يبدون تضامنًا أكثر مع المقاومة العراقية، تتساءل هذه المؤلفة الحكيمة، "مع من، بالضبط، يظن أننا نبدى التضامن؟ القاعدة في العراق؟ الشيعة الذين يذبحون جيرانهم السنة؟ السنة الذين يقتلون الشيعة؟ الرجعيون المتدينون الذين يغتالون الأطباء وأساتذة الجامعات والنساء العاملات والمسيحيين والطلاب والأزواج المسكين بأيدي بعضهم البعض؟"

إن سخريتها تعمل فقط على دعم الحقيقة القائلة بأن بعض الأمريكيين البيض، بما فيهم عضوات الحركة النسائية الليبراليات، لديهم وقت جهنمي يتمثلون فيه مع العرب، أو يحددونهم على أنهم بشر: "إذن، حسنًا، اعتبروني جاهلة: المقاومة العراقية غير مُسيطر عليها من قبل الثيوقراطيين والقوميين العراقيين والبعثيين المتعصبين والجهاديين والمختطفين وقاطعي الرؤوس والسفاحين؟"

بطريقة غير مبررة، المسيحيون المصورون بطريقة رومانسية أسهل في معرفة أحوالهم: "أعضاء الساندنيستا" [نيكاراجوا] (١) و"جبهة FMLN" (٢) [السلفادورية] كانوا بعيدين عن اليسارية الكاملة لكنهم كانوا يساريين. كانوا مؤيدين للرعاية الصحية والتعليم وتوزيع الأراضي والتحديث - ليس إحراق مستودعات

-
- (١) جبهة ساندنيستا للتححر الوطني هي حزب شيوعي سياسي في نيكاراجوا، تألفت من مجموعة عسكريين وسياسيين حكموا نيكاراجوا من ١٩٧٩ إلى ١٩٩٠. (المترجم)
- (٢) جبهة هذه الجبهة الآن عبارة عن حزب سياسي شيوعي منذ ١٩٩٢، لكنها تأسست سنة ١٩٨٠ متألفة من مجموعة منظمات عسكرية يسارية (المترجم)

الخمور ومحلات بيع أشربة الموسيقى وجلد النساء السافرات والتفجيرات الانتحارية ضد المدنيين العاديين وإعادة تطبيق الشريعة الإسلامية". فى الواقع، يوضح هذا التباين لماذا كان الليبراليون يوفرون وجبات غداء أو عشاء دعماً لأعضاء السانديستا وجبهة FMLN. "إذا قاوم الثوريون فى أمريكا الوسطى التدخل الأمريكى باسم محاكم التفتيش الإسبانية وقضوا كثيراً من الوقت فى تطهير جيرانهم عرقياً، فإنه من المحتمل أن اليساريين الأمريكيين لن يكونوا عندئذ متلهفين جداً لتقديم وجبات غداء أو عشاء دعماً لهم".

بهذه القطعة، نقلت "كاتا بوليت" نفسها إلى نوع من الكتاب يفترض أنها تمقته. إنها بالنسبة للعرب مثلما "رش ليمبو" ^(١) بالنسبة للنساء: إنها تطلق أحكاماً عامة بأسلوب متأنق ومتلطف، وخطابها يظهر بوضوح نوع اليقين الذى لا يمكن أن يصنعه سوى الخطأ. النسوية، هوية "بوليت" الخطابية، هى حركة من أجل العدل، لأنها تعين حدود العدل بتغذية النسوية بالعنصرية، حولت "بوليت" نسويتها إلى نفاق بكل معنى الكلمة. رغم ذلك، تفقد "بوليت" هدفها الخاص وهو: أننا يجب أن نبدى تضامناً مع "الأطباء وأساتذة الجامعات والنساء العاملات والمسيحيين والطلاب والأزواج الممسكين بأيدي بعضهم البعض" - بمعنى آخر، العراقيين. إنها تجعل الأمر يبدو كما لو أن التطابق مع المقاومة العراقية يقيدنا بالقاعدة والمهيجين الطائفين، إلا أن هناك الملايين من العراقيين التقدميين والعاديين يقاومون بطرق إبداعية. ولكن "بوليت" تحول جميع العراقيين التعساء بالاحتلال العسكرى إلى إرهابيين وسفاحين.

الأمر بكامله يجعلنى أشعر بأننى همجى. وأن أصبح همجياً هو ما يحدث فى الولايات المتحدة إذا أصر المرء على أن العرب ليسوا متوحشين. فالعرب يفترض أن يكونوا ما يريد اليسار الأبيض أن يكونه. لا يهم إذا كان اليسار الأبيض لا يعرف شيئاً عننا. إنه يعرف ما فيه الكفاية بأن عرف أن العالم الصالح لا يمكن أن

(١) مؤلف ومعلق سياسى أمريكى، ذو خلفية سياسية جمهورية (١٩٥١ - ..). (المترجم)

يوجد سوى في تصوّره الخاص، ولذلك فإن معرفة النفس تبطل المعرفة المتعددة ثقافيًا أو الشاملة. ومعرفة النفس، بالطبع، ترسل مباشرة من السماء (الديوية، بغزارة).

إننا نعيش في عالم فيه الكثير من الرؤى المغلوطة. اليوم، مع ذلك، التحدى الذى نواجهه والأكثر إثارة للحيرة، هو تطوير حوار جماعى مثمر. من السهل أن نصل إلى هذه النتيجة إذا أثبت المرء هويته كعربى، لأنه توجد فضاءات قليلة لدى اليسار أو اليمين فى الولايات المتحدة تُبنى فيها وجهات نظرنا المتنوعة بشكل جدى، وبترحيب أقل. إننا نأمل أن حوارًا مثمرًا - إضافة صفة "مثمر" يدل على أننا بالفعل سيتم الاستماع إلينا - يمكنه أن يبدأ عملية تجمع معًا حول ثقافات مختلفة، مبنيا على افتراض أن لا واحدة من تلك الثقافات فى حاجة لأن تكون مسيطرة أو معيارية .

أريد أن آخذ فى الاعتبار هذه الرغبة الواردة فى سياق تعليقات "بوليت"، لأن البعد الأكثر إزعاجًا فى مقالها هو اختزاله لجميع العراقيين فى أسوأ عناصر المقاومة ضد الإبادة الجماعية الأمريكية. إنها تثير بصورة نمطية افتراضات عنصرية حول العنف العربى على أنه نزعة طبيعية، مكيفة الموضوع بإثارته من الإطار الذى يتصور العرب على أنهم متخلفون بصورة لا يمكن تغييرها. تبرز "بوليت" أيضًا الوحشية العراقية، بمقارنتها بثورة أمريكا الوسطى، والتي تعتبرها أكثر أخلاقية بسبب وعيها الليبرالى. (الموقف يفترض أن موضوع الصراع بين الشعوب المضطهدة حول العالم، ينبغى أن يسعد الليبراليين، الذين من الصعب إرضائهم، وهو هنا يوجز مشكلة الليبراليين البيض بأكملها). بهذه الطريقة هى تبرر التعاطف الانتقائى بإدخال المعاناة البشر المعذبين إلى فئات متفاوتة أخلاقياً، أولئك الذين يحتلون المناطق العليا من السماح الليبرالى الأبيض بأن يكونوا جديرين بوجبات الغداء والعشاء دعماً لهم.

هذا الأساس المنطقي مدلس أخلاقياً. وهو كذلك مغالط فكرياً. قليل جداً من اليساريين البيض، في ذلك الوقت أو الآن، قدموا وجبات غداء أو عشاء دعماً للفلسطينيين الذين يواجهون لزمناً طويلاً تطهيراً عرقياً وحشياً، وهو وضع على الأقل قاسٍ تماماً مثل الثورات الشيوعية الزائفة في أمريكا الوسطى (التي غالباً ما تحل أنظمة سياسية مرعبة محل أنظمة سياسية مرعبة). أثناء الانتفاضة الأولى ١٩٨٧ - ١٩٩٠، على سبيل المثال، التزم الفلسطينيون إلى حد كبير بالمقاومة السلمية. لدرجة أن مدينة "بيت صابور" رُشحت لجائزة نوبل للسلام لعصيانها المدني المبدع والمرن مقابل الوحشية الإسرائيلية التي شملت تكسير عظام الأطفال، وهي جائزة بلا شك يجب أن تفوز بها، وكانت ستفوز بها لو أدان الليبراليون الأمريكيون والأوروبيون ما حدث. لم يتطابق الفلسطينيون مع وصف واحد من أوصاف "بوليت" للمقاومة العراقية (المختزلة كما هي)، ولذلك لا نستطيع "بوليت" أن تثير الاحتجاجات نفسها لتشرح الصمت من جانب اليسار الأمريكي فيما يتعلق ب- الفلسطينيين الذين، في الحقيقة، من المفترض أن يكونوا المتلقين المتألمين للدعم الليبرالي الغربي طبقاً للمعايير التي تعلنها "بوليت". لم يقدم اليساريون البيض من قبل وجبات طعام للأكراد، الذين كانوا ضحايا للغدر العراقي العربي. إنني لا أزال أنتظر أن أدعى إلى حفل تقديم وجبات غداء أو عشاء دعماً للضحايا اللبنانيين من جراء العدوان الإسرائيلي سنة ٢٠٠٦.

(على أية حال، وجبات الغداء أو العشاء تلك التي تقدم لصالح الحركات السياسية الأجنبية هي في معظمها دائماً لهوٌ لافائدة منه، إنها طريقة للتعبير المادي عن الرياء المغترّ بنفسه، الذي يمرّر نفسه على أنه تضامن حقيقي).

لننسى أمر وجبات الغداء والعشاء. الحقيقة المحزنة والعادية هي أن معظم الليبراليين البيض يقضون وقتاً عصيباً بشكل لافت للنظر، حتى يتطابقوا بإخلاص مع الحالات التي يتعاطفون معها. وهذا حقيقي خصوصاً عندما تكون هذه الحالات عربية أو إسلامية. يوضح مقال "بوليت" ما تشبهه تلك الصعوبة عندما تبدو كأنها

تحليل سياسى. إنها من الأسهل كثيراً لها أن تختزل الأجانب إلى أفعالهم الحسية، بدلاً من أن تأخذ الوقت الذى تحتاجه من أجل أن تفهم من يكونون هم على تنوعهم وتعقيدهم.

لهذا السبب، أنا متلهّف إلى أن أجد وسائل لبدء حوار مثمر حول قضايا متنوعة فى أماكن عديدة. إننا نعيش فى عالم يمكن فيه لواحدة متزينة من دعاة حقوق المرأة من اليسار الأمريكى أن تجادل من خلال عنصرية صارخة، لأن بعض الناس يبحثون فى من يكون الآخرون، بعيداً عن يقين المعرفة الثقافية الحتمية. فيما يتصل بالعرب، هذه المشكلة خطيرة، لأننا نوجد فى الحديث السياسى كشخصيات خيالية وليس كرواة. لسنا كاملين، بل ولسنا مميزين بشكل معين. ولكننا لسنا ما أراد مَنْ هم فى اليسار واليمين على السواء أن نكونه. نحن أيضاً نستحق بصدق ميزة أن نحكى قصصنا التاريخية والثقافية بأنفسنا. لماذا لا نريد ألا نمارس هذه الميزة الأساسية؟ نحن بالتأكيد لا نريد أناساً مثل "مايكل مور" و"كانا بوليت" أن يسردوا هويتنا. وهؤلاء أناس من المفترض أن يكونوا فى جانب الخير والتفكير السليم.

المقصد ليس الإقناع أو الإكراه، ولكن هو أن نصل إلى الاقتناع الحقيقى الذى ينتج عن امتلاك القدرة على أن نتحدث وعلى أن يُستمع إلينا. بلغة الأهداف الواقعية، سوف نحتاج إلى إنتاج مجموعة من الافتراضات الأساسية حول العرب والمسلمين مختلفة عن الموجودة حالياً. هذا الهدف سيؤتى ثماره فقط من خلال قبول الآخرين فعلاً لأن يستمعوا ويأخذوا فى الاعتبار إمكانية أن العرب ليسوا بالضرورة هم ما قرر الآخرون فى وقت سابق من يكونون.

من فضلك اختلف معى فى رأى، من فضلك ناقشنى، من فضلك أوضح لى أين أنا مخطئ، ولكن من فضلك لا تكن متأكداً بشكل قاطع من البداية أننى أمثل ثقافة أو رؤية شاملة عن العالم والحياة أدنى منزلة فى الأساس.

كل جماعة، عرقية أو سياسية، متشددة في حقها في أن يُستمع إليها وتمثّل على نحو صحيح. حسناً. هذه الرغبة معقولة كقضية أخلاقية واستراتيجية سياسية على حد سواء. لكن الرغبة تحتاج إلى أن تُعزّز: إنها تحتاج لأن تتحقق لا أن تطلب فقط. على هذه الجبهة، الليبراليون هم العدد الأكثر شعوراً بالإثم - بمعنى الأكثر نفاقاً. نظراً لهم، المحافظون الجدد، لا يتظاهرون حتى بأنهم يحبون أحداً آخر، مما يجعلهم مكروهين ولكن غير منافقين.

الحروب الثقافية في الأساس منتج جانبي للتطبيق الانتهازي للنفاق. نتيجتها الأولية هي إلغاء الميزات الأساسية للحوار. الحروب الهمجية، أمل أن، سوف تمكننا من التخلص من التعبيرات المبتذلة حول التسامح والتنوع والتعايش. هذه التعبيرات المبتذلة تسبب النفاق، لأنها تُؤطر التعامل بمقدمة منطقية أخلاقية زائفة. إنني أجد الأمر أكثر إمتاعاً إذا نجح تعاملنا في أن يظل همجياً. حتى إذا لم نجد أهدافاً عامة للحوار، على الأقل سنواصل بصدق.

لا أمانع في أن يُقال لي أنني مكروه بقدر ما أمانع في أن يقال لي كذباً إنني محبوب .

لا أحب أن يقال لي أنني مكروه، رغم ذلك. لقد كنت هدفاً للكراهية الضمنية والصريحة معاً. في تلك الحالات التي لم أعلق فيها عليها - بمعنى، عندما كُرهتُ ببساطة بسبب وجودي - ذلك كان يذكرني دائماً بشيء ما نتعاضى عنه في أحيان كثيرة جداً، لأن الضحايا لا يحبون أن يناقشوه والجنّة يتلذذون به: العنصرية مؤلمة إلى أبعد حدّ. إنها تطرد المودة ثم تمنعها من الرجوع. إنها تسبب الشك والقسوة. وتنشأ اجتهادات النظريات المعرفية من وجودها. ويحدث أن العلاقات الدولية تعتمد عليها. وما إن تنتشر العنصرية فإنه من المستحيل القضاء عليها. الشئ المفيد الوحيد الممكن عمله في حال وجودها هو الاعتراف بها والتفكير في طرق للتخفيف من هيمنتها، بشكل عام وبإخلاص، وهذه عملية تتضمن استكشافنا لتورطنا فيها كأفراد ومستهلكين.

بمعنى آخر، لا تقل لى أنك تحبنى، وتتخيل فى سرك ثقافتى - التى هى ما أكونه أنا - على أنها عنيفة بشكل وحشى أو فطريًا. أعطنى لحظات قليلة وسأخبرك ببعض ما تتضمنه تلك الثقافة. إذا أردت الاستماع، فإننى سعيد بأن أتحدث. لن تضطر لأن توافقنى أو حتى تصدقنى. إننى أطلب فقط ألا تُبطلنى، بطريقة ارتجالية، بالثقة المعرفية المفرطة. أنا سعيد، فى المقابل، أقدم لك المجاملة ذاتها. نحن لسنا بحاجة إلى أن نهذب تفاعلنا بالترشيح أو التقطير. يمكننا أن نتحدث بدلاً من ذلك مستخدمين لغة بدائية، خالية من الافتراضات الحتمية، وقاموسها غير منقى.

لقد حاولنا فى السابق ان نكون مهذبين فى الحديث. لم يفد ذلك بشيء، لأنه أتى بالإيثار الليبرالى. المستفيدون من هذا الإيثار، تم إسكاتهم، على الرغم من حقيقة أنهم كانوا يتكلمون. لقد استبدت هذه الأحاديث المهذبة بالعالم، مقسمة الناس إلى فئات فكرية، واصمة الحدود على أساس الماهيات الحضارية، ومرتبة حسب الأهمية الحقوق فى التعبير. وسائل تبادل الآراء والمعلومات خُذت من قبيل نماذج الحقيقة على أنها إسقاطات أنانية. لقد فاز الليبراليون البيض بسبق الحديث مباشرة بصنعهم لمصطلحاته، ثم باختراعهم خرافات الأهلية والموضوعية.

أن تكون موضوعيًا هو قمة الثقافة الحقيقية. ولكن خدعة الموضوعية سيتم اكتشافها بأسرع ما يمكن، لأنه، من الأماكن المظلمة الكامنة حول الوعي الغيرى، يبرز أبناء الضوء الذين لم يسمع بهم أحد. واصلين أذرعهم ببعضهم البعض. إنهم يكتبون رسالة إلى الناس المتفقين.

المؤلف فى سطور:

ستيفن ساليتا

- ولد سنة ١٩٧٥ فى بلوفيلد بولاية فرجينيا الأمريكية
- أستاذ مساعد فى اللغة الإنجليزية بجامعة فرجينيا تك
- متخصص فى الكتابة عن العرب الأمريكيين، والسكان الأصليين، والعرقيات، بالإضافة إلى الأدب.

من كتبه:

- العنصرية ضد العرب فى الولايات المتحدة
- الأرض المقدسة فى انتقال
- قصص أدبية عربية أمريكية
- الخطاب الإنترنتى للمجموعات العربية
- الحروب الهمجية

المترجم في سطور:

يوسف عبد العزيز

- من مواليد قنا ١٩٦٩
- ليسانس في الأدب الإنجليزي، جامعة أسيوط ١٩٩١
- مقدم برامج بإذاعة جنوب الصعيد
- شاعر ومترجم
- عضو اتحاد كتاب مصر

صدر له:

- للصمت والرماد، مجموعة شعرية، ٢٠٠٤
- اتحاد العمال يدفن رجله المتوفى، قصص مترجمة، من تأليف هنرى لوسون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق عالمية، ٢٠٠٦
- وردة حمراء.. وردة بيضاء، شعر مترجم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق عالمية، ٢٠٠٩

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل

